رشاد أبو شاور

وداعًا يا زكرين

رواية

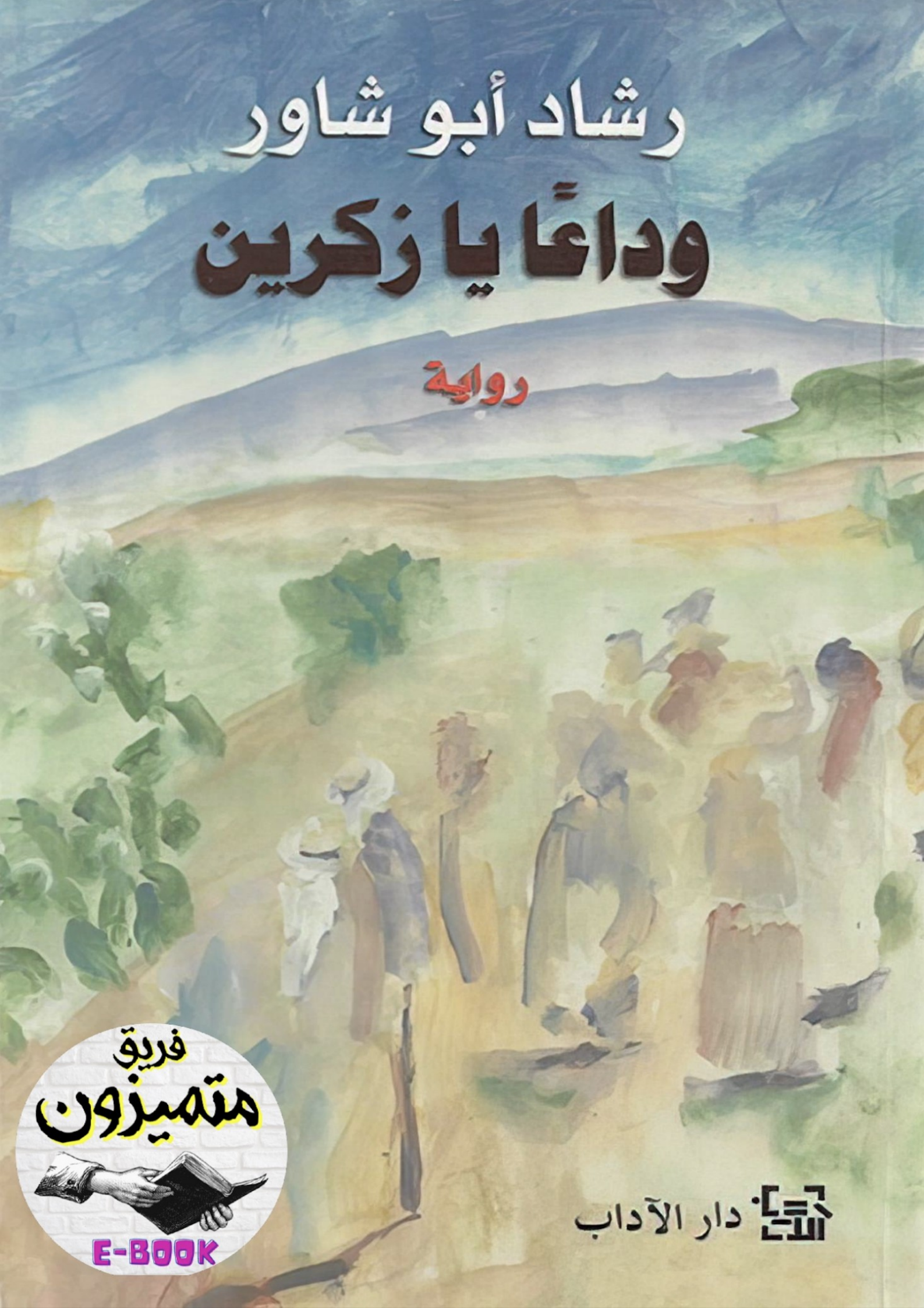

فريق متميزون
E-BOOK

دار الآداب

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

وداعًا يا زكرين

رواية..

الكاتب: رشاد أبو شاور.

عن الرواية..

حكاية أسرة، ووطن، وقلوب أحبّت وتعذّبت.

تبدأ الرواية مع انهيار الإمبراطورية العثمانية، وتتشابك أحداثها مع الاحتلال البريطاني، والتسلل الصهيوني في ظلّ هذا الانتداب الى فلسطين...

تستفيد الرواية من السيرة والتاريخ، ولكنها تبقى رواية قلوب ومصائر، تفيض بالحب، وتتألق بالعلاقات الإنسانية العميقة، والعيش في طبيعة وادعة تبدو راكدة، ولكنها تمضي مع الحياة متشوّفة الى المعرفة، ورؤية الدنيا..تمتزج في الرواية رائحة التراب بالبرتقال بزرقة البحر.. بدموع الأحبّة، ولوعتهم من الفراق.

.

.

"تزامن صدور رواية رشاد أبو شاور الاخيرة "وداعا يا زكرين" عن دار الاداب مطلع هذا الشهر مع تكريمه من قبل اتحاد الكتاب العرب بمنحه جائزة القدس ،بعد نصف قرن من الكتابة الابداعية والصحفية والنقدية كرّس كل جهده لفلسطين وشعبها وللامة العربية وهمومها"

.

"اية "وداعا يا زكرين" تثير في نفس قارئها انفعالات لا يمكن تصور تداعياتها بصدق الرواية وواقعية احداثها لتعيش طويلا في صدور الجيل الذي قرأ تاريخا مشوها عن ترك أبناء قرى فلسطين طوعا،ودون مواجهة،فجاءت هذه الرواية لتكون نموذجا واضحا لما حصل لمئات من القرى شهدت مذابحا وتدميرا أبشع بكثير مما حدث في هذه القرية." الحياة الجديدة

رشاد أبو شاور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

أسندن ظهورهنّ إلى جدران البيوت التي تواجه البيادر، مظلَّلات عيونهنّ براحاتهنّ، مادات أبصارهن إلى البعيد، على أطياف رجال عائدين تلوح، حاملة البشرى بعودة أحبّاء غابوا بعد أن تركوا الحسرات في القلوب.

وقفن بأثواب بالية بهت تطريزها، لا لأنَّهنّ لا يمتلكن غيرها، ولكن لأنَّه ليس من الوفاء للغيّاب أن يرتدين أثوابهن المطرَّزة، أثواب الأعراس والأعياد، بينما رجالهنّ في بلاد بعيدة، لا يعرفن عن مصائرهم شيئًا.

علَّمن الأولاد الصغار كيف يلبدون في الكروم القريبة المحيطة بالقرية، ليراقبوا الطرق المحيطة، حتى ينبِّهوا النسوة الناطرات إن هم لاحظوا اقتراب جنود غرباء، راكضين وهم يشيرون محذِّرين بأيديهم وأصواتهم التي تسبقهم: عسكر.. عسكر... فيتراكضن إلى بيوتهنّ، ويتريَّثن في إغلاق بواباتها حتى وصول الأولاد، والاطمئنان على عودة آخر واحد منهم.

اعتدن أن يوصدن بوّابات الدور، ويتسلَّحن بالعصيّ والفؤوس عادة، عندما يسمعن قرعًا، أو صياحًا عاليًا غير مطمئن.

كان المختار أبو إسماعيل يطل عليهنَّ بين وقت وآخر ليطمئنهنَّ ويهدهد مخاوفهن، باثًّا الأمل في نفوسهن القلقة:

سيعودون إن شاء الله، لا تخفن أنا في الداخل، وبوّابة داري مفتوحة.

ثمّ يلوِّح بطبنجته:

وهذه موجودة.. وإن شاء الله لا نحتاجها.

يحاول أن يمطّ قامته القصيرة، وينصّب هامته موحيًا بالهيبة، هو الذي آلت إليه المخترة بعد وفاة العجوز عبد الهادي قبل سنة واحدة من اشتعال الحرب، ولذا يردِّد لنفسه نادبًا حظَّه: يا فرحة ما تمّت.. جاءت المخترة فنكّدت الحرب علينا!

باتت النسوة أكثر شجاعة من ذي قبل، بعد أن علمن أنَّ الدولة انكسرت، وأنَّ الجنود يفرّون ويعودون إلى قراهم البعيدة، والقريبة المجاورة: عجور، دير الذبان، بيت جبرين، تل الصافي، زكريا، الدوايمة، رعنا، كدنا، صميل...

أخذت أعدادهن تتناقص بعد عودة بعض الغيّاب، لكنْ من تبقَّى منهنّ، ممن لم يعد غيّابهن، واظبن على التجمُّع لصق جدار بيت المختار، قبالة البيادر، وبتن أكثر شجاعة، وتخفَّفن من الحذر فتجاسرن على المشي باتّجاه البيادر، والتريُّث هناك، وهنَّ يتحسَّرن على أيّام راحة البال، أيّام الحصاد، ودراسة المحصول، وأكياس القمح المتراصَّة المتساندة في ختام الموسم، وليالي الأعراس في الصّيف، وزفّات العرسان والعرائس.

بعثت عودة بعض الرجال العائدين من الحرب بالسلامة في نفوسهنّ الشجاعة، خاصّة وقد أخذوا يتجوَّلون حول القرية مرسلين نظراتهم بين التلال، وعلى سفوحها وقممها، ليكونوا أوَّل من يرحِّب بالقريب، أو الجار، أو الصاحب، الذي تُكتب له النجاة من الموت في الحرب.

كانت أيدٍ كثيرة غريبة تطرق أبواب بيوتهنّ، وتلحّ بالكلمات القليلة نفسها: يكمك يا مستوره، لتردّ النسوة والأولاد بشيء من الفزع والتوتُّر على الطارقين: يكمك يوك.

من سلمان تعلَّمت نسوة القرية أن يردِّدن على الطارقين السائلين، بكلمتين تركيّتين: يكمك يوك. فسلمان رغم خدمته في حرب الروملي، وتقدُّمه في العمر، إلّا أنَّه اختبأ عند أصحابه البدو في بئر السبع، فهو لا يثق بأنَّ الدولة لن تجرّه مرّة أخرى إلى الحرب، وتقتاده للسفر برلك، وهو شجّع بعض من لم يتمّ الاهتداء إليهم لأخذهم للحرب، على اللّجوء للتلال المحيطة، والمغاور، والإقامة في الكهوف، والاعتناء بزوجاتهم، وبناتهم وأولادهم، وبكرومهم، وبأرضهم التي لشدَّة خوفهم من مباغتة الجنود لهم، والقبض عليهم لاقتيادهم للحرب، ما عادوا يحرثونها.

أخوه مرشد، وابنه الأكبر محمّد اقتيدا لحرب السفر برلك. لم يطاوعه محمّد فيهرب، كما فعل شقيقه أحمد الأصغر منه، والقصير القامة، الذي التصق به لقب (القصير): «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين يابا».

هذا ما ظل محمّد يردِّده إلى أن غاب وغابت أخباره.

أحمد شاطر، مثل عصفور القرقز الحذر الذي يخدع الصيادين بنطنطته، وترقيص ذيله، مقتربًا ومبتعدًا، ومرفرفًا بجناحيه فوق الفخّ، ثمّ ينقضّ فيلتقط بمنقاره حبّة من القمح المرشوش على الفخ لاستدراجه واصطياده، ويفرّ عاليًا.

وأبو خليل، القرقز، لا يطرب للأغنية، بل يعلو وينقضّ ويلتقط الحبّ حبّة بعد أخرى.

يا بو خليل

عمرك طويل

قرِّب كمان

كمان شويْ

يفر أبو خليل مرقِّصًا ذيله، غير آبه بالأغنية التي تستدرجه للفخّ..هكذا فرّ أحمد، ونجا من اقتياده للسفر برلك.

تنبَّه أحمد إلى أنَّ مجموعة جنود يظهرون فجأة، وهم يغذّون الخطى لمباغتة من يجدونه في طريقهم من رجال القرية.

أمسك بلوح صبّار، واستلّ شبريّته من حزامه، وضرب لوح الصبّار، وبما سال من عصارته دهن جفنيه وعينيه، قبل أن يسدِّد الجنود بنادقهم صوبه.

عرف أحمد أنَّه لو حاول الهرب فسيطلقون عليه الرصاص، ولذا لجأ لهذه الحيلة التي أضمرها في ذهنه، منذ بدأت مداهمات الجنود للقرية، واقتيادهم الرجال للحرب.

بعد أن هرب واختبأ في إحدى المغاور، التقى بوالده، فأخبره بحيلته، بينما الأب يضحك ويضرب كفًّا بكفّ معجبًا بنباهة ابنه:

لفّوا حولنا حبلًا، ثمّ ازداد عددنا عندما قبضوا على بعض الرجال من قرية الدير، فتخلّوا عن الحبل، وساروا وهم يحيطون بنا، بينما أنا أتعثّر في مشيتي، وأبتهل لهم أن يعيدوني إلى القرية.. فماذا يستفيدون من شبه ضرير، بالكاد يرى أمامه، فما الذي سيفعله في هذه الحرب؟!

الأب يضحك مستمتعًا، بينما أحمد يروي له:

حرَّضت من كانوا قربي، قلت لهم: سنموت في هذه الحرب بعيدًا عن أهلنا.. فلماذا نموت؟ سألوني: ماذا نفعل؟ قلت لهم: نهرب. سألوني مندهشين: أنت يا أعمى تقول هذا؟ همست لهم: اتبعوني عندما أصيح: هاع.. وسترون ما سيفعله الأعمى.

صرنا قرب كروم الدير المسوَّرة بالصبّار، فصحت، وعيناي على منفذ ومخبأ بين ركب الصبّار: هاع.. وطرت عن وجه الأرض فتبعثر الرجال، وصار كل واحد في جهة.. فمن أين لخمسة جنود أن يلحقوا بالجميع، ولمّهم؟ لبدت يابا تحت أشجار الصبّار مثل الواوي. أنا تحت الألواح المليئة بالشوك، وهم ينظرون في كلّ الجهات ولا يروننني. سمعتهم يقولون لبعضهم: كلُّه من الأعمى.. الأعمى ابن الحرام.. ربما ليس أعمى، وإلَّا كيف ابتعد، واختفى؟! سمعت أحدهم يتوعَّدني: آه يا أعمى يا كلب لو أمسكنا بك، سترى ما سنفعله بك.. والله غير انخوزقك يا عرص! ثمّ يئسوا واستأنفوا سيرهم إلى القرى المجاورة.

الأب يضحك، ويثني على نباهة وحذر أحمد، ويتحسَّر على شقيقه مرشد، وابنه محمّد الذي لم يعد من الحرب بعد، والذي لا يعرف عنه في أيّ جبهة حرب يقاتل: في اليمن.. في السويس، في بلاد الروملي؟..أعده يا ربّ سالمًا. أعده سالمًا.. فأنت تعلم كم أحبّه، وأعد أخي مرشد، وكلّ من اقتيدوا للحرب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخرج سلمان صفيرًا عاليًا متقطِّعًا، فظهر أحمد من دغل أشجار غير بعيد، وهو يلوِّح بيديه، واتَّجه صوب والده مهرولًا، متقافزًا بين الصخور.

اندفع إلى والده، وأخذ يده بين راحتيه، وأهوى على اليد يقبِّلها مرّات ويرفعها إلى جبينه.

أحنى سلمان جسده المديد النحيل واحتضنه، وهزّ الجسد الصغير المتين، وهو ينبِّئه بفرح:

انتهت الحرب يا ابني الحبيب.. انتهت، وإن شاء اللَّه يعود عمّك مرشد، وأخوك محمّد، ويعود كل غياب بلدتنا، ونعود لنحيا كما كنّا.

رأيت جنودًا كثيرين يمرُّون من هنا، فخفت منهم في البداية، لكنَّني لحظت أنَّهم أشباه عراة، وأنَّهم يسيرون مترنِّحين، ورأيت بعضهم يلتهمون الثمار العجراء، فاطمأننت إلى أنَّ هؤلاء ليسوا الجنود الذين يطاردون الرجال لسوْقهم للحرب، ولكنَّني احترت في ما أرى.

أخذ أحمد الرسن من يد والده، وأمسك بالكيس الذي يحمله الحمار.

أخبره والده:

هذا كيس قمح.

ثمّ، وهو يربِّت على الكيس:

اللَّه يخلف على الأصحاب الذين لم يقصِّروا. لقد غمروني بمعروفهم، وإن شاء اللَّه ربّنا يقدِّرنا ونردّ لهم الجميل. أنت تعرف يا أحمد أنَّنا وإيّاهم أصحاب من أيّام أجدادنا، فهم كانوا دائمًا يقيمون عندنا في أيّام الحصاد، ومعهم قطعانهم لترعى في المواسم، وليأخذوا كميّات من التبن لحلالهم مونة للشتاء.

رأى عبد الرحمن يطير عن وجه الأرض، ففتح ذراعيه متهلِّل الوجه، وإذ صار بين ذراعيه مرجحه، وهو يسأله إن كان والده قد رجع، فبكى الولد، وارتجف جسده بين ذراعيْ عمّه، وهو يجيب بصوت يقطعه البكاء:

أبي لم يرجع يابا سلمان.

سأله عمّه، وهو يضحك مشيرًا إلى ابنه أحمد:

هل غشمت عن هذا الرجل؟

تأمَّل عبد الرحمن وجه الرجل المغطَّى بلحية تتسدل على صدره، ثمّ قرَّب وجهه منه، فباغتته ضحكة أحمد ابن عمه، واحتضانه لرأسه، وتقبيله له، وهو يردِّد:

كبرت يا ابن عم، وصرت رجلًا يا عبد الرحمن.

طار عبد الرحمن ليبشِّر أمّه وخالته فاطمة وخالتيه الصغيرتين حليمة وآمنة بمجيء العمّ سلمان، ومعه أحمد ابن العم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرف الأولاد العمّ سلمان. لوَّح لهم وهو يناديهم مطمئنًا، فاقتربوا منه.

أخذ يناولهم من يده المضمومة حفنات من الزبيب يغرفها من كيس صغير، فيلتهمون ما يعطيهم بشراهة، حرصًا على أن لا تسقط حبّة زبيب واحدة من بين أصابعهم.

ارتفعت أصوات الأولاد وهم يتقافزون ملوِّحين للأمّهات والقريبات:

هذا عمّنا سلمان.. عمّنا سلمااان. لا تخفن يا نسوان.. عمنا سلمان.

دقت قلوبهن فرحًا به، فهو لم يعتد الظهور هكذا في المرَّات السالفة التي تسلل بها إلى البلد.

وهو ينقّل نظراته بينهنّ، بشّرهنّ:

اقترب الفرج. الحرب انتهت، والغيَّاب سيعودون سالمين إن شاء اللَّه.

اقتربن منه، ومن بينهنّ اندفعت ذوابة وفاطمة وبينهن آمنة، وسلّمن عليه متهلِّلات.

أخذ نفسًا عميقًا:

الحمد للَّه: الحرب خلاص انتهت.. وكثيرون عادوا إلى قرى جبل الخليل الفوقا، وبقية أقاربنا سيعودون قريبًا إن شاء اللَّه، فلتطمئن من لم يعد غائبها بعد.

ربَّت على رأس آمنة أصغر الشقيقات:

كبرتِ يا آمنة.

سأل: أين حليمة؟

دفعت فاطمة أختها حليمة التي كانت تتوارى خلفها، وهي تأمرها:

بوسي يد عمّك يا حليمة.

ما شاء اللَّه عليك يا حليمة.

احمرَّ خدّا حليمة.

اللَّه يستر عليك يا حليمة، وعليكن جميعًا، ويرزقكن بأبناء الحلال.

نبَّههن عبد الرحمن إلى أحمد (أبو لحية)، فدهشن لمنظره الغريب، فشعره طال حتّى غطّى عنقه، ولحيته كبرت حتّى نزلت على صدره. كنَّ يعرفن أنَّه يعيش حول القرية، لكنّهنّ لم يرينه منذ ثلاث سنوات، فضربن كفًّا بكفّ مستغربات فرحات، وهنّ يهنِّئن سلمان بنجاة أحمد من الحرب، ويتمنَّين عودة محمّد، وشقيقهن أحمد، ومرشد زوج ذوابة.

أمسك عبد الرحمن برسن الحمار، واقتاده، بينما سار الموكب وراءه: العمّ سلمان وابنه أحمد معًا، وخلفهما الشقيقات الأربع.

دخلوا حوش البيت، فوقف سلمان وأخذ يجيل نظره على أركانه، ويمرِّر نظره على الغرف.

تأمَّل الطابون الذي لم يُخبز فيه منذ زمن، فقال:

نريد أن نشمّ رائحة الخبز يا بنات. هيّا أخرجن الطاحونة، وبسرعة نريد أن نأكل من خبز القمح. أكيد أنتنّ جائعات، وأنا وأحمد بطوننا فارغة، والشاب عبد الرحمن جائع.

شمَّرت ذوابة وفاطمة، وأخرجن الطاحونة، وانهمكن في الطحن، بينما تمدَّد العمّ سلمان على المصطبة، وأسدل كوفيَّته على وجهه، أمّا أحمد فهمس في أذن عبد الرحمن:

أريد أن أذهب لقراءة الفاتحة على قبر أمي، هذا نذر نذرته إن نجّاني الله من الحرب، وها أنا قد نجوت. هل تأتي معي؟

أومأ عبد الرحمن برأسه أن نعم. فمضيا معًا، بينما خلفهما ارتفع صوت الطاحونة، وتصاعد دخان الطابون.

ما إن لاح الضريح أمام ناظريهما حتى تعالت دقّات قلبيهما، فها هما قد عادا ووصلا إلى رحاب الشيخ أبي عمران، الذي نذرا أن يزوراه ويقرأا له الفاتحة قبل دخول القرية والالتقاء بأسرتيهما.

تهالكا على التراب قرب باب الضريح وأجهشا بالبكاء، فهما لم يتوقَّعا أن يعودا سالمين بعد سوْقهما للحرب، وقضاء ثلاثة أعوام رأيا فيها الموت الرهيب مرّات كثيرة، ونجيا بلطف الله الذي كتب لهما عمرًا جديدًا، وهما في شنق قلعة، يحملان القذائف الضخمة، ويزوِّدان المدافع بها، بعد اختيارهما ليكونا توبجيَّة.

نُقلا في القطار إلى الشام، ومنها إلى عمّان، وعندئذ أُبلغوا بانهيار الجيوش في الجبهات، فتبعثروا، واتَّجه كلٌ إلى قريته أو مدينته، هائمين على وجوههم، دون أن يعرفوا كيف انكسرت الدولة، وماذا سيحدث لها.

من عمّان اتَّجها إلى الأغوار مع عشرات الجنود، وبعد ثلاثة أيّام من المشي بلغوا الشونة الجنوبيَّة، ومن هناك عبروا النهر. وفي أريحا ارتموا على الأرض وناموا ليلة تحت أشجار النخيل، ثمَّ استأنفوا مسيرتهم إلى القدس التي بلغوها بعد ثلاثة أيّام، ثمَّ إلى الخليل، فبيت جبرين..فذكرين!

كم يومًا مشينا يا حرب؟!

سأل مرشد، فأجابه حرب:

حوالى أسبوعين يا مرشد.. جوع، وعطش، وتعب. أشعر بأنَّ عظامي تذوب في بدني يا مرشد!

وهل حالي أفضل يا صاحبي. ولكنْ، الحمد لله: ها نحن في ذكرين.. عدنا لأهلنا يا حرب.

سقطا على الأرض، كما لو أن بدنيهما بدون عظام، بجسدين رخوين مرتجفين. تلاشت قوّتهما بسبب تعب المشي عبر طرق وعرة، وقلَّة النوم، وحفاء القدمين، والجوع الذي اضطرهما أن يأكلا الأعشاب التي لا تُشبع، وتتَّسبب بأوجاع المعدة، والتقيّؤ، والإسهال، والوهن.

دهمت نفسيهما رهبة وقلق، وهما يشملان القرية بنظراتهما، فلا يأنسان إلى أصوات الناس، ولا لرؤية القطعان وهي ترد إلى البركة في هذا الوقت قبل أن يعود بها الرعاة إلى الكهوف الحصينة، أو بيوت أصحابها.

لا نساء يرِدن إلى الآبار، ويعدن إلى بيوتهنّ بجرار ممتلئة على رؤوسهنّ قبل غياب الشمس.

تنهَّد حرب تنهدة مديدة، وهو يتَّكئ على التراب براحتيْ يديه، ثمّ يستنهض بدنه.

يلّا يا صاحبي..

تساندا في سيرهما، واحدهما على كتف صاحبه، وسارا مرهفيْ سمعهما، علّهما يسمعان هديل الحمام البرّيّ في حقول الزيتون، وفي الأحراش التي تمرّ بجانبها الطريق إلى القرى المجاورة.

كأنّما يحكي لنفسه، قال مرشد:

لطفك يا رب. نريد أن نرى أهلنا سالمين يا أللَّه!

طمأنه حرب:

قلبي يحدِّثني أنَّهم جميعًا بخير.

تساءل مرشد:

والغيّاب يا حرب.. أقاربنا، وجيراننا، وأهل قريتنا؟

كأنَّما يدحر حرب عن نفسه الخواطر السيِّئة:

كما عدنا سيعودون، إن شاء اللَّه يا مرشد.

ودَّ مرشد لو يتساءل بصوت يسمعه صاحبه، ولكنَّه كتم تساؤله في صدره: وهل كلّ غائب في الحرب يعود؟ وانطلقت آه عميقة من صدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقَّف أحمد، وقد رأى رجلين قادمين من بعيد. حاول أن يتعرَّف عليهما، ولكنَّه رغم تحديد نظره صوبهما لم يستطع تبيّن ملامحهما.

رأى بعض العصافير تهبط على المكان الذي أخفى فيه فِخاخه، فركض وقد رأى أحد الفخاخ يطبق على عصفور أغوته البذور المرشوشة فوق فكَّيْ الفخّ المدفونين تحت التراب.

قال لنفسه: وهذا عصفور آخر.. سبعة عصافير تكفي اليوم.

اقترب الرجلان، فلبث واقفًا قليلًا، لكنَّه ميَّز أحدهما فصاح:

عم مرشششد..

شدَّ مرشد جذعه، وما إن رأى أحمد ابن أخيه سلمان بقامته القصيرة، وسرعته التي ميَّزته منذ طفولته، يطير عن الأرض، حتى فتح ذراعيه، وقد تجمَّد الكلام في فمه المفتوح العاجز عن النطق.

تأمَّله، وقد أبعده قليلًا من بين ذراعيه:

أنت بخير؟

ولم ينتظر جوابه:

والأهل بخير؟

أجابه أحمد وسط لهاثه:

كلُّنا بخير، والدي سلمان رجع ومعه كيس قمح، والعمّات بخير كلّهنّ، وعبد الرحمن كبر وصار بطول الرجل الوافي القامة.

عندئذٍ ضحك حرب:

أنت رجل، ولكنَّك لست وافي القامة.

لم يزعل أحمد:

قصر قامتي ساعدني على الهرب من العسكر.

سأله:

يعني أنت لم يقتادوك للحرب؟

هربت.. هربت من بين أيديهم، وهرّبت كثيرين معي من أبناء القرى المجاورة.

ابتسم عمّه مرشد، وأخذ يمرِّر راحة يده على رأسه، ويداعب لحيته الكثّة الطويلة:

طول عمرك شاطر وحذر.

اقترح حرب:

فلنشرب من ماء قريتنا.

كانا قرب الآبار، فاندفع أحمد وأنزل دلوًا في البئر، ثمّ أخرجه وقد امتلأ، وقدَّمه لعمّه مرشد، الذي قال لحرب:

إشرب أنت يا حرب هكذا اتفقنا، أم نسيت؟

غبّ حرب من الدلو الذي كان يرفعه أحمد بيديه الإثنتين، ثمّ مدَّه إلى عمّه مرشد، فانحنى وشرب قليلًا، ثمَّ رفع رأسه:

لا أطيب من ماء ذكرين في الدنيا كلّها. هات يا ابن أخي.. هات، أريد أن أروي عطشي عن سنين طويلة.

بلَّل صدره، ثمَّ رشّ الماء على رأسه، واختلطت دموعه بالماء. رفع رأسه، فإذا البيوت في العينين، وإذا بعض الأصوات تصل إلى الأذنين، فدفعا جسديهما متناسيين تعبهما، وأحمد يسبقهما راكضًا ليبلِّغ الأهل بالخبر المفرح.

أرهفا السمع لأصوات الزغاريد، وهما يدخلان القرية، ورأيا نساء يقتربن منهما، فتوقَّفا وهما يرسلان نظرهما علَّهما يتعرَّفان على قريباتهما.

توقَّفت النسوة، وأطلقن الزغاريد، ثمَّ مشين متأمِّلات القادمين، ومن بينهنّ اندفعت عمّة حرب، وزوجته، ولم يتبيَّن مرشد أحدًا من قريباته، ولكنَّ النسوة أحطن بهما، واختلط كلامهنّ المرحِّب الفرِح بعودتهما بأسئلة سريعة متداخلة عن أقارب لم يعودوا، علَّهما رأوهم في الحرب.

مضى الموكب داخلاً القرية.. النسوة يتحدَّثن، والرجلان يمشيان منهكين مندهشين، وعيونهما تنزف دموع الفرح بالعودة ولقاء الأهل.

ارتفع صوت:

يابا...

تعرّف مرشد على صوت عبد الرحمن، ففتح فمه ليقول شيئًا، ولكنَّه عجز. فقط، قلبه أخذ يضرب في صدره بقوّة، كأنَّه يوشك أن يشقّ الصدر ويخرج لملاقاة عبد الرحمن.

وإذ دخل عبد الرحمن بين ذراعيْ والده، وصار في حضنه، تمرجح الجسدان، ودارا حول نفسيهما، فزغردت النسوة.

ركضت ذوابة صامتة، خجلة من أن تبالغ بالفرح أمام جاراتها، ونساء البلد اللواتي لم يعد أقاربهن، لأنَّه عيب أن تبدو طائشة غير متّزنة متلهِّفة على لقاء زوجها.

فقط، ارتفع صوتها:

مرشد! واللَّه رجعت يا أبو العبد.. الحمد للَّه على سلامتك يا ابن العم الغالي.

رجعت يا ذوابة.. عُمْر الشقيّ بقي.

مشت بمحاذاته، وأمسكت بيد عبد الرحمن الذي تشبَّث بيد والده.

حين بلغ الجميع بوّابة بيت مرشد، تعانق مرشد وحرب، وأجهشا على كتفيْ بعضهما بعضًا، ثمَّ بعد لأي، رفع كلّ واحد وجهه من بين عنق وكتف صاحبه وتأمَّل وجهه، ولم يقل شيئًا.. وافترق الجمع، ولكنَّ الرجلين كانا يتوقَّفان ويلوِّحان بعضهما لبعض، ثمَّ يمشيان قليلًا ليعيدا التلويح إلى أن توارى حرب؛ فدخل مرشد إلى حوش الدار ودموعه تسحُّ بصمت، وجسده يوشك أن ينهار على الأرض.. ومن نومه، هبّ سلمان على صوت مرشد، وتهلَّلت وجوه فاطمة وآمنة وحليمة.. أمّا ذوابة فكانت طائرة في السماء من الفرح.

عندما صارا خارج بيوت القرية، توقَّف أحمد، ورفع رأسه متأمِّلًا السماء، ثمَّ سأل عبد الرحمن:

هل ترى طيورًا في الفضاء؟

أجابه عبد الرحمن، وهو يجيل نظره في الفضاء:

لأ.. لا أرى.

مشى أحمد ببطء، وبدا لابن عمّه الصغير أنَّه حزن فجأة:

الطيور هجرت بلادنا، لأنَّها جاعت واستوحشت.

سأله عبد الرحمن:

استوحشت! كيف؟

سألْتِني كيف؟ الطيور تحبّ الونس، أما ترى السنونو كيف يبني أعشاشه على حيطان البيوت، وكيف يعيش الدوري حول البيوت، وكأنَّه من سكّانها؟ حتى الحمام البرّيّ لا يبتعد كثيرًا، فهو جار للناس، قريب من الحقول، وموارس الحبوب.

حكَّ عبد الرحمن رأسه، وفرك شعره الطويل المنسدل على أذنيه، ورقبته:

يمكن. لأنَّه لا يجد ما يأكله.

ليس فقط من أجل التقاط طعامه، ولكنْ لأنَّه يحب مجاورة الناس.

ضحك أحمد، وأضاف:

رغم أنَّ الناس يصطادونه ويأكلونه.

تأمَّل وجه عبد الرحمن، ووضَّح له فكرته:

الطيور ليست وحوشًا، لذا فهي تنفر من الوحوش، وتقترب من الناس.

لم يعرف عبد الرحمن ما يقول، فعلّق:

يمكن...

توقَّف أحمد، وسدَّد نظره باتّجاه دغل من الأشجار الكثيفة، وأشار بإصبعه:

هناك، كنت أعيش. وحول ذلك الدغل نصبت فخاخي، واصطدت الحمام البرّيّ، والعصافير، وما كان ينقصني إلّا الخبز. يا أللَّه كم اشتهيت الخبز! فحتى اللّحم، ولو كان لحم الطيور، لا يغني عن الخبز.

و.. أين كنت تنام؟

ها.. سألتني. كنتُ مع هبوط اللّيل أعود إلى القرية، وأنام في بيتنا الذي في الكرم. كنت أتسلَّق على السلّم، ثمَّ أسحبه وأمدِّده على السطح، وقبل شروق الشمس أنزل السلم، وأهبط و.. إلى الحرش، لأنَّ الجنود لن يحضروا في هذا الوقت، ثمّ هم يخافون من اقتحام الحرش للبحث عن الفارّين من العسكريّة.

أرهفا السمع لهديل الحمام البرّيّ. فجأة سأل عبد الرحمن:

ألا توجد وحوش هنا؟

ضحك أحمد من قلق ابن عمّه:

الضباع لا تخرج من أوكارها في النهار. إنّها حيوانات متوحِّشة في اللّيل، ولكنَّها تخاف من النهار وضوء الشمس. هي تخيف في العتمة. أمّا الذئاب فهي ليست كالضباع. أنا لم أر ذئبًا في حياتي، ولم أر ضبعًا، ولكنَّني رأيت الثعالب وأبناء آوى والنيص.

والأرانب؟

الأرانب، يا ابن العمّ، ليست وحوشًا، إنها مخلوقات مسكينة.. وجبانة، وحذرة.

وضحك وهو يضيف:

ولذيذة عندما تصطادها وتشويها، ولكنَّها تتعبك في مطاردتها.

هل اصطدت أرانب؟

ينشِّف ريقي قبل أن أصطاد الأرنب، لأنَّها لا تُصطاد بالفخاخ، وأنا ليس معي طبنجة. مرّة ضربت أرنبًا بالحجر، فأخذ يدور حول نفسه ودمه يتطاير.. فأمسكت به، وسلخته، وشويته، وأكلته. لذيذ، واللّه لذيذ! لكن كان ينقصني الخبز.

بلغا طرف الدغل، ففتح أحمد فمه على وسعه، وأخذ نَفَسًا عميقًا:

ما أحلى رائحة الأشجار: البلّوط، والعذق، والعشب، والتراب! التراب هنا له رائحةَ طيِّبة. اعتدت أن أضع ذراعي تحت رأسي، وآخذ غفوة وأنا أتنفَّس بعمق رائحة الأرض، والعشب، والأشجار، تحت هديل الحمام، وسقسقة العصافير. يا أللّه ما أحسن النوم هنا يا ابن العمّ.

ارتمى أحمد على الأرض، رغم أنَّه لم يتعب من المشوار غير المرهِق، لقرب المسافة من القرية، ولأنَّه اعتاد المشي لمسافات بين الأشجار وحول القرية، وارتاح دائمًا للنوم على العشب، وتشمَّم رائحة المكان.

ربَّت على الأرض، وبرأسه أومأ لعبد الرحمن أن يرتاح مثله، ويتمتّع بالمكان المشرف على القرية التي باتت قبالته.

زحف أحمد قليلًا، ومدّ يده في مكان لا يبدو أنَّه يحوي شيئًا، واستلّ فخاخه المختلفة الأحجام، وابتسم لعبد الرحمن:

هذه فخاخي.

لم يعلِّق عبد الرحمن، فهو يرى الفخاخ، ويعرف أنَّها لابن عمّه، وأنَّه صنعها بيديه، وبها اصطاد ما يشبع بطنه من العصافير، والحمام البرّيّ.

عبدو...

هكذا نادى أحمد ابن عمّه الصغير، فرفع عبد الرحمن رأسه، وفتح عينيه:

سنعود إلى القرية، وننصب فخاخنا قريبًا في كرم عمّي مرشد، فالعصافير بدأت تظهر، وتعود للقرية... سنشويها ونأكلها مع الخبز، فأمّك تخبز على الطابون، والحمد للّه بدأنا نشمّ رائحة الخبز تفوح من الطوابين.

هبطا التلة، واتّجها إلى كرم مرشد، وهناك دفنا الفخاخ في التراب، ورشا بذورًا جافّة فوق التراب الناعم، ولبدا تحت تينة وارفة مازالت ثمارها عجراء، وعيونهما تركِّز نظراتها على الفخاخ المدفونة، والعصافير التي ما زالت تسقسق فوق الأغصان.

قال أحمد:

لا بد من الانتظار.. فالصيّاد لا بد أن يكون صبورًا.

هزّ عبد الرحمن رأسه. وبعد قليل، ارتفع شخيره ومال جسده، وأغفى؛ فابتسم أحمد وهو يشمله بنظره: لو كنت أكبر قليلًا يا عبدو لاقتادوك للحرب.. مليح أنَّك صغير.. فهذا من حظّك!

وضعت ذوابة أمامها الباطيّة وانهمكت في العجن.

فاطمة انشغلت في إعداد الطابون، بينما آمنة وحليمة تسترقّان النظر إلى الرجل الغائب منذ سنوات، والذي تغيَّرت هيئته عليهنّ.

يغمض عينيه، ويتنفَّس بعمق، ثمَّ يستند وينقّل نظره في ما حوله كأنَّه غير مصدِّق بأنَّه في بيته، ومع زوجته وابنه عبد الرحمن النائم على فخذه مطمئنًا، وشقيقه سلمان.. وفي ذكرين.

تأمَّل ذوابة وهي تدخل في الطابون، حاملة الباطية بين يديها، فتمنَّى أن يهبط اللّيل بسرعة لاشتياقه لها.

فاحت رائحة الخبز من الطابون، فقال لنفسه: ليس أطيب من رائحة خبز الطابون، والبني آدم في بيته وبين أهله.

خرجت ذوابة وفاطمة من الطابون، وطبق الخبز مغطًّى بالأرغفة المقمَّرة.

وضعت الطبق قدّام مرشد، وابتسمت في وجهه، وامتلأ قلبها بالفرح وهي ترى عبد الرحمن نائمًا على فخذ أبيه.

ادّخرنا الطحينات عندما عرفنا أنَّ العساكر يعودون من الحرب.

ولتؤكِّد له على معزّته:

طحين قمح غير مخلوط بالذرة البيضاء.. يا مرشد.

وضعت فاطمة صحنًا فخاريًّا ممتلئًا بزيت الزيتون، وصحن زيتون رصيص، وتنهَّدت بقوّة:

لا تؤاخذنا يا ابن العمّ على هذا الطعام الفقير. فلم يبق دجاج عندنا، ولا حمام. شيء أكلناه، وشيء مات من الجوع. نحن والجوع تسابقنا على الحمام والدجاج.

تساءل:

أين راح سلمان؟

ردَّت فاطمة:

لا أحد يعرف أين يذهب ومتى يعود. الحمد للَّه ستر علينا، فالطحين لم ينقطع عندنا، وفي موسم الزيتون كان يحضر ويحرسنا. كان يختبئ وراء الصخور، ولكنَّنا نقطف مطمئنات، لأنَّنا نعرف أنَّه قريب منّا.

قال مرشد:

أحمد شاطر.. هرب من العسكريّة، ولم ير ما رأيناه !

قالت ذوابة:

غافل العساكر وهرب، مرّات كان يزورنا ثمَّ يختفي بسرعة. كان يخشى أن يحضر العساكر لاقتياده للحرب.

قال مرشد:

فاجأني أحمد عندما شفته.. بلحيته وشعره الطويل. الحمد لله أنّه نفد بجلده من الحرب والغربة.

تململ عبد الرحمن، وبدأ يصرف على أسنانه، فمسّد والده على رأسه.

رفع رغيفًا إلى أنفه وتشمَّمه، ثمَّ باسه:

الحمد للَّه على هذه النعمة. عدت وشفتكم، وها أنا آكل من خبزنا وزيتنا وزيتوننا.

سمع ثغاء خروف، فتوجَّه بنظره صوب البوابة، فرأى سلمان يجرّ خروفًا من قرنه. ضحك سلمان وهو يتأمَّل شقيقه مرشد:

بعد غياب ثلاث سنوات، قطعنا فيها الأمل بعودتكم، من غير المعقول أن لا نذبح لك، ونتزفّر باللّحم يا ابن والدي.

همَّ مرشد أن يسأله عن الخروف، لكنَّه أحجم؛ فسلمان يعرف دائمًا كيف يتدبَّر الحصول على لحم يأكله.

استيقظ عبد الرحمن، ودعك عينيه، كأنَّه غير مصدِّق ما يرى، فوالده أمامه، وخبز ساخن بكمّيّة كبيرة على الطبق يملأ أنفه وصدره برائحته، وعمّه سلمان يشمِّر عن يديه، ويهمّ بذبح الخروف الذي يتصاعد ثغاؤه الحاد. أمسك بكتفيْ والده، وانهمر في تقبيل رأسه، ووجهه، فنهرته أمّه:

أترك والدك يأكل يا عبد...

نادت فاطمة على آمنة وحليمة:

يلاّ نملأ الجرار يا بنات...

حملت البنتان عسليّتين صغيرتين، ووضعت فاطمة الجرّة على رأسها المغطّى بوقاة تحت غدفتها، وساد صمت بين المشتاقين الذين يجتمعون بعد طول غياب، وانقطاع أمل في اللقاء.. صمت تعجز عن التعبير عنه كلمات الفرح، فتعبِّر عنه العيون بلهفة شوق احتبس طويلًا في الصدور.

توقَّف مرشد في طرف أرضه، وأخذ يمرِّر نظره على التلال، والحقول، والبيوت البعيدة، والطرق الترابيَّة التي تصل بين القرى المتجاورة، والمسارب بين الحقول التي اختفت ملامحها لقلَّة ارتياد أقدام العابرين، وانعدام مرور البهائم عليها.

طيور قليلة ترفرف فوق أشجار الزيتون والخروب والأحراش على سفح التلّ المقابل، تعلو قليلًا ثمَّ تحطّ عاجزة عن الارتفاع لضعف ألمَّ بها من قلّة توفّر الطعام.

كلّ شيء جائع، الأشجار شاحبة، والطيور باتت نادرة.

مشى محنيًا بدنه، عاقدًا يديه وراء ظهره حتى وصل منتصف الأرض، فارتمى وقد فاض الحزن من قلبه على بدنه كلّه، فشعر بالوهن.

ضرب على وجه الأرض الناشفة، فهاله أنَّه يوشك أن يتحوَّل إلى قشرة شديدة اليباس، بحيث يتعسَّر اختراقه بسكة الحراثة، ويصعب شقّ الأثلام.

جلس حائرًا، يقلِّب الأفكار في رأسه، فلم يجد حلًّا. تساءل بحيرة: من أين سأحصل على ثورين، أو بقرتين، لحرث هذه الأرض المهجورة منذ غبت عنها في الحرب؟!

أرعد صوتٌ حبيبٌ على قلبه، هو صوت حرب، الذي اعتاد عليه يملأ الفضاء حين يرتفع بندائه المعتاد: هووووو يااااا...

نهض مرشد، واتّجه بنظره إلى مصدر الصوت الذي قدِّر أنَّه لا بدّ آت من جهة البلد، فرأى حرب بقامته المديدة، وهو يقتاد وراءه بهيمتين، ويلوِّح بيده المشرعة عاليًا.

اقترب حرب، وظلّ صدى ندائه المدوِّي في رأس مرشد.

غذ حرب السير، وهو يجذب البهيمتين، ووجهه يتألَّق بابتسامة ظفر امتدّت إلى قلب مرشد، فتبدَّد حزنه، واستبشر بصاحبه.

قبل أن يصل، ارتفع صوته:

يا مرشد: هل توقَّعت أن أحرث أرضي قبل أن تحرث أرضك؟ لأ.. ليست هكذا الصحبة يا صاحبي.

فتح مرشد ذراعيه، واحتضن صاحبه، وهو يردِّد:

بالعبط يا صاحبي.. يا أخي الذي لم تلده أمّي، يا رفيق أيّام الموت، والطريق، و...

ودارا حول بعضهما بعضًا، بينما يد حرب تشدّ الحبلين المربوطين برقبتيْ البقرتين.

كان حرب قد وضع على ظهريهما النِّير، والسكّة، والحبال، فأخذ ينزلها عنهما، ويشدَّها بعضها إلى بعض ويربطها بعنقيْ البقرتين.

سأله مرشد:

ماذا تفعل يا حرب؟!

أجابه حرب ضاحكًا:

سنحرث أرضك يا صاحبي.

وأرضك؟

نصب جذعه، فارتفعت قامته، وبدت أطول من المعتاد في عينيْ مرشد:

واللَّه يا أبو العبد، لا أحرث أرضي إلّا بعد أن نحرث أرضك. ها أنا ذا قد حلفت، فهل ستضيّع يميني؟!

نظر مرشد حائرًا إلى ما يفعله صاحبه، ولم ينتبه إلّا ودموعه تسيل من مؤقي عينيه على زاويتي أنفه وفمه، وتتسرب خلال لحيته التي لم يعد يخفِّفها منذ العودة من الحرب.

يلّا يا مرشد، فلنبدأ حتّى نكسب الوقت. أربعة أيّام، وربما ثلاثة، وننتهي من حراثة أرضك، ثمَّ ننتقل لحراثة أرضي، ثمَّ نحرث أرض الشيخ أبو عمران لوجه اللَّه تعالى، ونزرعها بالقمح، وننقل المحصول إلى الخليل، ليطبخ هناك في الحرم بَرَكة يأكلها الفقراء والغرباء لوجه اللَّه تعالى.. يلّا يا صاحبي.

هووووو.. يلّا، على بركة اللَّه.

وضغط بكلّ ثقله على السّكَّة، فبدا أنَّ الأرض تعاند، حتى لتوشك أن تدفع السِّكّة.

أوقف البقرتين، وضغط على السِّكَّة، فغاصت قليلًا في الأرض، فنهر البقرتين: هيييه.. يلّا...

قال لمرشد:

السِّكَّة جديدة أحضرتها من الخليل، وهي ماضية كالسيف.

ثمَّ وهو يضغط على السِّكَّة:

ستسأل عن البقرتين.. ها؟ اشتريناهما بذهبيّتين من عند عرب بئر السبع.

واللَّه يا صاحبي، إنَّني كنت في حيرة، فكلّ أدوات الحراثة أكلها الصدأ، ولا بهائم أحرث عليها. سأذهب للبلد لأوصي على الغداء.

ضحك حرب، وهو يبرم رأسه ليرى وجه مرشد:

أوصيت على الغداء، لأنَّني كنت سأحرث أرضك حتى لو لم أجدك.

قال بصوت يكاد لا يسمع، كأنَّما يكلِّم نفسه:

أنت أخي، واللَّه يا حرب.. أنت أخي اليوم، وأخي أمس، وأخي كلّ يوم، وأخي بعد أن نرحل عن وجه الأرض، ولن أنسى معروفك ووقفتك هذه معي. لم أغلط عندما تعاهدت معك، ونحن في الغربة، أن نُدفن في قبر واحد لو عدنا إلى قريتنا.

مشى بجوار حرب الذي كان يضع ثقله فوق السِّكَّة، لتغوص أعمق في الأرض الناشفة:

هاتِ عنك يا صاحبي.. هاتِ يا أبوصالح .

لم أتعب بعد يا مرشد.

انحنى مرشد على الأرض وكشط بعض التراب، وأساله من بين أصابعه:

أنا مشتاق للأرض، للحراثة، لرائحة المطر والتراب.

أوقف حرب البقرتين، ومدّ يده بالرسن لمرشد الذي تلقفه بلهفة، مع خروج صوته عريضًا مفعمًا بعاطفة احتُبست لسنوات في صدره وهو بعيد عن الأرض.

هووووو.. يا اللَّه. اللَّهم اطعمنا واطعم منّا يا ربّ، واجعلها سنة خصبة يا اللَّه!

قال حرب:

سنحرث الأرض، ونعيد حرثها، ثمَّ نبذر.. ماذا ستزرع هذا العام يا مرشد؟.. نحن في تشرين أوّل!

وهل غير القمح يا حرب؟

يضغط مرشد على السِّكَّة، ويرفع صوته بين وقت وآخر، كأنّما ليستعيد أيّام زمان، لا ليحثّ البقرتين على الحرث: هووووو.. يلاااااا...

يقول مرشد:

أيّام زمان يا حرب، كنّا نكره العصافير والحمام البرّيّ، عندما تهجم على موارسنا، وتلتقط حبوب البذار من بين الأثلام. واللَّه.. إنَّني أتمنّى أن أراها هذه الأيّام وهي تلتقط بعض الحبّ من بين أثلام أرضنا. سأقول لها: كلي شويّة، واتركي لنا شويّة، حتى تعيشي ونحن نعيش في هالدنيا.

رأى حرب طيفين قادمين من بعيد، فعرفهما.

مضى مرشد بعيدًا وراء البقرتين، شاقًّا الأرض الناشفة، التي أخذت رائحتها الرطبة المختزنة تفوح، مبشِّرة بأيّام خصب آتية.

استدار مرشد فتفاجأ بذوابة ونجية امرأة حرب، وهما تحملان صرتين وإبريقيْ ماء على خاصرتيهما، فأوقف البقرتين، ونفض يديه، وإذ صار قريبًا من حرب:

أنت قلت لأمّ صالح أن تخبر أمّ العبد يا حرب!

لم يكن يسأل، ولكنَّه كان يثني عليه، وعلى كرمه وحسن تدبيره.

جلس الأربعة متقابلين، وقد فُردت الزوادة أمامهم.

رفع مرشد رأسه، ومسح بنظره على وجه الأرض:

قريبًا، إن شاء اللَّه، تنبت الأعشاب التي نتناولها مع طعامنا، كما كنّا نفعل أيام زمان: الحمصيص، الحمّيض، المرار، الحويرنة بأعوادها الخضراء بين الزرع، الخبّيزة التي تفحفح بالزيت البلدي والبصل، وإلى جوارها الزيتون الرصيص.. الله اللَّه!

انهمكوا في تناول طعامهم.. وفي البعيد، ارتفع صوت الحمام البرّيّ:

يا كوكتي..

يا كوكتي

ضحك حرب:

ها نحن قد عدنا، ووجدنا كوكتنا.

وضرب براحته على الأرض:

هذه جوختنا، وأغلى من الجوخ والذهب، وكلّ شيء في الدنيا.

وكأنّما اتّفقتا أن تحكيا معًا:

والحمد لله أنّكما عدتما سالمين.

رفرف رفّ طيور سوداء مرحة مرتبكة، فتأمَّلها مرشد وهي تخفق بأجنحتها بسرعة ولهوجة، فتمتم:

يا مرحبًا.. يا مرحبًا بك يا طيور...

بعد أن حملت المرأتان بقايا الطعام، ونهضتا لتعودا إلى بيتيهما، ومضتا مبتعدتين قليلًا، تمدَّد مرشد واضعًا وجهه على التراب المحروث، وأغمض عينيه، بينما البقرتان تقفان مرتاحتين.

تمدَّد حرب قرب البقرتين، لافًّا حبل الرسن حول رسغ يده، وتنفَّس بعمق دون أن يغمض عينيه، بانتظار أن يستيقظ مرشد ليستأنفا حرث الأرض التي لا بدّ من كشط يباس وجهها، والغوص في ترابها الأحمر المنتظر للمطر والبذار.

في بضعة أشهر، عاد غُيّاب كثيرون من كلّ الحمائل، فتوجَّهت أنظارهم إلى مضافاتهم التي اعتادوا أن يلتقوا فيها، ليسهروا، ويحلّوا مشاكلهم، ويستقبلوا ضيوفهم، كما شأن أجدادهم وآبائهم.

تفقَّدوها، وانهمكوا في تطيين أسقفها وحيطانها، نساؤهم تجلب الماء على رؤوسهن بالجرار من الآبار، وهم يحضرون التراب من الأراضي المحيطة بالقرية ويمزجونه بالقصل والماء، ثمَّ يرفعون الطين بالقفف إلى السطح، ويفردونه ليجفّ قبل دخول فصل الشتاء اتّقاء للدَّلف، ويعيدون تطيين الجدران التي تآكلت من سنوات الإهمال.

مضافة الذيبة الواسعة، ومضافة عقل، وأبو شاور، وتيلخ، وأبو جبّة..وما هي إلّا أيّام حتى جفّفت شمس الصيف الطين، فأحضر الأقارب ما يتوافر لديهم من حُصُر ومدّوها على أرضيّة مضافاتهم، أمّا فرشات الصوف فبقيت مطويَّة في البيوت، لأنَّها لا تمدّ إلّا للضيوف الأعزّاء.

بعد سنوات غياب الرجال، وإقفار الشوارع من الحركة سوى في النهار، وللحاجة الضرورية، دبّت الرِجْل في الشوارع والأزقّة، وفُتحت البوّابات بأمان وطمأنينة احتفاء بالغياب الذين سيعودون، والذين عادوا.

أخذ أهالي ذكرين يتزاورون في مضافاتهم، ويصلّون معًا، ويصغون لحكايا الغيّاب عن الجبهات التي قاتلوا فيها، من شنق قلعة حتى قناة السويس، والعريش، ورفح، وكيف عادوا بعد الهزائم أمام الكفّار.

افتقدوا القهوة التي باتت نادرة، ولكنَّهم أعدّوا البكارج والكوانين، ومحماسات القهوة، وتفاءلوا بالأيّام القادمة، أيّام ما بعد زرع الأرض، والحصاد، والمحصول الذي يرجون الله أن يعود عليهم بالخير، لطعامهم، ولباسهم، ولكسوتهم وأسرهم، ولقهوتهم.

في الليالي المقمرة، أخذوا يسهرون على البيادر، يفردون عباءاتهم، ويتمدَّدون بعد أن ينال منهم التعب، ويصلّون جماعة خلف الشيخ خميس الذي لم يُقَد إلى العسكريَّة لِعَرَج واضح في ساقه اليمنى، والذي رغم وفوده من قرية بعيدة إلى قريتهم، فقد رأوا فيه رجلًا تقيًّا، فصار مؤذِّنا يدعوهم للصلاة بحنجرته التي مثل الجرس، والذي داعبه من عادوا من الحرب: يا ريتنا كنّا عُرْجًا مثلك يا شيخ خميس.. كان ما رحنا للحرب وشفنا مصائبها.

أمّا هو، فكان يردّ على مزاحهم:

شفتم أنَّ مصيبة أخفّ من غيرها؟ يمكن لو أخذوني للحرب كان ما رجعت.. وأكلتني الطيور والوحوش.. هيك أحسن لي: أعيش أعرج أحسن ما أموت في بلاد بعيدة صاغ سليم.

ابتنى له أهالي ذكرين غرفة قرب البيادر، ورفعوا ثلاثة مداميك جعلوها مربَّعة ليرتقيها ويرفع الأذان فوقها، وجعلوا لها ثلاث درجات حتى لا يقع وتتعطب رجله

الثانية!. سامحكم الله يا أهل ذكرين: يردِّد هو كلما سمعهم يتحدّثون عن شَبَه المئذنة.. ورجله الثانية!

لم يكن خميس يضع عمامة على رأسه، بل طاقيّة يلفّ حولها حطّة، لكنَّه هذه الأيّام ما عاد يمتلك حطّة بعد أن اهترأت حطّته في سنوات الحرب، وهو ما كان يفكِّر في غير رغيف الخبز، كما هو حال نساء ذكرين، وأطفالها وعواجيزها العاجزين عن فعل أيِّ شيء.

عاد الرجال إلى السهر في مضافاتهم، وإن افتقدوا القهوة، وبدأت رائحة الخبز تفوح من الطوابين، وإن كان خبز شعير وذرة بيضاء، والممزوج أحيانًا بالقليل من القمح.

وفي أحواش البيوت، بدأت ترتفع وقوقات الدجاج، وصياح الديكة، ورُممت أبراج الحمام البلديّ...

من خبَّأ قرشه الأبيض ليومه الأسود وَجَده! وإلى سوق الفالوجي توجَّه الرجال والنسوة، ومنه عادوا باحتياجاتهم، وإن لم يستغنوا عن زيارة الخليل لشراء أدوات الحراثة والحصاد، وبراذع الحمير، والقهوة، ودفاتر لفّ السكائر، وتتن الهيشي.

أخذوا يسهرون حتى الفجر، وينامون ورؤوسهم وأبدانهم متقاربة، وآخر كلماتهم لا تكتمل، فلا يفارقون بعضهم بعضًا.. فأيّام الشغل في الأرض آتية، وهم اشتاقوا لبعضهم بعضًا، وتلهّفوا على هذه اللّحظات في سنوات الحرب والغياب.

لعلَّ ما كان يدهش أهالي ذكرين أنّ من عادوا من الحرب كانوا لا يملّون الهمس مع بعضهم بعضًا، ودقّ رؤوسهم برؤوس بعض، وكأنّ ما بينهم من كلام لا ينتهي...

عندما سأل بعضهم حربًا وصاحبه مرشد ممازحين لائمين: ألم تملّا من الحكي بعضكما مع بعض طيلة سنوات غيابكما في الحرب؟ أجابهما مرشد: لا والله.. فلدينا حكايات لا تنفد حتى آخر العمر...

أمّا حرب، فقال:

حكينا لكم يا أقاربنا أشياء، ولكنْ من الصعب أن نحكي لكم عن الموت، والخوف، والحنين، والجوع، و.. فقدان الأصحاب في الميادين..فهذه ليست حكايات يا أقاربنا، وكلّ الكلام لا يكفي لوصفها.. آخ يا أقاربنا، آخ من الحرب!

لمحها تمرق تحت ركب الصبر، وتلبد وهي متهيِّئة للتواري محتمية بألواح الصبر ذات الأشواك البيضاء الحادّة، وشواربها تتراقص، وعيونها تلتمع بألوانها العجيبة، وآذانها الطويلة تشرئب.

قرفص وسكن، وتساءل بصوت خافت، وهو يتأمَّلها، بعيونها اللَّامعة، وأجسادها البيضاء والرماديَّة.

أنتِ لم تهاجري كما فعلت الطيور! فكيف عشت، وتدبَّرت طعامك؟ كيف لم تلتهمك أبناء آوى والثعالب؟ أنا صاحبك، وها قد عدت. أنتِ هنا في كرمي تلعبين وتعيشين مطمئنة، فأنا لا آكل الأرانب. أنتِ مسكينة، و.. حذرة دائمًا.. وجبانة.. معك حقّ! فلا مخالب لكِ. تتّخذين من ركب الصبر بيوتًا لك، وتلوذين بها، لكنَّ الواويات والثعالب تزحف وراءك، فتحفرين عميقًا، وتختبئين. أنا أشفق عليك، ولذا لا آكلك؛ وفي كرمي، لا أسمح لأحد بأن يقتنصك، فأنت هنا تعيشين في حماية عمِّك مرشد.

الحيايا تفترس صغارك. رأيتها مرارًا وهي تنتفخ في منتصفها، وتلوب على التراب، فتركتها: كلّ شيء في هذه الدنيا يعيش على أكل شيء أضعف منه: الحيوانات، والبني آدمين، وحتى.. الدول! أي والله..الدول تأكل بعضها. القويّ يأكل الضعيف.. دولتنا أكلت.. يا والداه!

يلّا: ها قد عاد عمّك مرشد ليعتني بكرمه، ولن يسمح للواويات والثعالب بمطاردتك داخل كرمه.

طبعًا، ستهربين كلَّما رأيتني اقترب، أو عندما تسمعين خطواتي! لأنَّك لا تميِّزين صديقك من عدوِّك! كيف ستعرفين أنَّني لا أضمر لك الشر؟! البني آدم هو الذي يعرف، لأنَّ الله زوَّده بالعقل. أليس لكِ مخّ تفكِّرين به؟

وقف، فرأى خيطًا من النمل الذهبيّ اللَّون، فتبعه وهو يفكِّر: أيكون أنَّه يشير إلى كنز ذهبيّ في أرضي؟

ضحك، وتخطَّى خطّ النمل، وكأنَّه يتجاوز حبلًا، حتّى لا يتسبَّب في أذى أيّ نملة، فهي مخلوقات الله، ولا بدّ أنَّها خُلقت لأمر ما.

ابن العمّ يوسف يحلف أغلظ الأيمان بأنَّ هذا النمل الذهبيّ فقَّس في كنز ذهبيّ، وإلّا لماذا النمل أسود وهو بلون الذهب، وحجمه أكبر، وهو يلمع في الشمس كالذهب؟ ثمَّ، يا عمّ مرشد أنت تراه وهو لا يسحب شيئًا إلى بيته تحت الأرض، لأنَّه يتغذَّى على الذهب.. بالعقل.. بالعقل: يوجد هنا كنز ذهب في أرضك!

قال يتغذَّى على الذهب! أمسك بنملة بين إبهامه وإصبعه الشاهد وقلبها، وتأمَّلها في وهج الشمس، وأعادها إلى خط النمل الذي يتسرَّب في ثقب ملاصق لساق التينة السوَّاديَّة.

تساءل: كيف تكون التينة سوَّاديَّة، وجذورها ضاربة في عمق الأرض، ولم يتغيَّر لونها إلى لون ذهبيّ، يا يوسف الأهبل؟!

طيِّب.. تعال يا يوسف، وشمِّر عن زنديك، واحفر في الأرض لصق ساق التينة السوَّاديَّة، وإن وجدت كنزًا، فلك نصف، ولي نصف!

ضحك مرشد، وضرب كفًّا بكفّ: يوسف شرد.. فهو هامل، لا يخدم أرضه، ويعتمد على مُرابع.. ودائمًا يقول كلامًا كبيرًا.. فشّار ابن العمّ يوسف هذا.

«فقدنا القطّ أجانا ينطّ». هذا ما طرأ على بال مرشد عندما سمع نداء يوسف:

عمّ مرشد...

دفع البوابة، وقبل أن يصل، ارتفع صوته:

ها.. شو قرَّرت تساوي بحفر كنز الذهب؟!

احفره أنت يا يوسف، ولك نصفه.. هذا ما قرَّرته.

تأمَّله مرشد. تأمَّل قامته الطويلة وجسده النحيل، ورآه يمشي مترنِّحًا يكاد يسقط:

أنا ما عندي مروّة يا عمّ مرشد.. خلينا نشوف حدّ يحفر، ونعطيه شوية من الذهب...

ضحك مرشد:

نعطيه.. ها! وهل صرت شريكًا يا قرابة؟!

آ.. أنا قلت لك عن الكنز يا عمّ.. أقلَّ شيء: لي الحلاوة.. شوية ذهب يا عمّ مرشد!

أدار مرشد ظهره وهو يبتسم، وواصل الدوران حول أشجاره، وتفقَّد أغصانها، وكأنَّه يسلِّم عليها.. تاركًا يوسف واقفًا حائرًا في أمر العمّ مرشد غير المهتمّ بالكنز الذي لا يحتاج سوى لشوية نكش!

٩

فجأةً ظهروا. انبثقوا من بين الكروم، قادمين من جهة بيت جبرين. رآهم الأولاد الذين كانوا يلعبون على البيادر، فاندهشوا وخافوا من مشهدهم وهم يقتربون على صهوات خيولهم بملابسهم الغريبة.

تراكض الأولاد وهم يتصايحون: غربًا.. غربًا جاؤوا لبلدنا.. يا ناس.. غربًا.. على الخيول.

اقتربوا، وعند البيادر توقَّفوا. قفز شاب من فوق جواده، لا يرتدي ملابس مثل ملابسهم، ولا يحمل شيئًا على كتفه وظهره مثلهم..

لوَّح الشاب للأولاد الذين وقفوا عن بعد يراقبون بريبة، وهم يتهيَّأون لإطلاق سيقانهم للريح:

تعالوا يا أولاد.. تعالوا.. لا تخافوا.. أنا عربي مثلكم.. أنا ابن عرب.

تقدَّم الأولاد غير مطمئنين، وهم يخطون خطوة ثمَّ ينظرون حولهم متهيِّئين لإطلاق سيقانهم للريح، فشجَّعهم الشابّ وهو يبتسم ليطمئنهم:

تعالَ أنت يا شاطر.. أيْوه أنت.. فأنت أكبرهم، لا تخاااف، نريدك أن تدلّنا على بيت مختار قريتكم.

أشار له عبد الرحمن بإصبعه الشاهد، وهو يرفع يده بحذر، دون أن يقول شيئًا، فأمسك الشابّ برسن الجواد، ومضى به أمام الفرسان الذين تبعوه ببطء، وهم يتأمَّلون بلامبالاة بيوت القرية، بينما سار خلفهم الأولاد، يخطون عدّة خطى ثمَّ يتوقَّفون، ويعودون ويتحرَّكون للّحاق بالموكب الغريب الذي لم يروا شبيهًا له من قبل.

خرج بعض الرجال من بيوتهم، ووقفوا يتابعون الموكب، فعرفوا أنَّ هؤلاء إنكليز، وأنَّهم عسكر، وأنَّهم يتسلّحون ببنادق لم يروا مثلها من قبل، فلبثوا في أماكنهم واجمين، بانتظار أن يعرفوا ما يريده العسكر، إلى أن رأوا الشابّ العربيّ في المقدِّمة، وهو ينظر إليهم محدِّدًا نظره فيهم، مبتسمًا وملوِّحًا بيده ليطمئنهم.

رفع صوته:

السلام عليكم يا أهالي ذكرين.

ردَّت عليه أصوات فاترة النبرات:

وعليكم السلام...

بدنا بيت المختار يا جماعة.

أشاروا له صوب البيت، وكان عبد الرحمن قد ركض إلى بيت المختار، وأخبره بأنَّ أشخاصًا على ظهور الخيول يسألون عن بيته، فارتدى ملابسه وتهيّأ بانتظار استجلاء الأمر.

وقف المختار بقامته القصيرة. رفع راحته وظلَّل عينيه، وأخذ يتأمَّل المشهد الذي لم ير مثيلًا له من قبل.

المختار يعرف أن الإنكليز دخلوا القدس، وأنَّ تركيا هُزمت، وأنَّ الإنكليز باتوا هم الدولة، وهو توقَّع أن يراهم، ولكن ليس على ظهور الخيل، وأن يحضروا إلى ذكرين. لماذا يحضرون يا ترى؟!

رفع الشابّ يده إلى جبينه:

السلام عليكم يا مختار.

وكما هو شأنه في الترحيب بأيّ ضيف يقصد بيته:

وعليكم السلام يا ابن أخي.

لاحظ الشابّ أنَّ وجه المختار قد امتقع لمرأى الجنود الإنكليز، فقال له وهو يشير إليهم:

هؤلاء الجنود، والضابط الذي معهم، يزورون القرى للتّعرُّف بأهلها، وهم مجرّد ضيوف، فهم لا يضمرون شرًّا لأحد، ولا يريدون شيئًا منكم يا مختار.

عندئذ، انتزع المختار ابتسامة، وبسط راحته، ورفع صوته، وهو يشير للجنود والضابط:

أهلًا.. تفضّلوا.

أخذ الشابّ يرطن بلغتهم، فتقافزوا عن جيادهم.

نادى المختار أبناءه بصوت عال: اسماعيل، موسى، محمّد، فتقافزوا، وفرشوا المضافة، وغسلوا فناجين القهوة، ثمَّ تهيَّأ إسماعيل حاملًا الفناجين، مرصوصة فوق بعضها بعضًا، وإبريق القهوة النحاسيّ الأصفر في يده، وصبَّ في الفناجين، وانحنى مقدِّمًا القهوة من اليمين، بينما صبّ موسى الماء في كبايات زجاجيَّة أحضرها الوالد من الخليل، لا تُقدَّم إلّا للضيوف الأعزّاء.

خارج المضافة، في الحوش، التمّ رجال كثيرون من أهل القرية، وأخذوا يسترقّون النظر عبر نافذة المضافة، ويتأمَّلون خيل الإنكليز، ويودُّون لو يلمسوا بنادقهم، ثمَّ يتهامسون عن شقارهم، وعيونهم الملوَّنة، ويتساءلون: أهؤلاء هم من كسروا الدولة العثمانيَّة؟!

الضابط والجنود جلسوا على الفراش بأحذيتهم العسكريَّة، وهذا ما دفع المختار للنفخ غلًا، من دون أن يفصح عن القهر من سلوك الإنكليز المهين.

لبث المختار واقفًا، ينقّل نظره بين وجوه الضابط والجنود متأمِّلًا هيئاتهم، وبنادقهم التي مدَّدوها بجوارهم، متسائلًا عن هدفهم الذي لم يفصحوا عنه، وإن كان الشابّ قد طمأنه إلى أنَّهم مجرّد ضيوف عابرين.

احتار ماذا يقول لهم، ففرك يديه:

أهلًا.. ومرحبًا...

ركَّز الضابط نظره على المختار، ثمَّ مال على الشاب العربيّ، وهمس له، بينما كان الشابّ يثبّت نظره على المختار:

يقول لك الضابط يا مختار: هذه زيارة تعارف. جئنا نعلمكم أنَّ الدولة العثمانيَّة التي كانت تضطّهدكم.. قد هُزمت، وأنَّ بريطانيا ستدير أموركم، ونريدكم أن تتعاونوا معها.

سأل إسماعيل الشابّ العربيّ، وهو يشير إلى الضابط والجنود:

هل يريد أحدهم قهوة مرَّة أخرى؟

سألهم الشابّ بلغتهم، ثمَّ قال كلمة واحدة:

لأ...

فرك المختار راحتيه:

نحن كما تعلمون خرجنا من الحرب فقراء. أرضنا أُهملت، ورجالنا غابوا.. وكثيرون منهم لم يعودوا من الحرب، ونجهل مصائرهم. نحن لا نملك أن نقدِّم قمحًا لإطعام خيولكم.. فنحن لا نملك قمحًا نأكله.

ودّ المختار أن يضيف: أنتم تجلسون على فراشنا بأحذيتكم، وهذه في تقاليدنا إهانة لنا. ودّ لو يصرخ في وجوههم:اخلعوا أحذيتكم، واجلسوا مثل الضيوف الأوادم، لكنَّه بلعها في داخله، فالقويّ عائب كما يقول المثل، وهؤلاء أقوياء!

قال المترجم للمختار:

سوف تصلكم توجيهات من الخليل، فهناك القائم مقام، ودائرة للدولة. يقول لك الضابط: نحن نتجوَّل في القرى لنتعرَّف.. ليس إلّا.

نهضوا، وامتطوا خيولهم، ومضوا يتقدَّمهم الضابط، والشابّ على جواده الذي يخبُّ بمحاذاتهم، يتحدَّث إليهم بصوت مرتفع ليسمعوه جيِّدًا، والموكب يأخذ وجهته إلى قرية الدير، وينطلق مسرعًا، وخلفه تتصاعد زوبعة من غبار تزحف في سماء القرية.

فرك المختار راحتيه، وخاطب المتجمِّعين من أهالي القرية:

أول الرقص حنجلة يا قرايبي. اليوم جاؤوا في زيارة، وغدًا ستبدأ الأوامر، والضرائب، وما لا نعرف.. وها هم يجلسون على فراشنا بأحذيتهم، وبكرة سيجلسون على صدورنا ورؤوسنا بهذه الأحذية. من دولة لدولة.. يا قلب لا تحزن!. ادخلوا يا قرايبي لنشرب القهوة سوا.

دخلوا، وجلسوا واجمين، وارتشفوا فناجين القهوة المرَّة.

هذه القهوة مرَّة وطيِّبة، واتْعوَّدنا عليها. الأيّام المرَّة جاية يا قرايبي. خلصنا من حكم الأتراك، وجاءنا حكم الإنكليز!.

تساءل أحدهم:

من هم الإنكليز يا مختار؟ أين بلادهم، ولماذا جاؤوا عندنا؟!

تنهَّد المختار، ومرَّر راحته على وجهه وعينيه كأنَّه يطرد كابوسًا، ولم يفه بكلمة.

ساد الصمت والوجوم، قبل أن يبدأ الرجال في المغادرة، مثقلين بهمٍّ دهمهم بغتة.

رأوه آتيًا من بعيد، فعرفوه. إنَّه زغلول أبو دفتر بشحمه ولحمه الكثير، فهو لم يُقَد للحرب، والدولة انكسرت وراحت.. ولكنَّه عاد، وهو يهتزّ على ظهر بغلته كلّما اقترب، ورأسه عار، فلا طربوش أحمر يغطّيه..ودفتره في مخلاته المعلّقة بكتفه.

بحجم البرميل، عرضه مثل طوله. لذا، فبعد أن يهبط عن بغلته، يبدو وكأنَّه يتدحرج. ودائمًا، في الصيف بعد الحصاد، وقبل تعبئة القمح في الأكياس، يجدونه أمامهم من دون أن يعرفوا توقيت قدومه بالضبط.

انكسرت تركيا، واحتلَّ الإنكليز فلسطين، وها هو زغلول يطلّ عليهم متقنطرًا على ظهر بغلته، وهو يجفِّف عرقه بمحرمة كبيرة، وعلى وجهه ابتسامة خبيثة تقول: ها قد عدت.. تذهب دولة وتأتي غيرها..وعمّكم زغلول أبو دفتر لا يتغيَّر!

وقف عند البيادر، وطلب من الأولاد أن ينادوا آباءهم فورًا، لأمر يهمهم.

أخذ يدور على البيادر ببطء، نافخًا، لاهثًا. رآه بعض من حضروا، فتعرَّفوا عليه عن بعد، فتعوَّذوا بالله، وأخذوا يتمسخرون معه، وعليه، وبودّهم لو يخفونه عن وجه الأرض:

أهلًا يا زغلول أفندي. طالت غيبتك يا زلمِة.. أكنت في الحرب؟!

الحمد لله على سلامتك.. وعلى سلامة بغلتك التي ما زالت حيّة ترزق، بينما كثيرون ماتوا في الحرب!

ألم تذهب أنت وبغلتك للسفر برلك يا زغلول أفندي؟!

لهث ونفخ، وأخرج دفتره من تحت إبطه، ونقر عليه:

أنا لا أصلح للحرب.. أصلح لهذا.. وبغلتي مسالمة لا دخل لها في حروب الدول.

قال عبد القادر عزيزة:

ولكنْ، يا زلمِة.. الأتراك راحوا، والدولة انكسرت، فما هذا الدفتر الذي تحمله.. و.. أين رحت بطربوشك؟!

ضحك، وهو ينقر على الدفتر:

دولة زماان راحت، وجاءت دولة غيرها يا حبّة عينيّ، والطربوش راح مع الدولة التي انكسرت. هذا الدفتر الجديد غير دفتر تركيّا، والضرائب ستذهب للإنكليز بدلًا من الأتراك، والمثل يقول: اللّي بتجوَّز أمي بيصير عمّي.. صح يا أهالي ذكرين؟ وحالكم حال غيركم يا حبايبي. ها أنتم قد عدتم لزراعة أرضكم بالقمح والشعير والذرة، وكلّ أنواع الخضار، وكرومكم عامرة، وأشجارها مثمرة.. ولذا، سأعاين ما زرعتم، وأقدِّره، ثمَّ تدفعون للدولة عند البيدر إن شاء الله. ويا ربّ تكون السنة خصبة، وتعود عليكم بالخير.

شُدهوا وهم يتأمَّلونه، فهم تفاءلوا بأنَّ الدولة الجديدة لن تطالبهم بالضرائب، وستتركهم وحالهم، فهي ليست دولتهم، ورجالها غرباء وكفّار.

مسح وجهه السمين، ونفخ:

أرسلوا من يحضر لي إبريق ماء بارد. نشف ريقي وأنا أتنقل بين قراكم التعبانة.

طار الأولاد إلى البيوت القريبة، وأحضروا له أباريق ماء، فشرب، وغسل وجهه، وبلَّل صدره:

نحن الآن في نيسان، وحقولكم مخصبة، وبعد شهرين تحصدون موارسكم. سأعود لتحصيل العشر منكم يا أهالي ذكرين، وأنا لن أطلب منكم أن تغذّوني خروفًا اليوم، ولكنَّ الخروف مستحقّ عندما أعود على البيدر، فجهِّزوا خروفًا يشبعني، فقد اشتقت للحم خرافكم، بعد أن ظهرت الخراف والأبقار في حقولكم ومراعيكم.. تبارك الله! زكّوا يا أهالي ذكرين للعمّ زغلول.. أبو دفتر. أليس هكذا تصفونني: زغلول أبو دفتر؟ مع إنَّني خليلي، وقريبكم، ومنكم وفيكم! سنلتقي قريبًا على هذا البيدر، وأكياسكم ممتلئة بالقمح.

قاد بغلته إلى أن صار لصق حجر كبير مرتفع، فصعد عليه، ثمَّ رمى بجسده الضخم فوق البغلة، وكاد يسقط، لكنَّه تشبَّث بالسرج والرسن، وعنق البغلة. وعندما امتلك روعه، همز البغلة فانطلقت مهرولة، بينما هو يلوِّح بيده مبتعدًا، متَّخذًا طريقه إلى إحدى القرى المجاورة.

تأمَّلوه وهو يبتعد، فضرب عبد القادر عزيزة راحتيه ببعضهما: دولة راحت ودولة جاءت، وزغلول ودفتره لا يتغيَّران، فالمهمّ عند الدول أخذ الضرائب منّا. لماذا يا أهالي ذكرين يقاسموننا نصيبنا الذي نتعب في جنْيِه؟!

أمَّا أهالي ذكرين، فلاذوا بالصمت، ثمَّ تفرَّقوا محزونين.. فدولة تروح، ودولة تجيء، ودفتر زغلول هو الباقي.. يا سبحان الله!

تأمَّلها بعين رجل يرغب في الزواج منها، فبدت له مديدة القامة، لها عينان سوداوان واسعتان، وأنف يشي باعتداد بالنّفس، ووجه يفيض عافية وشبابًا رغم أنَّها اقتربت من الأربعين.

اضطّربت أمام نظرته التي لم تعتد عليها، نظرة رجل يتفحَّصها كأنثى، وكأنَّه يراها لأوَّل مرَّة.

قالت في نفسها: أنت تريدني زوجة يا ابن العمّ، وأنا غير راغبة في الزواج. أنت عندك ابن شابّ، وابن أخذوه للسفر برلك ولم يعد، مثله مثل شقيقي أحمد. أتريدني امرأة لك حتى لا تذهب أرضنا لغريب؟ أهذا ما يرغّبك بي: الأرض! أم تريدني لأنَّك بحاجة لامرأة وأنا هي هذه المرأة؟ أنت تعرف أنَّني لن أتزوَّج من غريب. شقيقتاي آمنة وحليمة ما زالتا غير متزوجتين، وذوابة يغيّبها حزنها على شقيقنا الغائب عن الدنيا، حتَّى إنَّ مرشد ما عاد يثقل عليها بطلب أيّ خدمة. حتى الطعام، لا ينتظر أن تقدِّمه له، ونادرًا ما تحمله له إلى الكرم، أو الحقل، كما كانت تفعل أيّام زمان.

ذوابة الغائبة عن الدنيا تلحّ عليّ لقبول الزواج منك يا ابن العمّ. تقول لي: محظوظة من تتزوَّج من سلمان. تزوَّجيه يا فاطمة، علّك تنجبين ولو بطنًا واحدًا، ولدًا ينفع شيبتك عند الكبر.

ذوابة سمعت ردّي: البركة في عبد الرحمن ابنك. لكنَّها تردّ بعتب: لا يكفي يا أختي، فنحن مقطوعات بعد موت والدنا، وغياب أخبار شقيقنا أحمد. تزوَّجيه قبل أن يجفّ بطنك. إنَّه ابن عمّنا. أقول لها: هناك أبناء عمومة أقرب منه، وأنا أقصد إبراهيم، وخليل. فتقول: هؤلاء صغار.. أصغر منك.. أنت تريدين زوجًا، وليس ولدًا تربِّينه يا أختي. مرشد يسألني عن جوابك كلّ يوم، وهو لا يريد أن يضغط عليكِ، فهو يعرف أنَّك عنيدة، ويتجنَّب أن يلحّ عليكِ، حتى لا تظنّي أنَّه يستغل وفاة والدنا، وغياب شقيقنا، وإقامتنا معهم في دارهم بعد غياب أخينا الوحيد.

أنت تلحِّين عليّ يا أختي، وكلامك يدخل الرأس مثل النّعاس، وأنا أشعر بأنَّني بدأت ألين، وتردُّدي بدأ يضعف مع إلحاحك يا ذوابة: أنا تزوَّجت متأخِّرة يا فاطمة، فانظري: أنا لم أنجب سوى عبد الرحمن. أقول لها مكابرة: أنا لا أريد أولادًا يا أختي، أنا راضية بنصيبي، يكفيني أن أربِّي أختينا الصغيرتين، فتردّ ذوابة: ولكنَّهما ستتزوَّجان بعد سنوات، وتبقين وحدك.. وحدك يا فاطمة، حتى لو بقيت تعيشين معنا. و..ي ا أختي: ما دمت تعيشين معنا في الدار نفسها، فلماذا لا تتزوَّجين سلمان الذي يحتاجك وتحتاجينه؟! سلمان يعزّك يا فاطمة.. لا تبهدليه يا أختي.. عيب!

يكثر سلمان من زيارتنا، ويوحي بأنَّه يتفقَّد أحوالنا، ويطمئنْ نفوسنا بالحديث عن غيَّاب يعودون من الحرب، من اليمن، ومن مصر، ومن بلاد بعيدة لم نسمع بها.. ويختم كلامه: ولا تقنطوا من رحمة الله.. مسير الحيّ يتلاقى.

لا يقعد في بيته، بل يقضي أغلب وقته وهو يحوِّم حولنا في حوش البيت.

أتأمَّله: ما زال قويًّا، رغم الشيب في رأسه، فهو يمشي بلا عصا يتوكأ عليها، بقامته النحيلة الطويلة.

تتأمَّله فاطمة، وتسرّ لنفسها: لو أردت الزواج، فليس أحسن من سلمان، فهو رجل شجاع، وهو ابن العمّ، وأنا أعرفه. سلمان فيه عيب واحد: لا يفلح الأرض، ولا يحصد، ولا يزرع الأشجار المثمرة، فهو يترك كلّ هذا لمرشد، وهما راضيان، ولا خلاف بينهما، فمرشد يستعين بمُرابع، والأرض تغلّ عليهما رزقًا كثيرًا في أعوام الخصب.

ولكنْ، كيف أتزوَّج وأخي غائب، وأنا لا أعرف عنه شيئًا؟ ماذا سيقول عنِّي الناس؟

قرفصتْ لصق جدار البيت، ووضعت رأسها بين يديها، ولا تدري إلّا ودموعها تسيل على يديها المعقودتين تحت ذقنها.

لمست يد رأسها، وهمس صوت ذوابة لها:

يا أختي الغالية: تزوَّجي من سلمان. لن تجدي رجلًا يعزّك ويحبُّك مثله. هو من دمنا ولحمنا، وهكذا نبقى معا في هذه الدار الواسعة، ونربِّي أولادنا فيها معًا، وندير بالنا على أختينا معًا.. أنا وأنت، ومرشد وسلمان. طاوعيني يا أختي.

نفضت رأسها، ومسحت دموعها، وقالت بصوت متحشرج:

موافقة يا ذوابة.. موافقة يا أختي.. خلاص موافقة.

وبينما ذوابة تساعدها على الوقوف ارتجف جسدها، وتصاعد صوت بكائها، فقالت ذوابة في نفسها: دلع.. بدها وما بدها. المهمّ: بدها..بدها سلمان، وموافقة تتزوَّجه. ودّت لو ترفع صوتها بما تهمس به لنفسها: مبروك يا سلمان: فزت بفاطمة العنيدة. أختي! وأنا أعرفها يا مرشد.. أخبر سلمان بأنَّها موافقة، وأنَّها جوّاتها فرحانة وإنْ كانت لا تظهر فرحها.

استجاب سلمان لكلّ ما طلبته فاطمة.

قالت له: لا عرس، ولا ثوب عرس مطرّز.. بس ثوب كويّس ونظيف!

هزّ رأسه وهو يبتسم:

أنا لم أطلب منك شيئًا، لا عرس، ولا ثوب فرح.

تأمَّل وجهها، فأشاحت عنه ونفخت من أنفها؛ وقال:

يا فاطمة: أخوك أحمد ابن عمّنا، ومحمّد ابني.. قريبك أيضًا، أعادهما اللَّه بالسلامة. أنتِ وأنا.. كلّنا.. قلوبنا حزينة، ولكنّ الحياة لا بدّ أن تمشي يا ابنة العمّ.

لم تقل شيئًا، كانت تتساءل: أتريد أرضي.. أم امرأة تنام معها، رغم أنَّك عجوز؟! هل تحبني يا عجوز؟! وأنا: هل...

التفتت وتأمَّلت وجهه، فابتسم لها ابتسامة رجل ظفر بالمرأة التي يريد، والتمعت عيناه، وكأنَّه يقول لها: في العينين ضوء، وفي الجسد قوّة، وبي حاجة لك، فأنتِ امرأة وأنا رجل يا ابنة العمّ، وسنفعل ما يفعله الرجل والمرأة و.. ننبسط!

لم تغنِّ النسوة المتجمّعات حولها، ولم يضعن حنّاء في يديها، ولا توّجت رأسها بالعراقيَّة المثقلة بالريالات الفضّيّة. أقصى ما فعلته بعد إلحاح من ذوابة قبولها بنتف شعر عانتها، وتحت إبطيها، وهي تغطِّي عينيها وتتأفَّف محرجة.

خرجت النسوة عندما أشارت لهنَّ ذوابة. وضعت فرشتين جديدتين متلاصقتين محشوَّتين بالصوف، ولحاف صوف واسع ليغطّيهما معًا، وكأنَّها تقول لهما: صرتما زوجين في فراش واحد، فافعلا ما يفعله الزوجان.

جلست فاطمة محتضنة رأسها فوق ركبتيها، قلقة من لحظة تعرية سلمان لها، و...

خرجت ذوابة من الغرفة، فوجدت سلمان يقف مع مرشد قرب الباب.

قالت ذوابة لسلمان:

فاطمة وحدها، لم يبق أحد عندها، فادخل.

دفع الباب الموارب، ومسّى عليها.

بالكاد سمع صوتها. تأمَّلها، وهي تضمّ ركبتيها وتضع رأسها عليهما موارية وجهها.

قال لنفسه: معها حقّ تخجل. كبرت ونسيت أنَّها بنت لا بدّ أن تتزوَّج. التي مثلها أنجبت مرارًا، أمّا هي فعنّست قبل اقتياد أخيها للحرب، وها هي ضيَّعت أربع سنوات، هي سنوات غيابه!

خلع قمبازه وكوفيَّته وعقاله، وفكّ عقدة سرواله، واقترب منها. ربَّت على رأسها فنقزت، وارتدّ نظرها حين رأت نظرة عينيه، وجسمه وقد تعرَّى نصفه العلوي، وقمبازَه مكوَّمًا قربه.

سحب غدفتها عن رأسها، وتشمَّم شعرها، وهمس لها:

ما أطيب رائحة شعرك!

لم ترفع رأسها، فسرَّب أصابعه بين قبّة ثوبها وعنقها وأخذت أصابعه تدغدغها، فاستجاب جسدها بحركات صغيرة، وتنهّدت تنهدة مديدة، فواصلت أصابعه تلمس عنقها برفق.

مدّ يده اليمنى تحت ركبتيها، وسحبهما قليلًا، فتراخى جسدها وتمدَّد، فانحنى عليها ولثم خدها. عندئذٍ نظرت في عينيه اللتين رأتهما حنونتين، فرمشت قليلًا، وأغمضتهما، بينما هو ينحني فوقها، ثمَّ يباعد بين فخذيها. شعرت بأنَّ شيئًا ساخنًا صلبًا يندسّ مباعدًا بين فخذيها، يرتطم بفرجها، ويتحسَّس انفراجته، ثمَّ يندفع مخترقًا موجعًا.. فتنهّدت، وحاولت رفعه عنها، لكنَّه أخذ يسحبه برفق، ويعود ليدفع به عميقًا وهو يتأوّه، ويتنهَّد، كما لم يخطر ببالها أن يحدث هذا من سلمان!

شعرت بشيء دافئ يسيل من فرجها على شرجها، وإذ ارتفع جسده عنها ببطء، همس لها:

مبروك يا فاطمة. أنا وأنت صرنا زوجين على سنّة اللَّه ورسوله، وإن شاء اللَّه ربّنا يعو..

أوشك أن يقول لها: يعوِّضك عن شقيقك بأن تنجبي ولدًا، ولكنَّه بلع كلماته قبل أن يتفوَّه بها، حتى لا تنقلب اللّحظة السعيدة إلى حزن وغمّ حين تتذكّر فاطمة أخاها أحمد.

خرج وردَّ الباب مواربًا خلفه. رأى ذوابة تقعد قرب الباب، وبجوارها بعض نساء العائلة. نهضت، وتبعتها النسوة.. وبعد قليل من الوقت، خرجت وهي تلوِّح بقطعة القماش البيضاء وعليها بقعة دم، فأطلقت الزغاريد، ومعها زغردت قريباتها.

عادت ودخلت:

مبروك يا فاطمة، مبروك يا أختي. لا بدّ للحزينة من يوم تفرح فيه يا أختي. الدنيا هيك يا حبيبتي، يوم حزن ويوم فرح. إن شاء اللَّه ربّنا يرزقك بمن يفرِّح قلبك يا أختي، وتشوفي لك ولدًا مثل عبد الرحمن يا حبيبتي...

انحنت لتبوسها، فبكت فاطمة.

أنا خزيانة من حالي.. خزيانة يا ذوابة.

نترت ذوابة رأسها، وأنّبتها بصوت سمعته النسوة:

ليش يا فاطمة: هو الزواج عيب؟! ربّنا حلَّله: الرجل للمرأة، والمرأة للرجل. سيِّدنا آدم تزوَّج ستنا حوا.. وأنجبت منه. سيِّدنا محمّد تزوَّج وأنجب، ونحن نتزوَّج مثل الذين سبقونا يا أختي. قال عيب قال! أستغفر اللَّه العظيم! الزواج نعمة يا فاطمة، نعمة حلَّلها ربّنا.

لكزتها في كتفها:

لأنَّك جديدة، وأوَّل مرّة.. بكره بتتعوَّدي، وبتصيري تنتظري سلمان يتحرَّش بك.. وليلة الجمعة بتصير عندك ليلة عيد يا هبلة!

وأطلقت ذوابة والنسوة الزغاريد من جديد، سوّت فاطمة ثوبها حول جسدها، ونهضت وهي لا تعرف ماذا تفعل.

اقتربت منها ذوابة، ونصحتها:

إيَّاك أن ترفضي أن ينام زوجك قربك.. هذا حرام. الرجل له حقوق على امرأته.. أيْوه يا أختي؟! بعدين سلمان سيِّد الرجال، وأنت كان لازم تتزوَّجي.

أمسكت بها فاطمة من يدها وجذبتها، فأحنت ذوابة رأسها، لتهمس فاطمة لها:

لا تدخلي آمنة وحليمة عندي. لا أريد أن تريائي وأنا...

نترت ذوابة يدها، وهي ترفع صوتها:

ليش يا أختي؟ أتظنّين أنَّهما لا تعرفان أنَّ المرأة والرجل عندما يتزوَّجان يتعريّان، و.. أنَّ المرأة تحبل من الرجل؟!

توسَّلت فاطمة، وهي تكاد تبكي:

أللَّه يخليكي يا ذوابة ما تدخليهما عندي. منشان خاطري يا أختي، لا تزعلّيني منك يا ذوابة.. يا أختي!

غادرت ذوابة والنسوة، وبقيت فاطمة وحدها غير عارفة ما سيحدث بعدئذ. أخرجتها ذوابة من حيرتها، وهي تعود وتدفع الباب، وتضع على المصطبة صينية قشّ ملوَّنة عليها صحن حمام وفراريج محمّرة، وأرغفة خبز طابون، وصحنًا كبيرًا فيه تين وعنب، ثمَّ خرجت وعادت بجرة ماء وإبريق يرشح منه الماء البارد.

كلي يا أختي أنت وسلمان بالهنا والشفا.

عاد سلمان مع مرشد الذي كان يحتضنه. غمزت ذوابة زوجها دون أن ينتبه سلمان، ففهم أنَّ عليه ترك شقيقه ليدخل لعروسه ليتعشيَّا معًا:

يلّا.. خليهم يرتاحوا...

قال لها مرشد مبتسمًا:

وإحنا لازم نرتاح يا ذوابة!

ضحكت:

إحنا كبرنا على هيك راحة يا مرشد.

يا سلام! سلمان أكبر منِّي...

سلمان عريس يا مرشد.

احتضن كتفيها وجذبها إلى صدره:

وإحنا عرسان يا ذوابة. من يحرث أرضه ليس عجوزًا.. وأنا أحرث أرضي، وأفلحها، وأحصدها، وأمشي للفالوجي، وبيت جبرين، وأذهب أبعد منهما لو لزم الأمر.. حتى إلى الخليل استطيع المشي.

ضحكت ضحكة كتمتها بوضع راحة يدها على فمها، فجرَّها بلطف إلى غرفتهما.

عندما نصَّب قامته، لمح خيّالًا على ظهر جواده، مقبلًا باتِّجاهه. حدَّد نظره فعرفه دون جهد. ضحك مرشد وهو يفرك يديه، ماسحًا عنهما ما علق بهما من تراب، ومن آثار العشب الذي يقتلعه ليخلِّص زرعه من أذاه.

ابتسم بشماتة، وهو يحكي لنفسه: هذا الهامل لا يعرف أنَّ سلمان تزوَّج من فاطمة. هو لا يكتفي بما عنده من أراض شاسعة أورثها له والده، استولى على أكثرها، وتنازل لأخوته وأخواته عن القليل منها، وكأنَّه يتصدَّق عليهم من مال أبيهم الذي لهم فيه نصيب مثله.

ركَّز نظره عليه، بينما هو يقترب على ظهر جواده، مرتديًا ملابس تشبه ملابس الفرسان الإنكليز.

مرشد يقول في نفسه، وهو يتأمَّله، بينما جواده يتقافز به خببًا: سبحان الله.. ابن آدم طمَّاع، ولا يملأ عينيه سوى التراب، لذا يضعون التراب في عينيه عندما يموت، مع أن أوان التعلُّم يكون قد فات. الأحياء يكرِّرون وضع التراب في عيون الموتى، لكنَّ بعض الأحياء لا يتخلَّون عن الجشع، فعيونهم فارغة، وبطونهم لا تشبع، و.. هذا الزلِمة أكثر من عرفتهم جشعًا.

تابعه مرشد بنظره، وهو يدور على ظهر جواده دورة واسعة حول الحقل، فانحنى تجاهلًا، موحيًا له بأنَّه يستهين به، ولا يقيم له وزنًا.

اقترب من مرشد ورفع سوطه عاليًا، وكأنَّه يحيِّيه، فلم تخفَ حركة عبد الهادي عن مرشد بما تحمله من تهديد، فمشى حتى آخر حقله، وطوّح بما تضمّه يده من عشب ضارّ بعيدًا، ثمَّ نظر إليه بلا مبالاة.

جذب عبد الهادي لجام جواده، وأوقفه قرب مرشد، ونطَّ من فوقه، فكاد يتعثَّر ويسقط، لكنَّه وازن جسده على الأرض المحروثة، ورفع صوته:

عالعافية يا أبو العبد يا قرابة...

يا مرحبًا يا أبو فارس.

تأمَّله مرشد بلامبالاة. أغمض عينًا، وأبقى الثانية مفتوحة قليلًا. بدا كأنَّه يقول له: أنا بالكاد أراك يا هامل.

لبث واقفًا وصامتًا، فسأله مرشد ليقطع الصمت، وليستدرجه حتى يقذف المفاجأة التي لا يتوقَّعها في وجهه:

إلى أين تسرح في هذا الصباح يا أبو فارس؟

اقترب من مرشد وهو يجبّد رسن جواده رابتًا على عرفه النافر:

قلت يا قرابة أحضر لأسمع جوابك.

على ماذا يا.. قرابة؟!

لفظ كلمة قرابة بسخرية، فرفع أبو فارس صوته:

يا زلمِه: على طلب مصاهرتكم، والزواج من فاطمة!

وهو يبتسم ابتسامة ظفر:

فاطمة يا قرابة: ابن عمّها سلمان أبو محمّد أولى بها، وهو بلا زوجة، ولذا تزوَّج بها قبل يومين، عقبال عندك تضيف لزوجاتك واحدة جديدة يا أبو فارس!

امتعض أبو فارس وبرم بوزه، وحاول أن يكظم غيظه، وأخذ يمسح وجهه السمين بمنديل أخرجه من جيب بنطاله:

يعني سلمان فطن بفاطمة لما طلبت أنا مصاهرتكم؟!

تأمَّله مرشد. قاس طوله من تحت لفوق، ثمَّ قال له:

أنت متزوِّج من أربع نساء، وتريد الخامسة، أهذا من الدِّين يا قرابة؟

اختلط تنفُّسه الغاضب بصوت تنفُّس الجواد الذي أخذ ينفّض رأسه محاولًا أن يفلت رسنه من يد صاحبه:

كنت سأطلِّق واحدة.. لو وافقتم على مصاهرتي لكم. يلَّا.. كل شيء قسمة ونصيب!

سحب الجواد ومشى به قليلًا، واستدار فجأة، وكأنَّه تذكَّر:

أنت يا مرشد لست على نيّاتك.. فأنت داهية. أنت أغريت سلمان بالزواج من فاطمة.

وأنت يا قرابة لا يشبع بطنك الأجرب، فأنت تودّ لو تمتلك كلّ أراضي ذكرين، وعجور، وبيت جبرين، وتل الصافي.. ألا تشبع يا زلمِه؟!

ضحك أبو فارس:

لا واللَّه لا أشبع، لا من الأرض ولا من النسوان.. يا قرابة. شو الدنيا بدون أرض ونسوان؟!

اعتلى صهوة جواده، ولكزه وابتعد. لاحقه مرشد بنظره، وهو يتمتم: أللَّه لا يشبعك. تريد الزواج من أرض فاطمة، وليس منها. ولو تزوَّجت منها ستضع يدك على كلّ أرض البنات، وتصبح الحامي لهنّ، والوكيل عنهنّ.. أللَّه لا يشبعك يا طمَّاع، يا أبو كرش أجرب.

لاحقه بنظره حتى توارى في الوادي، وأطلق ضحكة شامتة، وانحنى يقتلع الأعشاب من أرضه، حامدًا اللَّه على نعمته، وداعيًا أن يعوِّض اللَّه شقيقه سلمان عن فقدانه ابنه محمّد، وأن يُفرح قلب فاطمة بولد يخفِّف عليها غياب شقيقها أحمد.

طوى ضمّة من الأعشاب الضارَّة براحته ونترها، ثمَّ استقام وأرسل نظره وراءه، وكأنَّه يراه، رغم اختفائه، وخاطبه: أنت مثل هذا العشب الضارّ، لا بدّ من قلعك من شروشك. والدك كان مع الأتراك، ولبس الطربوش مثلهم، وها أنت صرت بسرعة تلبس مثل فرسان الإنكليز.. يا للعجب فيما تفعلون!

رمى حزمة العشب الضارّ بعيدًا، وأخذ نَفَسًا عميقًا، وشعر براحة تملأ صدره، فارتمى على الأرض وبسط راحتيه عليها، وتنفَّس رائحتها بعمق.

ابتعد عن البلد، وشدَّ همّته مسابقًا الشمس، فرعاة القطعان يسرحون بقطعانهم مبكِّرين، لترعى أبقارهم وأغنامهم العشب طريًّا مندّى قبل أن تسخن الشمس.

كَمَن على الطريق متلفِّعًا بعباءته، ومدَّد عصاه بجواره، وطبنجته المعمِّرة مغروسة في حزامه، وأخذ يغمض عينًا ويفتح الأخرى مترصِّدًا بدهاء ذئب.

ارتفعت الشمس، فملأت السهول بالضوء الساطع. خلع كوفيَّته عن رأسه وتمدَّد مستظلًّا بشجرة الخرّوب، وراقب ما يحيط به من رعاة وقطعان.

الأبقار لا شأن له بها، فهو يستولي عليها بطريقة أخرى. هو اليوم يريد أن يأكل لحمًا، يتشمَّم رائحته وهي تفوح في الفضاء، ويأكله في هذه البرّيّة الممتدَّة بين ذكرين والقرى المجاورة، بعد أن عادت القطعان للظهور، وعاد الرعاة لوضع الأجراس في أعناق تيوس قطعانهم.

سلمان يعرف رعاة ذكرين، وهم لا يملكون سوى رؤوس قليلة، فالحرب أخذت منهم الكثير. قبل الحرب، كان يختطف جِدْيًا أو خروفًا صغيرًا يشويه ويأكله وحده، ثمَّ يعود إلى ذكرين شبعانَ، وبعد مضيِّ جمعتين، ثلاث، يشتاق للبرّيّة ورائحة اللّحم المشويّ، فيعود ويختطف خروفًا أو جِديًا يشويه ويأكله شاكرًا الله على نعمته.

تمدَّد على سفح التلّ تحت شجرة الخرُّوب. الطريق مائل على السفح، والقطعان تعبره عندما يسوقها رعاتها إلى الآبار، والأجمة فسيحة، واختفاء خروف بين أشجارها لا يلفت انتباه الرعاة، وإن تنبَّه راع لاختطاف خروف من قطيعه، فسيطلب منه أن يُثبت أنَّه له، وليس للراعي الذي سبقه ومضى مبتعدًا، وأنَّه يريد أن يعيده لصاحبه بعد أن وجده ضالًّا.

مرّ راع بقطيع صغير، فأشاح عنه، ولمَّ جسده، وجعل كأنَّه ينام، غير آبه بعواء الكلاب.

ضحك وهو يسند رأسه على راحة يده المغروسة الكوع في التراب، وقال لنفسه: يظنّون أنَّهم بكلابهم يحرسون قطعانهم منِّي! أنا آخذ زكاة من قطعانهم الكبيرة، فلا مال لديّ لأشتري ذبيحة، ولا أرضى لنفسي أن اشتهي اللّحم، والقطعان أمامي، وهي تتوالد وتزداد سنويًّا، ولن ينقصها خروف صغير يأكله سلمان! أنا لا أطمع، فلماذا البخل؟!

رأى قطيعًا كبيرًا يتقدَّم، أجراسه يتصاعد رنينها، وحركته تضجّ في الأرجاء حوله، والغبار يتصاعد من تحت الأرجل المتزاحمة، وصوت الراعي يرتفع: برررر... هِي، وكلب يرمح دائرًا حول القطيع حتى لا تتوه أيّ واحدة، ورائحة القطيع تفوح في الأرجاء، مزيجًا من رائحة الحليب والبعر والصوف والتراب والأعشاب.

راقب حركة الكلب، وارتاح لأنَّ كلبًا آخر يمشي مع القطيع لاهثًا، وكأنَّه خروف من الخراف المتزاحمة.

تعرَّج القطيع في صف طويل على المسربة المحاذية للحرج، وارتفع الغبار من حوله، فترك سلمان عباءته مكومة، وعصاه مطروحة، وزحف، وانقض على مؤخرة القطيع، وشلف خروفًا من قائمتيه الخلفيَّتين وبطحه تحته وهو يغلق فمه

بقبضته. رفع رأسه قليلًا، فرأى القطيع يبتعد، ولم ير أثرًا للراعي ولا للكلب، فأخرج شبريّته وسمَّى باسم باللّه وحزّ عنقه، بينما الخروف يحاول التفلّت، وتتوتّر حركة قوائمه، وجسده يختلج، وأخيرًا يهمد، بينما دمه يتجمَّع قرب رأسه مفتوح العينين.

تأمَّله سلمان، وتحسَّسه: آ.. كويّس، ستشبعني يا كويّس!.. عمّك سلمان مشتاق للّحم ولازم يوكلك، ربّنا لا يقبل أن أشتهي اللحم، وكلّ هذه القطعان تملأ السهول.. بعدين أنا تزوَّجت ولازم آكل لحمًا حتى أقوّي بدني.

نظر إلى دم الخروف، وجسده الساكن، فمسَّد على صوفه، وكأنَّه يهدهده لينام: نصيبك أنَّك أنت من التقطته يد سلمان. مصيرك تذبح وتؤكل يا صاحبي، أكلتك أنا، أو أكلك غيري.. وربّنا حلَّل أكلك. أنا شبريّتي ماضية، ولم أوجعك كثيرًا، وذبحتك كما يأمر الشرع.. يعني كلّ شيء على أصوله.

حفر حفرة، وجمع كمّيّة من الحطب، وأضرم النار. سلخ الخروف، ثمَّ قطَّعه قطعًا كبيرة، وجمعها في الجلد، وأنزل الجلد المحشو باللّحم في الجمر المتأجِّج، ثمَّ واراه بالتراب.

أشعل سيكارة ، وتأمَّل البرّيّة، مصغيًا إلى الأصوات التي تملأ الفضاء، ممرِّرًا نظره على التلال، والحقول، والفلّاحين الذين ارتفعت شمسهم وهم يشتغلون في حقولهم، فحمد الله على نعمته، وأغمض عينيه ليأخذ غفوة تمتدّ حتى نضوج الزرب الذي لن يطول انتظار نضجه.

شعر بسخونة الشمس تلسع وجهه، ففتح عينيه وفرك وجهه، ثمَّ نهض وأزال التراب من فوق الزرب، وأزاح الجلد، وتأمَّل اللّحم الذي صار بلون الدبّور، مشهيًا برائحته وحمرته الداكنة المقرقشة الأطراف.

تربَّع، وأخرج صرّة الملح ورشّ برؤوس أصابعه على قطع اللّحم: بسم اللّه الرحمن الرحيم. وضع قطعة في فمه، فشعر بسخونتها تلذع لسانه وباطن شفتيه.

أخذ يغرز رأس شبريّته في قطع اللّحم، مفتِّتًا القطع الكبيرة، نافخًا عليها وهي قرب فمه لتبرد قليلًا، ويلتقمها ويمضغها ببطء متلذِّذًا، شاكرًا اللّه الذي أحلّ لبني آدم أكل اللّحم.

فرغ من التهام قطع اللّحم. فتح سعن الماء وشرب حتى ارتوى، وغسل فمه ووجهه. أزاح العظام بعود في الحفرة، ودفنها بالتراب، وأخفى أيّ أثر للشواء، حتى لا يتنبَّه الرعاة إلى فعلته، فيأخذوا حذرهم.

رشّ الماء من فم السعن حتى أفرغه، ثمَّ طواه، وحمل عصاه، وتأمَّل المكان كأنَّه يودِّعه، ويطمئنّ على أنَّ كلّ شيء عاديّ وتمام التمام.

راح إلى الطريق العامّ، واتَّخذ وجهته إلى ذكرين، وكأنَّه يعود من سفرة لإحدى القرى المجاورة.

هووووووو

لمّا رأى شقيقه سلمان مقبلًا شدّ رسن البقرتين، وارتفع صوته العريض مدوًّيا:

هووووووو

مشى في الأرض المحروثة حتى وصل نهايتها، وأسرع لاستقبال شقيقه سلمان فاتحًا ذراعيه.

تعانقا وكأنَّهما لم يتناولا العشاء أمس معًا، ومعهما ذوابة وفاطمة وحليمة وآمنة وعبد الرحمن.

قعدا على الأرض متقابلين، بعد أن أزاحا عن وجهها الحصى.

قال مرشد:

الأرض يا ابن والدي.. الأرض نعمة من اللَّه، وأنا في الحرب كنت أحنّ لها، لأيّام الحراثة والحصاد. كنت أحنّ للكرم، لأشجار التّين والزيتون والعنب، لطيور السماء، لماء ذكرين، لأهل قريتنا، وأفكِّر فيهم طيلة الوقت، وأدعو اللَّه أن يعود كل من أُخذ للعسكريّة سالمًا إلى أهله، وإلى قريتنا وأرضنا.

تأمَّل وجه أخيه وفمه الذي يفترّ عن ابتسامة رضى:

أنت مش صحبة مع الحراثة والحصاد وتعب الأرض وهمَّها.

رفع سلمان رأسه، ومرّ بنظره على الآفاق البعيدة، وعلى أجمات الأشجار، وعلى التلال والكروم والأرض غير المحروثة، ورافق بنظره الطيور التي تفّر من بين الأشجار وتعلو في الفضاء. وبعد صمت، قال:

أتعرف يا مرشد: أنا أحب لو أنَّني طائر أحلِّق في السماء مثل هذه الطيور، لأرى بلادًا كثيرة ودنيا غير دنيتنا وبلادًا غير قرانا ومنطقتنا وما حولنا. أنا يا مرشد خلقت هكذا. يا سبحان اللَّه، ومع أنَّنا أخوة من بطن واحد وظهر واحد، فأنت متعلِّق بالأرض، بينما أنا أحبّ الفضاء والبراري. كيف نكون هكذا ونحن إخوة؟! واللَّه شيء محيَّر يا مرشد!

صمتا طويلًا، وكأنَّ الكلام بينهما انتهى، أو كأنَّهما لا يجدان كلامًا يعبِّران به عمّا في نفسيهما. بعد صمت طال، وجدها مرشد فرصة، فما يشغله لا بدّ أن يصارح شقيقه به:

يا أخي.. يا سلمان: أنا لا أستطيع القيام بهمّ أرضنا، وأرض بنات عَمّنا. قبل أخذ شقيقهن أحمد للحرب كان يهتمّ بها، وهو لم يعد حتى اليوم، وإن شاء اللَّه يعود، ولكنْ، لا بدّ من حرث الأرض وزرعها. أنا شايف أن نتّفق مع حسين رضوان ليأخذ أرض البنات مرابعة، وأنا أتكفَّل بأرضنا.

انتظر حتى يرى ردّ فعل شقيقه، ولكنَّ شقيقه ظلّ صامتًا، وكأنَّما يريد سماع المزيد منه، فعاد وواصل كلامه:

ذوابة وفاطمة وحليمة وآمنة أرضهن واسعة.. وأرض أحمد أعاده الله بالسلامة، وأنا عليّ همّ أرضنا، والكرم الذي تحتاج أشجاره للعناية، وزراعة المزيد من غراس الزيتون والتين ودوالي العنب.

اسمع يا أخي: أنت مؤتمن، وأنت تعرف أكثر منِّي، ونحن لن نبوق بالبنات، فأرضهنّ أمانة. أنت متزوِّج من ذوابة، وأنا تزوَّجت فاطمة..وبقيت حليمة وآمنة، ولا بدّ أن نزوِّجهن، ونحفظ شرفهن وكرامتهنّ، فهنّ بنات عمومتنا.

يعني أتَّكل على اللَّه، وأتَّفق مع حسين ؟

هزّ سلمان رأسه:

اتَّفق يا أخي.. وافعل المناسب، فأنا لا أشغل بالي بهذه الأمور.

ذهب نظره بعيدًا مع رفوف الحمام البرّي، ثمَّ رأى طيورًا غريبة كبيرة الحجم، فتساءل:

أهذه صقور؟

ابتسم مرشد:

الحمد للَّه، لقد عادت الطيور إلى سمائنا، وهذا يبشِّر بخير في آتيات الأيّام. أمس، سمعت هديل الشنّار فتفاءلت، وفي الكرم فوجئت بالأرانب تظهر وتختفي تحت ركب الصبر.

اتَّكأ سلمان على ذراعه، ورفع بدنه النحيل المديد، وأخذ نَفَسًا طويلًا.

أضاف مرشد:

هذا العام، سيكون عام خير إن شاء اللَّه.

تأمَّل شقيقه وهو يخطو مبتعدًا ببطء، وسأله:

هل تحنّ إلى...

احتار ماذا يقول، فسكت. فهم سلمان قصده، فضحك:

ريحة البراري، واللّحم المشويّ.. تناديني يا أخي.. أيْ واللَّه، أشمّها ليل نهار.. والقطعان بدأت تعود للظهور، فالرعاة من قرى قضاء الخليل، ومن منطقة بئر السبع، بدأوا يملأون السهول والتلال بقطعانهم.

ثم مضى سلمان مبتعدًا، منتصب القامة، بينما لبث مرشد يتابعه بنظره: كأنَّه لا يكبر، وجسده لا يضعف.

وجد مرشد نفسه يهمس وهو يتأمَّله: حماك اللَّه يا أخي، وأمدّ في عمرك يا سلمان، فأنت أكثر من أخ أكبر لي.. أنت أبي يا أخي.. أي واللَّه: أنت بمقام أبي، فأنت ربَّيتني بعد رحيل والدنا.

يأخذ مرشد نَفَسًا عميقًا، ويجيل نظره على كلّ ما حوله، وكأنَّه يراه لأوَّل مرَّة، وهو دائمًا يرى أشياء جديدة لأول مرَّة، أو هذا ما يخيَّل له.

يتابع بنظره رفّ الحمام البرّيّ الذي يظهر فجأة فوق أشجار الحرج الممتدّ على السفوح، ويعلو في الفضاء، ثمَّ يحلِّق فوق رأسه وكأنَّه يحيِّيه، فيلوِّح للحمام، وهو يبتسم لمرآه مرفرفًا بأجنحته، مرتفعًا ومنعطفًا في الفضاء، بعضه يضلّ قليلًا ثمَّ يعود ويلتحق بعائلته، ويتوارى بين الأشجار في جولة صباحيَّة، ثمَّ يرتفع الهديل مع ارتفاع شمس الصباح التي بدأت تعلو مرسلة دفئًا لذيذًا في بدن مرشد.

يرى بخارًا يتصاعد من حقل القمح وسنابله الصفراء الممتدّة، والنباتات، والأشجار، والتلال البعيدة، كلَّما سخنت الشمس، فيلذّ له ما يرى، فالأرض كما البشر تتنفَّس، وتتثاءب مستيقظة من نومها الليليّ، فكلّ شيء لا بدّ أن يرتاح ليعود نشيطًا من جديد.

رأى في البعيد بهيمة تدفع رأسها أمامها، ورجلًا يمسك برسنها، فعرف أنَّ صاحب هذه القامة العالية حبيب لقلبه. تمتم: سلمان! عشرة أيّام يا أخي وأنت غائب، وفاطمة تبدي القلق عليك، هي التي يبدو أنَّها ألفتك بعد شيء من النفور أبدته، لا تجاهك، ولكن لفكرة الزواج، كما كرَّرت القول لذوابة التي أخبرتني محذِّرة من أنَّ أختها شموس، وأنَّها تحتاج لطول البال من سلمان.

من يعرفك يا أخي لا يمكن إلّا أن يألفك، فأنت محبّ، ووفيّ، وطيِّب القلب، وشجاع في قول كلمة الحقّ ولو على نفسك. حماك الله يا أخي، حماك الله، و.. آه لو تتوقَّف عن غيباتك، فأنت كبرت، وحالنا تحسَّن يا ابن والدي، وأرضنا تغلّ علينا، وبما نبيع من قمح نستطيع أن نشتري الكسوة وننستر، وها نحن قد امتلكنا بقرتين للحراثة من حرّ مالنا، ومنهما نتزوّد بالحليب واللّبن والزّبدة، وسنمتلك غيرهما، فالموسم الجديد مبشِّر، وانظر إلى حقول ذكرين الممتدَّة الخصبة. لقد تغيَّر الحال، وها نحن نرتاح بعد سنين الجدب، والحرب، والغربة.. وآه، لو يعود الغيّاب يا أخي!

انحرف سلمان، ودخل البلد مواربًا، من جهة الآبار، فعرف أنَّه سيدخل من جهة بيت وكرم أبو العطا، ويصعد إلى بيت ابنه أحمد، و.. قد يذبح البقرة، أو الثور، في بيت ابنه أحمد، ثمَّ يرتاح، ومن بعد يتَّجه إلى بيت العائلة.

ظلّ يتابعه حتى توارى، ولبث منتصب القامة، مفكِّرًا: سيذبح ما أحضره، ويسلخه، ويقطِّع لحمه، ومن بعد يحمله مع أحمد إلى البيت، لينشر اللّحم في الحوش على الحجارة، حتى يجفّ، بعد فرم كمية تطبخها فاطمة بدهنها، ثمَّ تسكبها في زير كبير.

هل تعرف فاطمة وذوابة أنَّ سلمان لا يشتري ما يُحضره من بقر، وثيران، وعجول، وأنَّه يسْر...؟ هو لا يعتبر أنَّه يسرق، فقد شرح لي: أنا لا آخذ شيئًا من بيت فقير، أو من بيت لا يملك سوى رأس واحد، بل آخذ ممَّن يملك كثيرًا، وأنت تعرف يا أخي أنَّني أذهب بعيدًا، ولا أمسُّ شيئًا ممّا يملك أهل القرى القريبة.. فهذا عيب، أي والله عيب يا مرشد. أن نجوع وغيرنا عنده الكثير، وهو لن يخسر كثيرًا إذا ما

أخذت شيئًا ممَّا يملك، فهذا ليس عدلًا! ضحكت وقلت له: زكاة ماله يعني! ضحك ضحكته الصافية: يعني مثل الزكاة. منذ ذلك اليوم لم أعد أسأله.

يتمتم مرشد، وهو يتطلَّع إلى الجهة التي غاب فيها سلمان: بدأت أقلق عليك يا أخي، فأنت كبرت، والمسافات التي تقطعها بعيدة، وشاقّة، وأنت تنام في العراء، بلا غطاء، ولا أدري كيف تؤمِّن طعامك. كم أخشى يا أخي أن تقع ذات يوم، وتتبهدل يا ابن والدي! أنت تتسلَّح بطبنجتين، تغرسهما على خاصرتيك، تعمرهما وتجعلهما جاهزتين.. آخ يا أخي: أنت تعيش دائمًا في الخطر، وأنا أقلق عليك، أرتاح عندما تعود سالمًا غانمًا، وأبقى قلقًا من أنَّك ستستأنف مخاطراتك يا ابن والدي، وأتحرَّج من تقديم النصح لك.. فأنت أخي الأكبر وبمقام الوالد.

انحنى مرشد على الأرض، وانهمك في خلع الأعشاب الضارَّة، وهو يتمتم: هداك اللَّه يا أخي.. يكفي والله، يكفي.. أما تشعر بوهن في جسمك، وثقل في همتك؟!

تأمَّل الحقل الأصفر الممتدّ المتموِّج، وأصغى لهمس يتصاعد منه مع هبوب النسمات، فاتَّسعت ضحكته الصامته، وأخذ يردِّد: الحمد لله، اللَّهمّ أطرح البركة في رزقنا، وتعبنا، وامنحنا الراحة بعد التعب يا أرحم الراحمين.. و.. واجعل أخي سلمان يكفّ عن.. عن.. حياة الخطر.. وال.. أستغفر اللَّه العظيم!

انشقَّ الباب عن الداية الحاجة دلال، فتعلَّقت عينا سلمان بفمها، وعندما وضعت راحتها على فمها وأطلقت زغرودة خفق قلبه وهبَّ واقفًا، وقد ارتج عليه.

وَلَدْ يا سلمان.. وَلَدْ.. ربّنا عوِّضكم بولد أنت وفاطمة.

أطلَّت ذوابة:

مبروك يا سلمان.. مبروك الولد.. مبروك العريس.

ارتفع صوتها مناديًا على عبد الرحمن، الذي كان يعلف الحمام والدجاج، ويتشاغل بانتظار سماع البشارة:

طِرْ إلى والدك، وبشِّره بالولد.. فرِّح قلبه...

دخلت الداية، بعد أن طلبت من سلمان الانتظار، لكنَّه مدَّ رأسه عبر الباب، وحاول أن يرى وجه فاطمة في الغرفة الفسيحة المكتظَّة بالفراش، والتي لا يدخلها ضوء كاف إلّا إذا فتح الباب تمامًا.

أرسل صوته بنبرات الفرح:

مبروك يا فاطمة.. مبروك يا أم...

احتار سلمان بأمّ ماذا يناديها، وهما لم يسمِّيا الولد هو وفاطمة.

ارتفع صوت ذوابة والداية، وكأنَّهما اتَّفقتا على السؤال في الوقت نفسه:

ماذا ستسمِّيه يا سلمان؟

ساد صمت، فتساءل، وكأنَّه يستشير فاطمة:

محمود.. لماذا لا نسمِّيه بهذا الاسم.. فهو أحمد.. وهو محمّد؟!

استقرّ اختيار سلمان على اسم محمود، لأنَّه بهذا الاسم يرضي فاطمة، فابنه الغائب اسمه محمّد، واسم أخيها أحمد، ومحمود يجمع الاسمين.

بصوت واهن، نبست فاطمة وهي تتنهَّد، وعلى وجهها طيف ابتسامة:

كويِّس يا سلمان.. كويِّس يا أبو محمّد.

سرّ بمناداتها له: أبو محمّد.. وكأنَّها تقول له: أنا أعرف الأصول يا سلمان.

قالت ذوابة:

لازم نحضّر لفاطمة أكل يا سلمان.

وأضافت:

سأمسك ببعض الفراريج، وأنت تذبحها.

قالت الداية:

لازم تشرب مرقة حتى تدفئ بطنها.

سمعت صوت عبد الرحمن، ونحنحة مرشد، وحين التفتت رأت سلمان ومرشد يتعانقان.. ثمَّ يرتفع صوت بكائهما، وكأنَّهما يتذكَّران الغيّاب.

لامتهما ذوابة:

أهذا وقت بكاء؟! لازم تستقبلوا الولد بالفرح...

هنا زغردت الحاجة دلال، وكانت قطعت حبل السرّة، ولفّت المشيمة بخرقة قديمة، وطلبت من عبد الرحمن أن يدفنها بعيدًا، وعميقًا، حتى لا تنبش الكلاب والقطط الأرض وتأكلها.

أراد مرشد أن يعود إلى جوّ الفرح:

عقبال عندك.. يصير لك أبناء يا عبد الرحمن. أنت كبرت ولازم نجوّزك...

تأمَّله عمّه سلمان:

اللَّه العليم أنَّه اقترب من الثالثة عشرة. صار زلمِة، ولازم نجوّزه بعد كام سنة.

وارب عبد الرحمن نظره وهو يبتسم، وخرج حاملًا اللَّفّة لدفنها بعيدًا.

قال مرشد:

محمود اسم كويّس. وفيه كل شيء: أحمد.. محمّد.. اللَّه عوّضنا.. اللَّه لا ينسى عباده.

ثم لسلمان:

شفت يا أخي، ها قد أنجبت ولدًا بعد سنة من زواجك.

نظر مرشد إلى الحاجة دلال برضى، وقال لها، والفرح يفيض على وجهه:

لك على البيدر كيس قمح.. فالقمح يصل لخصر الرجل الوافي القامة.

رأت في عينيْ سلمان رغبة في رؤية وجه ابنه، فحملته بين راحتيها:

تعال يا عمّ سلمان شوف وجه محمود.. ابنك.. بس ما تبوسه حتى شواربك ما تشوّك وجهه.

انحنى سلمان، وركّز نظره على وجه الطفل، وهمّ أن يبوسه، فأبعدته دلال ضاحكة:

لأ.. ستشوكه.. بوسه من دون شواربك ما تلمس وجهه الطريّ.

باسَ سلمان وجهه الصغير الطريّ بطرف شفتيه، ثمَّ بسط راحتيه، وأخذ يتمتم باسم محمود، سائلًا اللَّه أن لا تكون في أيّامه حروب، فيكفي أنَّ الحرب اختطفت شقيقه محمّد، وخاله أحمد.

عمَّه حسن، ليس عمَّه شقيق والده، ولكنَّه من أبناء عمومة أبيه، عنده سبع بنات وولد واحد: إسماعيل، وهو أصغرهنّ.

قال، وهو يضع البضاعة التي أحضرها من الخليل في دكّانه: علب الحلاوة، القضامة، الحامض حلو، إبر الخياطة، الخيطان بألوانها، متنهِّدًا:

لازم أشتغل.. يا أحمد يا ابن أخي. الحمل ثقيل على ظهري: سبع بنات يا حبيبي في وجهي، والناس طالعة من حرب، وفقراء، وتعبانين.

توقَّف في منتصف الدكّان، ثمَّ اقترب من أحمد، وتأمَّل وجهه:

أنت كبرت يا أحمد، وها أنت والحمد لله قد نفدت من الحرب سالمًا.. فلماذا لا تتزوَّج؟!

احتار أحمد بماذا يجيب، ولكنَّه والعمّ يتأمَّله، ولا يبعد نظره عن نظره، وجد نفسه يقول شاكيًا:

من أين لي يا عمّ حسن ما أتزوَّج به؟ أنت تعرف الحال؟

وضع حسن يديه على كتفيْ أحمد:

أنت قريبي يا أحمد، وأنت جدع، وعندك أرض من والدك، ووالدك تزوَّج من فاطمة قريبتنا، يعني عندك بيت وأرض، وعندك همّتك للشغل. أنا أزوِّجك واحدة من البنات، وأنسب واحدة لك هي سارة، فهي من عمرك.. ها! شو قلت؟

وقبل أن يسمع جوابه، عاد وأكمل كلامه:

تكسوها.. وتتزوَّج، بدون طبل وزمر.. فأخوك محمّد غائب، والغائب علمه معه. سارة بنت عمّك وأنت ابن عمها دمها ولحمها.. تنسترون معًا.. ها! شو قلت؟

بلهفة، وافق أحمد:

قلت: موافق يا عمّ حسن.. سأخبر والدي.

لازم تخبر عمّنا سلمان، فهو شيخ حمولتنا، وتاج رأسنا، ولازم يوافق، وأنا متأكِّد بأنَّه سيوافق، فهو نفسه تزوَّج، ونحن أهل في بعضنا يا أحمد، يا حبيبي.

نهض أحمد، فمدّ له حسن يده بقبضة من التمر:

حلِّ فمك.. إن شاء الله أيّامك الجاية حلوة. يلّا رحْ عند والدك واستشره، فكلّ شيء لازم يتمّ برضاه.

أخذ أحمد يكلِّم نفسه، وهو ينطلق مبتعدًا عن دكّان عمّه حسن: يعني لن أدفع شيئًا، ولن أتكلَّف سوى بكسوة سارة. أشتري لها كم ثوب، وشوية أغراض.. ونتزوَّج. لا حاجة للعرس، فكما فعل والدي عندما تزوَّج فاطمة أفعل.. فأخي نجهل مصيره، وعيب أن نقيم عرسًا، فكثير من أهل البلد لم يعودوا من الحرب. والدي لن يعترض.. ولماذا يعترض؟ لا أنا معي مصاري، ولا هو، فلماذا يعترض، وهو عاجز عن مساعدتي؟!

وجد والده جالسًا في المضافة، متّكأ بظهره إلى الجدار، مغمض العينين، ولكنّه ما إن خلع البلغة من قدميه، واتّخذ له مجلسًا، حتى فتح والده عينيه، واعتدل في جلسته.

تساءل سلمان:

عندك كلام يا أحمد!

أومأ أحمد برأسه، وتنحنح، وانطلق يحكي لوالده، الذي اتّسعت ابتسامته، وصارت ضحكة سرّت أحمد، لأنَّها علامة الرضى:

هذا يوم المنى يا أحمد، فأنت كبرت، ولا بدّ أن تتزوَّج. عندك حصّتك من الأرض، والبيت الذي في الحاكورة التحتانيَّة قرب كرم عمّك مرشد لك، فلا ينقصك شيء، فلنتكل على الله ونحكي مع عمّك حسن. بارك الله به، والله.. نعم العقل، فهو حريص على عرضه.. عرضنا، فالبنات لازم يتزوَّجن قبل أن يعنسن.. وأنت أولى من الغريب.

يعني يا والدي؟

يعني اليوم يا ابني، بعد صلاة المغرب، نزور عمّك أبو إسماعيل، نحن وعمّك مرشد، وبعض رجال حمولتنا، ونقرأ الفاتحة معه، وبعد يومين نزور الخليل، وتعقد زواجك على ابنة عمّك، ونشتري لها كسوة وأغراضًا، وما يلزم العروس، وتغني لها بنات الحمولة، ويفرحن قلبها، ونسهر معك في المضافة.. ومبروك يا ولدي.. هاه! مبسوط يا أحمد؟!

زحف سلمان على أربعته، ثمَّ ضمّ أحمد وقبَّل جبينه، ومعًا تذكَّرا محمّد الغائب، فبكيا بلا صوت حتى لا يفسدا لحظة الفرح.

أضرموا النار وقرفصوا حولها خارج بيت الشَّعر، وبدأوا في تدفئة جلد الطبل الكبير والمزاهر، ورشّ الشيخ علي شيئًا في النار المتأجِّجة، ففاحت رائحة زكيّة تشمّمتها النسوة المتحلِّقات، واللواتي دارين وجوههنّ بأغطية رؤوسهنّ.

ضجّ الأولاد حول المكان. تراكضوا وتصايحوا، وابتهجوا بمرأى الدراويش، ومنهم من توقَّف يراقب الشيخ علي، المعمَّم بعمامة لونها أحمر غامق، القصير القامة، الضئيل الجسد، والذي كاد يختفي وراء الطبل الكبير عندما بدأ ينقر عليه بعودين خشبيين مجرِّبًا مدى جاهزيّته قبل بدء النوبة، جاذبًا الأولاد لتأمُّل رأسه المهتزّ فوق حافّة الطبل الكبير.

هزّ جسده والتفت إلى جماعته، وهم أربعة شباب: اثنان ابنا الشيخ علي نفسه، واثنان ابنان للمرحوم شقيقه الشيخ عطا الله النويهي، وأكبرهم جميعًا لا يزيد عمره على العشرين، وهو مؤمن ابن المرحوم يوسف، الشقيق الأكبر للشيخ علي، مؤسِّس الطريقة التي انتشرت في بعض أرجاء فلسطين.

سلّك الشيخ علي حنجرته، وبدأ يرنّح رأسه، ويتمتم، ويضرب بالعودين الصغيرين ضربات خفيفة على الطبل، فهدأ الأولاد، وقرفصوا قبالة الجماعة، ومنهم من التصق بفخذ أمّه.

توافد رجال من القرية، وجلسوا بالقرب من الشيخ وبطانته، واتّخذت النسوة مجلسهن بجوار ذوابة وشقيقتها فاطمة، وبينهما جلست أختاهما الصغيرتان آمنة وحليمة مبهورتين بما تريان.

مالت رؤوس النسوة وهنَّ يجلسن على التراب، وتهامسن وعيونهنَّ جميعًا تتركّز على رأس الشيخ علي المنبثق من وراء الطبل الكبير، والذي ارتفع صوته الرنّان الصافي:

بشروطو يلّلي قمّطوك الزاي ورضيت

وكأنّ ذوابة كانت تنتظر كلمات بداية النوبة، لتتنهّد، وتهتزّ، وتبدأ في نشيج باغت النسوة، وأصابهنَّ بالوجوم.

أجلست فاطمة ابنها محمود في حضنها، فجسده لا يحمله، فهو ما إن تنهضه أمّه حتى يهوي على الأرض مرتجفًا، وهمست له:

النوبة اللَّيلة لروح خالك. أصغ لمدائحهم يا ولدي، فقد يمنُّ اللَّه عليك بالشفاء من ضعف بدنك، واحفظ ما يقولون يا محمود ليحفظك اللَّه، ويباركك، ولْيعِد إلينا خالك بالسلامة.

بدأ محمود بهزّ رأسه دون أن يفهم من الكلام شيئًا، ولكنَّه طرب لما يسمع من قرع الطبل والمزاهر والصنج، وتمنَّى لو يستطيع تعلُّم ضرب الصنج، وكيف يستخرج الرنين منها بضربها الواحدة بالأخرى.

سلمان ومرشد لا يحضران (النوبة)، ولا يهتمّان بالدراويش، منذ كانوا يتردَّدون على ذكرين قبل الحرب، فمرشد مشغول بالأرض طيلة النهار من الفجر حتى

غياب الشمس، وسلمان يرى فيهم ناسًا متبطلين لا شغلة لهم ولا عملة سوى التكسُّب بالدروشة، رغم إلحاح فاطمة لتغيير رأيه بالدراويش الذين تصفهم بأنَّهم أحباب الله.

عبد الرحمن يحبّ اللّعب، ويركض طيلة الوقت، ولا يعود إلى البيت إلّا وقد نال منه التعب والجوع، وهو لا يهتمّ بالدراويش، ولا بطبولهم وصنوجهم.

توقَّف مؤمن عن النقر على المزهر، وانسرب داخل بيت الشَّعر، ثمَّ خرج وقد ارتدى حزامين جلديَّين عريضين متصالبين، وكأنَّه مسلَّح يتوجَّه إلى الحرب لا ينقصه إلّا السيف.

بدا فارع القامة، وبوجهه الجادّ ونظرة الحزم في عينيه التي تتألَّق مع تأجُّج النار وانعكاسها على وجهه أبهر قلوب النسوة، ففي وجهه وقار رغم حداثة سنّه، والكبيرات منهنّ استذكرن والده الشيخ يوسف وترحّمن عليه.

دار في الحلقة حافي القدمين، وقفز في الهواء، وتمايل بلمح البرق حول نفسه، وأرسل نظرة من عينين التمعتا في وهج النار متَّجهة إلى السماء، وأرسل وبدنه يرتجف دعاء:

يا أللَّه يا ربّ.. أرجع الغيَّاب، واشفِ المريض، ولبِّ حاجة المحتاج بجاه نبيِّنا محمّد.. يا قدير.. يا رحيم.. يا أللَّه.

فتأوَّهت النسوة، وكلّ لها حاجتها التي تتمنَّى من اللَّه أن ييسّرها.

نهض الشيخ علي، ومع صوت الصنج والمزاهر، دار حول الشيخ الفتى مديد القامة، الذي زادته عمامته طولًا، وبدا كأنَّ الطبل معلَّق في الفراغ وحده، لولا أنَّ رجليْ الشيخ علي تظهران من وراء الطبل، ورأسه من فوق حافّته العلويَّة المستديرة، وكأنَّه ينبع من جوف الطبل، وهذا ما يثير دهشة الأولاد والنسوة، إذ كيف يحمل هذا الطبل الكبير، بينما هو صغير الحجم، قصير القامة، ويدور به بخفّة ورشاقة، ولا يسقط أو يدوخ؟!

انخرط رجال ذكرين في حلقة الذِّكر، وتواصل الدوران، وداخ بعض الرجال وسقطوا على الأرض منتفضين، فرفعت النسوة أصواتهنّ بالتكبير، بينما واصل الشيخ علي قرع طبله دائرًا حول رؤوس المرتعشين على الأرض، ثمَّ وضع الطبل جانبًا، وانحنى على رؤوسهم، وجعل يلطم وجوههم بلطف، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم منه سوى: وحِّد اللَّه يا شيخ.. وحِّد اللَّه. والنسوة يوحِّدن اللَّه، والصنج يهمس همسًا يبعث النشوة في العروق، ونقرات المزاهر تهدّي النفوس.

في الليلة القمراء، تواصلت النوبة حتّى الفجر. وحين وقف أحد الشباب وتوجَّه إلى القبلة، وشرع في رفع أذان الفجر، نهضت النسوة وهنّ ينفضن أثوابهنّ من التراب، وقد تخدَّرت أقفيتهنَّ، وبدأن يحرِّكن أقدامهنّ، وهنّ يتوجَّهن للَّه بالدُّعاء أن يبارك دراويش النويهيِّين، سائلات اللَّه، ببركة هذه الليلة، أن يردّ غيّابهنَّ، ويقضي حاجاتهنَّ.

دخلا معًا من باب المضافة، وطرحا عليه السّلام، وانحنى واحدهما بعد الآخر، هامًّا أن يقبّل يده، ولكنَّه سحب يده بسرعة دون كلام، فهو يعرف أنَّ هذه الطاعة لا تتمُّ عن أدب حقيقيّ من لصّيْن، وهو يجهل غرضهما من زيارته، وما يثير ريبته أنَّهما يعرفان أنَّه يجلس وحده في المضافة صباحًا.

دقَّق النظر في وجهيهما، وطولهما، محاولًا التدقيق في الفروق بينهما، هما التوأمان، فاحتار أيَّهما عبد الواحد وأيَّهما عبد الصمد.

جلسا قبالته، ظهرهما للباب، ووجهاهما باتّجاهه. تأمَّل وجهيهما فرأى ملامحهما متشابهة تمامًا، فاحتار كيف تميِّز زوجتاهما بينهما.

وهو يتأمَّلهما، قال في نفسه: إنَّهما الشخص نفسه، دون فروق، طولًا، واستدارة رأس، وبوجهيهما اللذين يغشّان الناظر إليهما، بحيث يحسب أنَّهما ولدان، وليسا شابَّين اقتربا من الثلاثين، وبعيونهما التي تلتمع كما لو أنَّها عيون قطط.

أوشك أن يضحك، وهو يلحظ حركة عيونهما التي لا تكفّ عن الدوران: عيون لصوص.. وُلدا بعيون لصوص، وبرشاقة لصوص، ويعيشان من اللصوصيّة.

نبَّهه صوت أحدهما من استغراقه:

عمّ سلمان: أنت بمقام والدنا، ونحن نريد أن...

احتار المتكلِّم في اختيار الكلمة المناسبة، وبعد تردُّد نطق متجنِّبًا كلمة (السرقة):

نريد يا عمّ سلمان أن.. نمشي معك.

سكت الذي تكلَّم، والذي لم يعرف سلمان إن كان هو عبد الواحد أم عبد الصمد، خاصّة وهو يركِّز نظره في الكانون أمامه، والآخر يفعل الشيء نفسه، وكأنَّهما يتَّفقان على كلّ حركة، أو أنَّهما لا يتعمّدان، ولكنَّهما يفعلان ما يفعلان دون قصد.

سأل سلمان بعد أن سحب نَفَسًا صغيرًا من سيكارته:

يعني: شو تمشي معي يا.. أنت وأخوك؟!

ابتسم الذي كان يتكلَّم، وقال:

أنا يا عمّ سلمان.. أنا عبد الواحد، الأكبر من شقيقي عبد الصمد بحوالى ساعة زمن.. كما أخبرتنا المرحومة والدتنا. أنا سألت، وأنا أجيب: نحن نريد يا عمّ أن نكون معك في.. محتار في الكلمة التي...

ابتسم سلمان، وسدَّد نظرة قويَّة على رأسيهما، ووجهيهما، وبدنيهما المتشابهين في كلّ شيء.

ضحك ضحكة صغيرة، وسأل:

كيف يميِّز أهلكما بينكما.. ها؟!

كشف أحدهما عن صدره، ووضع أصبعه على بقعة حمراء:

هذه الوحمة يا عمّ تميِّزني أنا الأكبر عن شقيقي الأصغر عبد الصمد.

سأل، وهو يتأمَّل وجه محدثه:

لماذا لا يربِّي أحدكما شاربيه؟

ضحكا معًا، وأجاب أحدهما:

حتى لا يميِّز الناس بيننا، فنحن هكذا نتمكَّن من الهرب، واللّفّ والدوران.. وأحيانًا نلخم الناس، فيحتارون إن كنّا واحدًا أو اثنين.

سألهما:

وكيف أميِّز أنا بينكما؟

لم يتردَّد محدِّثه في الجواب:

يضع أحدنا علامة على رأسه: حطّة، أو طاقيّة، والآخر لا يضع شيئًا، ومع الوقت ستتعرَّف علينا يا عمّ.. فنحن لسنا متشابهين تمامًا.

أخذ يلفّ سيكارة ببطء، ونظرته تحاول التدقيق بحثًا عن أيّ فرق يمكنه من التمييز بين واحدهما والآخر. دسَّ السيكارة في طرف فمه وأشعلها من الكانون، ونفخ نَفَسًا نحيلًا، وهمهم كأنَّما يبحث عن كلمات مناسبة:

أنا.. لا آخذ من بيت ليس فيه سوى بقرة، أو عجل، أو ثور.. واحد.

تعلَّقت نظرتاهما بفمه:

قال أحدهما:

نعرف هذا يا عمّ سلمان.

نكت الرماد حول الجمرات في الكانون:

لا أعتدي على أحد، ولا أطلق النار من طبنجتي على أيّ شخص، و.. المهمّ أن تنفدا بجلديكما إن تعرّضنا لمكروه، يعني إن اكتشف أمرنا، ونتَّفق أين نلتقي قبل أن نقوم ب..

احتار بماذا يصف ما سيقومون به، ولكنَّه اهتدى للكلمة المناسبة، فهو لا يقبل بأن يوصف ما يقوم به بأنَّه سرقة، فقال:

بال.. أخذ .. يعني بالأخذ.

وحتى يفهما ما يقصد:

لا مسّ بشرف الناس، وأعراضهم، وفي كلّ شهرين، ثلاثة نضرب ضربة واحدة، فنحن سنذهب بعيدًا عن قرى قضاء الخليل، ولن نمدّ أيدينا على شيء في منطقة غزّة.

وأضاف:

مفهوم؟

ردّا معًا:

مفهوم يا عمّ سلمان.

مرقت نظرته فوق رأسيهما، وعبرت الباب متَجهة إلى الفضاء خارجًا:

هذه الأيّام باردة، لذا نبدأ بعد شهر، فسيكون الطقس أدفأ، ونختار ليالي القمر. أنا لا أقتحم بيتًا معتَّمًا، لأنَّني لا أعرف ماذا فيه، وما يخبِّئه لي، وأختار دائمًا البيت المضاء بعد التّعرُّف على ما فيه.

ظلّا صامتين، فهما يريدان أن يعرفا ما يريد، وما سيفعل.

أضاف:

أنا لا آخذ شيئًا لبيعه، فما آخذه ليس للبيع والتجارة، ولكنْ لتأكله العائلة. وأوصيكما بالحرص، مع أنَّكما معروفان باللّصوصيّة...

ابتسما، وقال أحدهما:

يا عمّ: نحن لا نحبّ الشغل، وقد اعتدنا على العيش مما نسْر..ونحن والحمد للَّه لم نقتل، ولا فعلنا شيئًا لا يرضاه اللَّه!

ابتسم، وكأنَّه يقول لهما: انصرفا.. انتهى اللّقاء:

فليأت أحدكما...

حدَّق في وجه من خمَّن أنَّه عبد الواحد، بعد أن عرفه من كلامه:

تأتي أنت وحدك بعد خمسة عشر يومًا، فأخبرك بالموعد، ومكان انطلاقنا.. أيْوه؟

نهضا معًا، فبدوا مربوعيْ القامة، وأمْيَل للقصر. وهو يتأمَّلهما خطر بباله أنَّهما من فصيلة بنات آوى، فكتم ضحكة كادت تفلت منه.

غادرا، فتنفَّس بعمق، وهو يتساءل: هل من المناسب أن أترافق مع هذين اللّصَّين؟ وماذا يريدان من مرافقتي؟ أتراهما يريدان الانتفاع من خبرتي؟ ثمّ سأل نفسه: إلى متى سأستمرّ.. فلم تعد همَّتي كما كانت؟! وها هو مرشد قد عاد، وأرضنا اتَّسعت بعد الزواج من فاطمة، وعندنا مرابعون، و.. أنا كبرت، واللَّه.. كبرت.. واللَّه منّ عليَّ بمحمود، فلا ينقصنا شيء والحمد للَّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يبح لهما باسم القرية التي سيتَّجهان إليها. هو رصدها قبل أشهر، ولاحظ أنَّ فيها بيوتًا يبدو عليها الثراء، فقطعان الأبقار كثيرة، وهو غايته أن يعود ببقرتين، أو ثورين لا أكثر، للأخوين رأس، وله رأس.. فهكذا اشترط عليهما، وهما وافقا، وبدوا مسرورين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعة أيّام وهم يمشون. مرّوا بقرى قريبة، فتجاوزها وهو يشير لهما برأسه أن: لا.

فالقرى القريبة جارة لذكرين، وهو لا يأخذ ممَّا يمتلكه جار، وهو أفهمهما هذا، والذي أوَّله شرط آخره رضى، كما يقول المثل.

حملوا معهما سعنين جلديَّين ملأوهما ماء، وأرغفة خبز في صُرّة، واتَّكلوا على اللَّه.. وها هم في يومهم الرابع، تلوح لهم قرية تمتدّ بيوتها في سهل منبسط، لم تطأها أقدام التوأمين من قبل.

قعدوا غير بعيد عن البيوت في طرف القرية، وبدوا كأنّهم يرتاحون، في حين أشار لهما إلى بيت مطليّة بوابته الواسعة بالأبيض.

رأوا امرأة تهشُّ على قطيع أبقار، ثمَّ تسبقه وتفتح البوابة وتدخله.

قال لهما:

عددت الأبقار.. ستة رؤوس يا عبد.. أنت وأخوك.

كلّ واحد منهما يبدأ اسمه بعبد، وهو يخاطب أيّ واحد منهما هكذا، دون أن يحدِّد أيّ عبد منهما.

رأوا الفلَّاحين يعودون من حقولهم، فنهض، ثمَّ مشى على طريق ترابيّ، وظلَّ يمشي دون أن يلتفت خلفه، وهما يتقافزان وراءه، إلى أن توقَّف قرب صخور تنبثق من الأرض، وتبدو موقعًا مناسبًا للاختفاء، فالتفت حواليه، ثمَّ قرفص بينها وكأنَّه يقضي حاجة، مومئًا لهما أن يقعدا ويتواريا.

زحف أحدهما، وهمس سائلًا:

هل سنكمن هنا يا عمّ سلمان؟

أيْوه.. إلى ما بعد مغيب الشمس، وبعد صلاة العشاء. انظرا القمر سيكون بدرًا الليلة، وسيضيء كلّ شيء. سنتسلَّل إلى القرية، ولن يميِّزنا أحد، فلن نبدو غرباء، فهناك من يعودون للقرية لأنَّهم كانوا خطَّارا. سيقفز واحد منكما عن الحائط، ويفتح البوابة، ويسوق رأسين.. لا يهمّ بقرتين، أو ثورين.. لا أكثر! فنحن لن نسرق القطيع.

تساءل أحدهما:

و.. لماذا لا نسوق القطيع كلّه يا عمّ سلمان؟

فاجأهما بحزم:

حرام.. وعيب.. فماذا سيبقى لأصحاب القطيع؟ لا.. لن نفعل..أيْوه؟

هزّا رأسيهما بغير رضى، وبدون اعتراض، فهما يعرفان أنَّ العمّ سلمان لن يسمح لهما بفعل شيء لا يرضيه.

لم يميِّز مَنْ منهما الذي اقترب منه، وأومأ له بأنَّه جاهز للقفز عن الحائط، ولكنَّ سلمان شبك راحتيه، وجعله يضع قدمه بينهما، ثمَّ يتعربش بطرف الحائط، ويلوِّح عليه كما لو أنَّه بهيمة يمتطيها، ثمَّ يتدلَّى من الجهة الأخرى، وما هي إلّا لحظات حتى يفتح البوابة ويخرج أمامه رأسيْ بقر.. و.. يلاّ يا جماعة طيروا.. ويسوقون الرأسين، ويمضون على طريق ترابيّ شاحب مضاء بنور القمر المتربّع مستديرًا في سماء صافية، تتلامع نجومهما بخفوت يكسفه نور القمر المكتمل.

وجف قلب سلمان عندما تناهى إلى سمعه صوت لاهث متقطِّع ملتاع:

وقْفوا لي.. وقْفوا يا أزلام.. جاه الله عليكم توقَّفوا.

توقَّف الثلاثة، وحاولوا التأكُّد من الصوت والجهة التي يأتي منها، فرأوا ظلًّا يركض، ولهاثه يقترب ويقترب، وهم في حالة دهشة من هذا الذي يصرخ وحيدًا

ويركض مرسلًا صوتًا متوسِّلًا.

اقترب صاحب الصوت، فإذا بها امرأة. توقَّفت قربهم، وهي تلهث، ونَفَسها يكاد ينقطع:

طنيبة عليكم يا أخوتي.. في عرضكم.. أنا مثل خواتكم. جوزي يشكّ بي...

وتوجَّهت إلى سلمان:

جوزي يا أخي يشكّ بي.. فإن سرقتم البقرتين، فسيتَّهمني في عرضي، وسيفضحني بتهمة أنَّني أعطيتها لعشيقي، وأنا واللّه شريفة وبنت ناس، وجوزي عقله زغير وناقص. أستروا عرضي، وردُّوا البقرتين..وصونوا شرف أهلي في البلد.

اقترب أحدهما من سلمان، وهمس في أذنه:

خلّينا انبغيها ونقتلها.. ونمشي.. وما حدا شاف، وما حدا دري يا عمّ سلمان.

سأله سلمان:

هيك رأيك يا عبد؟!

آ.. يا عم سلمان.. فرصة جاءت لعندنا.. شو قلت؟!

أخرج سلمان طبنجته وسدَّدها إلى رأس الواقف أمامه، وصاح به:

يا عديم الشرف. المرأة تنتخي بنا، وأنت تريد هتك عرضها يا ناقص.. يا حرامي.. يا نذل. واللّه إذا لم تهرب أنت وشقيقك لأقتلكما حالًا وأترككما للكلاب.. يلّا من قدامي.. يلّا.. عليَّ الطلاق، سأقتلكما إن لم تختفيا من أمامي حالًا.

ركضا مبتعدين عندما سمعا جلبة قادمة من جهة القرية.

طلب سلمان من المرأة أن تصعد على ركبته، وهو مقرفص، وتركب على إحدى البقرتين، وتعود ببقرتيها إلى بيتها وأهلها. أراد أن يهرب عندما رأى حشدًا يقترب، فطمأنته:

لا.. لا تهرب يا أخي.. فأنت سترت عرضي، وأعدت البقرتين، وكدت تقتل من كانا معك.. واللّه ما ابتهرب.

اندفع رجال الحشد وهم يلوِّحون بالعصيّ والفؤوس، هامّين أن يهجموا على سلمان، فوقفت بينه وبينهم، وفردت ذراعيها وصاحت بهم:

لا: هذا الزلمة حمى عرضكم، فقد كان معه اثنان أرادا أن يهتكا عرضي، فسحب عليهما طبنجته وكاد يقتلهما، ولكنَّهما هربا...

التفّوا حول سلمان الذي وقف هادئًا، ثمَّ أخذوا يحيُّونه، ويتأمَّلونه، فقال لهم:

شوفوا يا جماعة: حُرْمتكم رجعت بالحفظ والصوْن، وحلالها رجع لها، وأنا عملت بأصلي.. فاسمحوا لي بأن أواصل طريقي، ويا دار ما دخلك شرّ.

قال أحدهم ، وبدا أنَّه وجيههم:

لأ.. ما حزرت يا رجل. أنت صنت شرفنا، وحميت عرضنا، فأنت الآن ضيفنا، وستبقى عندنا بحسب الأصول: ثلاثة أيّام وثلث، وبعدين تذهب لأهلك. احنا مش

همل، وأنت لا تقبلها لسمعتنا.

مشى سلمان معهم، وبدوا تحت القمر، وقد هدأت أصواتهم، وكأنَّهم خطّار يعودون إلى قريتهم بعد أن قضوا حاجاتهم، بينما سارت المرأة بمحاذاته كأنَّه قريب لها تأتنس به.

ثلاثة أيّام وثلث، كما هي العادة، احتفوا به، واعتبروه ضيفًا عزيزًا، ينام في المضافة، ويأتونه بإفطاره وغدائه وعشائه، ويسهر الرجال معه في المضافة ليلًا، وفي النهار عندما يتجوَّل حول القرية يحيّونه هاشّين باشّين عرفانًا بجميله.. هو الذي ستر عرضهم، وأنقذ شرف ابنتهم، فالقرية كلّها، وليس حمولة البنت وزوجها، اعتبرت أنَّ الرجل القادم من قضاء الخليل تفضّل عليهم جميعًا، وصان سمعة قريتهم.

في اليوم الثاني لاستضافة سلمان، عاد زوج المرأة، وعندما علم بما جرى توجَّه إلى المضافة، وأخذ سلمان بالحضن، ثمَّ عرّفه بنفسه، وخاطبه وهو يتأمَّله:

أنت أخي من هذا اليوم، وقد علمت أنَّك آخيت حرمتي، فأنا وهي أخوة لك، وسيبقى فضلك على رأسي طيلة ما أنا حيّ.

صبيحة اليوم الرابع يكتمل تمام الضيافة، وفيه يُسأل الضيف عن حاجته، أو يمضي في حال سبيله، وسلمان لن يسأل عن حاجته، فهو أَكْرَمَ أهل القرية بستر عرضهم، وهم ردُّوا معروفه بما غمروه به من كرم وودّ، وها هو يستيقظ في الفجر ويتوضَّأ ويصلّي، وينتظر طلوع الشمس ليودِّع مستضيفيه، ويأخذ وجهته إلى ذكرين.

جاءت المرأة، والتي بات يعرف اسمها: مريم، وزوجها مصطفى، تحمل على رأسها طبقًا عليه صحون الإفطار، والرجل يتقدَّمها متباهيًا، فوجدا سلمان مستيقظًا، ومتهيِّئا للرحيل.

صبَّحا عليه، ووضعا الطبق أمامه، والتفّا معه حول الطبق، قال مصطفى:

سنفطر معك، ليكون بيننا عيش وملح.

ابتسم سلمان في وجهه، وهو يشيح عن وجه مريم:

وأخوة إن شاء الله.

تنهَّد مصطفى:

نعرف أنَّك ستغادرنا اليوم، ولكنَّك ستعدنا بأن تزورنا، فلك هنا أخ..

وأشار لزوجته، وأضاف:

وأخت...

هزّ سلمان رأسه:

إن كان في الدنيا خير، وفيها خير إن شاء الله، فالخير لا يضيع يا أخي مصطفى.. وأنتما لا بدّ أن تزورونا في ذكرين، فهناك لكم أخ وأهل.

أمام المضافة، ظهر عدد من الرجال. مسح سلمان يديه:

الحمد لله على هذه النعمة، وعلى ما جرى معي.. ولي، فالخاتمة كانت خيرًا.

نهض، فنهض مصطفى وامرأته. احتضن سلمان الرجل:

الضيافة ثلاثة أيّام وثلث، وأنتم غمرتموني بكرمكم، وأنا في عنقي ديْن لكم. عرفتم اسم قريتي، واسمي، واسم حمولتي.. سأنتظر زيارتكم.. أنت يا أخي مصطفى

ومعك أختي مريم، وأيّ واحد من قريتكم.

في الخارج، وقف بانتظاره عدد من الرجال ومعهم حمار عليه خرج، وخروف مربوط بحبل. قال له أكبرهم:

قصَّرنا معك، فاعذرنا. لك جميل علينا كلّنا، هذه هدية مش قدّ المقام. هذا الخرج فيه جوز ولوز. وهذا الخروف ذبيحة لك تأكله مع أهلك.. واستر أيّ تقصير منّا.

نقّل نظره بين وجوههم، ثمَّ عانق مصطفى:

إذا كسبت شيئًا في حياتي، فهي معرفتي بكم يا جماعة. غمرتموني بكرمكم. لقد صرنا أهلًا وأقارب. سبحان الله كيف بدأت الأمور، وكيف انتهت بخاتمة كلّها خير.

مدّ يده ليمسك برسن الحمار، ولكنْ عدّة أصوات ارتفعت:

لا.. سنودِّعك حتى آخر أرض قريتنا، ومن بعدها مع السلامة.

رأى رجالًا ونساء يسرحون إلى حقولهم، فتذكَّر شقيقه مرشد: أنت الآن في حقلك مثل هؤلاء يا أخي.. وأنا! هذه ستكون آخر مرَّة. توبة يا أخي، فقد أكرمني الله بخاتمة كالمسك، والحمد لله على نعمة الستر، وحفظ الكرامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما لو أنَّه بائع متجوِّل مرّ بالقرى، وارتاح فيها دون قلق في وضح النهار. وفي الليل، آوى في القرى التي مرّ بها، وسار مطمئنًا حتى لاحت له ذكرين، فخفق قلبه، فقد انبثق في صدره شوق ولهفة لرؤية فاطمة ومرشد وابنه محمود وذوابة وعبد الرحمن وآمنة، وحليمة.. وابنه أحمد، وكرْم مرشد، وموارس أرضهم، وخرّوب ذكرين، وسماع هديل حمامها الذي يهيِّج الحنين والحزن والذكريات، وماء ذكرين الذي يردّ الرّوح.

ها هو مرشد ينحني على الأرض، ثمَّ ينصب قامته، مجيلًا نظره في الأرجاء، كما خبر حركاته.

لبث مرشد واقفًا، بينما سلمان يقترب منه. طوَّح مرشد بما في يده، ثمَّ اندفع فاتحًا ذراعيه لسلمان:

طوّلت الغيبة يا أخي، وولدا صفيّة لم يطمئناني بكلمة طيِّبة حين رأيتهما، بل أقلقاني عليك، وطيَّرا النوم من عينيّ. ولقد انتويت لهما نيّة سوء لو تأخَّرت أيَّاما أخرى، فقد هجست بأنّهما فعلا شرًّا بك.

تأمَّل مرشد الحمار والخرج والخروف، وبانت في عينيه نظرة استغراب. جلس سلمان، وجلس مرشد قبالته.

هذا الخروف لحمه حلال، ولذا ستأكل منه وأنت مطمئنّ.

ضحك مرشد، فبدأ سلمان في قصّ ما جرى معه، ومرشد يتأمَّله بذهول، ثمَّ ليفاجئه بالتساؤل:

أما آن يا أخي أن...

أومأ سلمان موافقًا على تساؤل مرشد:

أي والله آن الأوان. خلاص يا ابن والدي، فالمرَّة جاءت العواقب سليمة، ثمَّ أنا كبرت، ومللت، وأريد أن أرتاح.

نهضا، واتَّجها إلى البيت، فمرشد رأى أنَّ ما اشتغله اليوم كاف، وهو يريد أن تجتمع العائلة كلّها حول سلمان، وتفرح بعودته.

حملت فاطمة الأرغفة الملفوفة بقطعة قماش، والبيض المشويّ في صحن فخّاري كبير، وحملت ذوابة صحن الزيت بيد وصحن الزيتون بيدها الثانية، ثمَّ اتّكلن على الله، ومضين عبر الشارع، وعند نهايته انفتح أمامهنّ مشهد البيادر الخالية إلّا من بيت الشَّعر الذي أقامه الدراويش.

مضين متئدات وهنَّ يحملن الفطور لرجال الله بين أيديهن بحرص، وخلفهن آمنة وحليمة التي تحمل محمود في حضنها، وعندما بتن على مقربة من بيت الشَّعر، رفعت فاطمة صوتها:

يا شيخ علي، يا أهل الله، يصبّحكم بالخير.

كانت الشمس قد ارتفعت، وغطاء مدخل بيت الشَّعر مسدل، والسكون يسود وكأنَّه لا أحد في الداخل.

ارتفعت الستارة، وظهر الشيخ علي بقامته القصيرة، وبعمامته التي تبدو كبيرة وثقيلة على رأسه، والتي تمنحه مهابة.

أتعبتنَّ أنفسكنَّ يا مباركات. بارك الله بكنّ، وأعاد غائبكنَّ، وفكّ كربتكنَّ بجاه نبيِّنا الحبيب محمّد.

اندفع شاب من الداخل، ورفع راحة يده إلى جبينه وهو يغضّ نظره، وصبّح عليهنَّ، ومدّ يديه وتناول منهنّ بعض ما يحملن، وتحت الأغطية تحرّك النائمون، وغطّوا رؤوسهم، فنهرهم الشيخ علي:

استيقظوا أيُّها النوّام. ما فاز قوم ينامون إلى ما بعد طلوع الشمس. هيا اطردوا الشياطين عن وجوهكم، وتعالوا لنتناول ما تفضَّلت به النسوة المباركات.. هيّا.

ثمَّ، متوجهًا إلى النسوة اللواتي وقفن حائرات، غير عارفات ما يفعلن:

لقد تعبوا، فأجسادهم ترهق في النوبة، وقرع الدفوف، والصنج، ولكنَّ أرواحهم والحمد لله نشيطة. إنَّهم فتيان يحبّون الله، ويخلصون في عبادته.

رُصّت الصحون، وفردت أرغفة الخبز، واجتمع المشايخ، وسمّوا باسم الله، بينما أيديهم تتناوش الأرغفة والبيض المشويّ والزيت والزيتون الرصيص الذي أعدته المرأتان من زيتونهما.

بعد أن ازدرد الشيخ علي لقمات متلاحقة، توقَّف عن المضغ ورفع وجهه، وعيناه تنظران بشكل مائل، بحيث لا يلتقي نظره بنظر الحريم:

عندكنّ كلام يا شيخة ذوابة.

نكتت ذوابة الأرض بعود صغير:

يا سيِّدنا الشيخ علي: أخونا أحمد راح إلى السفر برلك ولم يعد. عاد كثيرون من أهل البلد، وهو لم يعد...

قاطعتها فاطمة:

ونحن يا حسرتي لا ندري، أهو...

بصوت يتهدّج قالت ذوابة:

نحن أربع أخوات. مالنا سوى أحمد بعد اللَّه، ومنذ اقتياده للسفر برلك انقطعت أخباره، ولا ندري عنه شيئًا، فماذا نفعل يا شيخ علي؟

هممممممم...

همهم الشيخ علي ولم يقل شيئًا، وانهمك في فرك يديه، وأغمض عينيه، ثمَّ تمتم بكلام لم تستبن منه فاطمة وذوابة شيئًا.

غاص في الصمت والتمتمة، ثمَّ بعد لأي فتح عينيه وبدأ يتكلَّم ببطء:

إذا كان حيًّا فسيعود إن شاء اللَّه. وإن كان...

قاطعتاه بصوت واحد، وعبارة واحدة:

بعيد الشرّ...

فرك يديه من جديد كأنَّه يعصرهما:

الموت حقّ، وهو بإرادة اللَّه، وكلّ إنسان نهايته الموت مهما امتدّ به العمر.. وهو إن شاء اللَّه حيّ.. فالصبر.. الصبر، فكم غائب عاد رغم انقطاع الرجاء!

فرغ الرجال من تناول فطورهم، فجمعوا الصحون ووضعوها قرب المرأتين، وأبقوا ما زاد من الخبز والبيض وهم يلهجون بالدعاء: أن يمنّ اللَّه عليهما براحة البال، ويردَّ الغائب العزيز إليهما، فهو القادر على كلّ شيء.

برؤوس أصابع راحته اليمنى، تلمّس الشيخ علي جبينه وفركه بلطف، وبدا كأنَّه يستلّ شيئًا ما من جبينه الضيّق المستدير، من فوق حاجبيه الكثيفيّ الشعر، واللّذين يزيدانه مهابة مع لحيته التي يكاد فمه يختفي تحت شعرها.

اسمعا يا أُختيَّ: أقترح أن تنشئا قبرًا لشقيقكما...

هنا فتحتا فميهما بدهشة، ولكنَّه واصل بعد أن توقَّف قليلًا متوقِّعًا اندهاشهما، واستأنف كلامه:

فإن كان ميِّتًا في الغربة، فإنَّ روحه لن تبقى مشرَّدة في ديار الغربة وستعود إلى ذكرين لترتاح قرب أهلها، ولتقرّ بعد طول تشرُّد، وإن كان حيًّا، وإن شاء اللَّه يكون حيًّا، فإنَّه سيعود إليكنَّ، وبعد عمر طويل يدفن في القبر الذي أعدّ لاستقبال بدنه. ستزوران القبر باستمرار وتقرآن لروحه الفاتحة، وتترحَّمان عليه، والرحمة تجوز على الحيّ كما على الميِّت.

نهضت المرأتان وانحنتا الواحدة بعد الأخرى، وباستا عمامته، وهما تلهجان بالدعاء أن يباركه اللَّه ويمدّ في عمره، ويريحه كما أراحهما.

نهض الشيخ علي وراقبهما وهما تبتعدان، وخلفهما أختاهما الصغيرتان، وكأنَّما يكلِّم نفسه بينما يتحلَّق حوله رجاله:

الفقدان صعب، والناس أتعبتها الحرب التي اختطفت الأعزاء وضيَّعتهم. لا حول ولا قوة إلّا باللَّه.

التفت حواليه، وواصل:

اللهمّ اهدنا إلى فعل الخير يا رب.

فردَّد المشايخ الشباب بعده:

اللَّهم آمين.. اللَّهم آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولأنَّهما لم ترميا نصيحة الشيخ علي في بئر خاربة، كما يقول المثل، فقد كلّفتا من يحفر قبرًا، ليكون قبرًا لشقيقهما الغائب أحمد.

وهكذا، صرن يزرن القبر كلّ يوم خميس. تعدّان الفطائر بالزيت، وتوزِّعانها على الأولاد، والفقراء، والمارّة، ليقرأوا الفاتحة لروح المرحوم إن كان ميِّتًا، وليدعوا الله أن يعيده بالسلامة إن كان حيًّا.

تساءل سلمان، وهو يجلس مع شقيقه في الكرم، بعد أن شاهدا القبر الذي اكتمل إنشاؤه، والذي لا ميّت فيه:

كأنَّ فاطمة وذوابة فقدتا عقليهما. كيف يكون للغائب قبر، ونحن لا نعلم إن كان حيًّا أم ميتًا؟!

مرشد ضحك، ثمَّ صفن، وتنهَّد:

الفاقد يا ابن والدي لا يفكِّر بعقله. الفاقد ملهوف، وهو يتمنَّى، حتى لو كان متأكِّدًا من أنَّ ما يتمنَّاه لن يحصل عليه. لندعهما تفعلان ما تريدان، ولنرح أنفسنا ممَّا تفعلان.

ضحك سلمان، وضرب كفًّا بكفّ:

الدراويش سوسة يا مرشد، فهم يزيِّنون لهما ما تفعلان، والمهمّ عندهم بطونهم: فراريج محمَّرة، وبيض مشوي، وخبز طابون، وزيت وزيتون.. نعمة يتنعَّم بها هؤلاء الذين يعيشون من دقّ الطبول، وقرع الكؤوس.

ضحك مرشد:

أنا.. المهمّ عندي أن تخفّ ذوابة عن ظهري...

تأمَّله سلمان:

وأنا ظهري لم يعد يحتمل يا ابن والدي.. فلتفعل فاطمة ما تريد، ما دام لا يؤذي.

يضحك مرشد وهو يردِّد:

قبر ليس فيه ميّت!.. آخر زمن يا سلمان.. فليفعلنَّ ما يريحهنَّ.

عندما نهض سلمان ومشى خطوات، وغادر الكرم، رأى ذوابة وفاطمة وخلفهما أختاهما، وهن يتَّجهن لزيارة القبر.

ارتفع صوت سلمان مناديًا:

مرشد.. يا مرشد. تعال وانظر...

وقف مرشد قرب سلمان، وتأمَّل معه مشهد النسوة وهن يتوجَّهن لزيارة قبر شقيقهنّ، فشعرا بالحزن على الغائب الذي لن يعود، وعلى أخواته المتشبِّثات بأمل يعزِّيهما.

ناداه من البوّابة.. وانتظر، فظهر أحمد وهو يلفّ كوفيَّته حول طاقيَّته، وإذ لمح والده عجّل باتّجاهه، وأهوى على يده مقبلًا، ثمَّ باسه في جبينه، بينما والده يترضَّى عليه بصوت واهن، ليس هو صوته المعتاد.

تعال نتمشى صوب كرم عمّك مرشد...

أغلق البوابة ومشى محاذيًا والده الذي أخذ في الفترة الأخيرة يتوكَّأ على عصا لها عقفة يلفّ حولها راحة يده.

أشار والده إلى كرم عمّه مرشد، من دون أن يفصح عمّا يضمره.

حاول أحمد أن يخمِّن ما يخفيه والده عنه، وما يريد أن يفاجئه به، وتساءل: لماذا الذهاب إلى عمّي مرشد؟

خطوات والده قصيرة، وبدنه يرتجف وهو يتَّكئ ببدنه على عصاه التي يحفظ توازنه بالاستناد عليها، وفي وجهه عتمة وتعب.

توقَّف والده عند بوابة الكرم، ودفعها برأس العصا، وانسرب منها، ولم يقل شيئًا لأحمد الذي تبعه دون تساؤل.

اتَّكأ على عصاه، ودار بنظره في أرجاء الكرم إلى أن ظهر مرشد من بين الأشجار، وصوته يرحِّب:

يا أهلًا بك يا أخي.. يا أهلًا.

وإذ اقترب انحنى على يده ليقبِّلها، فسحب سلمان يده بسرعة، وأمال صدره ورأسه على مرشد، بينما مرشد يضمّه ويحيط بدنه بذراعيه، ويتشمَّم رائحته، وهو يتمتم:

يا أهلًا بك يا أخي ونور عيني...

كان مرشد قد سوّى الأرض تحت تينتين، وأزال منها أي حصاة مهما صغرت، ورشّها بالماء، فصارت كأنَّها مسطبة.

ترك سلمان عصاه تسقط على الأرض، فعجّل أحمد بالإمساك به من جانب ومرشد من الجانب الآخر، وأعاناه على الهبوط على الأرض، فتنهَّد، ثمَّ مدّ ساقيه، وأسند ظهره إلى ساق شجرة التين.

أحضر مرشد إبريق الماء، وناوله لأخيه الذي رفعه بيد مرتعشة، وأسال الماء ليسقط في فمه دون أن يمسّ بشفتيه فم الإبريق.

الحمد للَّه. لا أظنّ أنَّ ماء في كلّ قرى قضاء الخليل يشبه ماء ذكرين.. إنَّه نعمة.. أي واللَّه نعمة.

وتساءل:

أكان أجدادنا سيقيمون في ذكرين لولا وجود هذا الماء؟!

وأجاب:

- لا أظن، فهذا المكان بدون آبار وماء ذكرين ما كان ليصلح للإقامة.

انتظر مرشد أن يسمع من أخيه السبب الذي حداه للقدوم مع ابنه أحمد، وظل أحمد صامتًا، وهو ينقل نظره بين والده وعمّه.

تنحنح سلمان:

يا أخي مرشد أنا تعبان، وعشت عمرًا مديدًا، حتى إنَّني لا أعرف كم عمري، لكنَّني أكثر من ثمانين عامًا. وأنا واللَّه زهقت من الدنيا...

هنا قاطعه أحمد:

اللَّه يمدّ في عمرك يابا، وتشوف وتربِّي أولاد أخي محمود وأولادي...

ربَّت والده على ظهره:

اللَّه يخلّيكم لبعضكم يا ولدي.

توجَّه لمرشد وهو يضع راحته على ظهره:

أنا يا مرشد أريد أن أقسِّم حصّتي في الأرض بين أحمد ومحمود قبل ما أموت، وحتى ما يتعبوك بعدي.

ثمَّ أضاف:

سأعطي الأرض الجنوبيَّة لأحمد، والأرض المحاذية لأرضك من جهة الشمال لمحمود. المارس الذي تحرثه لك ولابنك عبد الرحمن، حتى ما يطمع أحمد ومحمود. أرض أحمد أكبر من أرض محمود.. أكبر بكثير، لأنَّه متزوِّج، وامرأته حامل، ومحمود ستورثه أمّه حصّتها من أرضها مع أخواتها. أحمد أيضًا سيأخذ البيت المجاور لكرْمك، ومعه قطعة الأرض المحيطة به، وهي لا تقلّ عن دنمين، وهي حاكورة يزرع فيها الخضار لأسرته، وهكذا أكون قد أنصفته وزيادة.

توجَّه بالسؤال لشقيقه:

أنت ما رأيك يا أخي؟

هل أعترض على ما تريده أنت يا أخي؟ هذا عدل، ولو أنَّني أتوقَّع أن تعترض فاطمة، فحصّة محمود أصغر كثيرًا من حصّة أحمد.

ابتسم سلمان، وحكّ جبينه بإصبعه الشاهد:

البركة بك وبذوابة.. فعليكم إقناعها. وأنا سأطلب منها أن تراعي أحمد حتى تبقى علاقة الأخوة بين أحمد ومحمود قويَّة.

عين العقل يا أخي.. عين العقل.

نهض مرشد، وحمل صحنًا فخاريًّا، ومضى بين أشجار التين، وملأه من التين السوّاديّ والخضاريّ والشحاميّ والسباعيّ، ثمَّ عاد ووضعه أمام سلمان.

خير السنة.. الموسم في أوَّله. المثل يقول: أوَّل الثمار تطيل الأعمار.. اللَّه يطوّل بعمرك يا أخي.

ضحك سلمان:

أوَّل الثمار تطيل الأعمار.. أنا شو بدّي بطولة العمر يا مرشد؟!

مدّ سلمان يده بحبّة تين لأحمد، وسأله:

أآنت راض عن القسمة يا بنيّ؟

أنا يا والدي أرضى بما تريد، ولا أريد المزيد، فلن أكون طمَّاعًا..ومحمود أخي يابا.

قال أحمد لنفسه وهو يتأمَّل تقاطيع وجه والده: لو أنَّك يا والدي لم تتزوَّج لآلت كلّ الأرض لي، ولكنَّك تزوَّجت من فاطمة. أستغفر الله من الوسواس الخنّاس: محمود أخي، وبعد غياب أخي محمّد ها هو الله قد عوَّضني بأخ. الأرض التي وهبتني إيّاها يا أبي تكفيني أنا وعائلتي، حتى لو أنجبت المزيد.. أنا راض.. ولكن لو أنَّك لم تتزوَّج!

نبَّهه والده:

اذهب إلى بيتك وعيلتك يا أحمد، فأنا سأتمدَّد في البَرَاد، فروحي لا تطيق الحشرة في البيت.

أحضر له مرشد عباءته وفَرَدها بجواره، فتمدَّد سلمان عليها، ووضع يده تحت رأسه، وأغمض عينيه، بينما عاد مرشد ليجوس بين أشجار التين والزيتون ودوالي العنب، متأمِّلًا كلّ شجرة كأنَّه يتفقَّد ما تحتاجه من عناية!

بعد أن فرد عباءته حول بدنه، وانتعل بلغته، اقتربت منه ذوابة، وبصوت منخفض همست في أذنه:

سايسه يا مرشد، فهو لا يحبُّك أنت وسلمان.

التفت نحوها، وربَّت على كتفها:

اللَّه يعينني على تحمُّل هالزلمة.

اتَّجه إلى البوابة بخطى بطيئة. فتح البوابة، وحين التفت رأى ذوابة تقف وهي تتطلَّع صوبه، فهزّ رأسه ليطمئنها على نجاح مهمَّته التي يذهب لها ممتعض النَّفس، ولكنَّه مضطرّ.. فابنه عبد الرحمن أبلغ، ولا بدّ من تزويجه، وهو ابنه الوحيد الغالي الذي طلع به من الدنيا.

تساءل وهو يغلق البوابة وراءه: ما سرّ أنَّ ذوابة وفاطمة لم تنجب واحدتهما سوى ولد واحد؟ يا ليتهما أنجبتا ولو بنتًا كلّ واحدة، فهما ستريّحانهما في شغل البيت.

استغفر اللَّه واتّكل، ومضى عابرًا أزقّة القرية حتى بلغ بيت قريبه أبو محمّد. خبَّط على البوابة بجماع قبضته حتى كاد يكسر بعض خشبها، فارتفع صوت من جوف البيت:

أيْوه ...

فُتحت البوابة. ما إن رآه أبو محمّد حتى التقط يده، وهزّها:

أهلًا يا عمّ مرشد.. تفضَّل.. البيت بيتك يا عمّ.

على المصطبة، فُرشت فرشتان، ووُضعت الوسائد في منتصفهما. كانت القهوة معدّة في بكرج نحاسيّ كبير مغروس في الموقدة بين الجمر.

اتَّخذ مرشد مجلسه، فجلس أبو محمّد وجهًا لوجه، وصبَّ القهوة، وقدَّم الفنجان لمرشد:

وضع مرشد الفنجان أمامه، وحدَّق طويلًا في العينين الزرقاوين اللتين لا يحبَّهما، لما فيهما من دهاء غير مألوف في العائلة، وفي نفسه قال: أنا، لا أرتاح لهذا الرجل، فهو أشقر وعيناه زرقاوان، وهو ورث كلّ شيء فيه عن أمّه التي جلبها والده من قرية قريبة من البحر. والده ابن عمّنا، غفر اللَّه له، رغب فيها وتزوَّجها لأنَّها شقراء، ودفع مهرًا قيل إنَّه بلغ عشر ذهبيّات رشاديّة.

أنت تعرف أنَّني حضرت اليوم لأخطب مليحة لعبد الرحمن، وأنَّنا أهل، فوالدك ابن عمنا، وأنت بمثابة ابن أخ لي ولسلمان.. ومنّا وفينا.

هزّ أبو محمّد رأسه مؤمنًا على كلام مرشد.

نحن نريد مليحة لعبد الرحمن.. فماذا تقول؟

تنهّد أبو محمّد، ومرَّر يده على وجهه المدوّر الأشقر:

وأنا، لي عندكم طلب يا عمّ مرشد.

اطلب...

قال وهو يفرك راحتيه:

بدّي آمنة مقابل مليحة.

تساءل مرشد:

يعني زواج بدل؟!

يسلم لسانك: بدل.. فأنا لا مال عندي، وأنت تعرف أنَّ زوجتي مشلولة، وليس لي من يعينني، ويخدمني، وابني الكبير محمّد تزوَّج وانتقل ليعيش وحده.

كان مرشد يعرف من ذوابة أنَّ الزلمة سيطلب آمنة مقابل مليحة، فهزّ رأسه، ومدّ يده، وطوى يده في قبضته وشدَّ عليها وهزَّها:

ذوابة وفاطمة لن ترضيا بأن تخدم آمنة امرأتك المشلولة.

أعرف يا عمّ.. أعرف.

قال، وهو يفكِّر في آمنة الطويلة، البيضاء الوجه، والتي تشبه عود الخيزران. بنته صغيرة، ضئيلة الحجم، وقصيرة.. وآمنة:

يا طولك طول عود الزان لا مال

وشعرك أتعب الجدّال لا مال.....

ودّ لو يغنِّي بصوته الرخيم، فغنّى في عبّه كما يقال، وكاد يزغرد وهو يسمع كلمة مبروك من فم مرشد.

اللَّه يبارك فيك يا عم مرشد.

جذب يد مرشد، وأوحى أنَّه يهمّ بتقبيلها، ولكنَّ مرشد سحب يده:

نقرأ الفاتحة يا أبو محمّد على اتّفاقنا؟

بَسَطا يديهما، ومعًا تلوا الفاتحة، وتصافحا. قال مرشد:

نكسو لهما من الخليل مثل بعضهما، وهما تختاران ما تريدان.

نهض مرشد. لمح مليحة في حوش الدار، فناداها وهو يتأمَّلها؛ وإذ صارت قربه، توقَّفت ومدَّت يدها لتصافحه، وهي تنحني على يده التي لفَّها بطرف عباءته كي لا تنقض وضوءه:

بارك اللَّه لنا بكِ يا مليحة. أنت تعرفين ابني عبد الرحمن..سنزوِّجكما لبعض، وستكونين مرتاحة عندنا يا عمّ. ها: ماذا تقولين؟!

نظرت إلى أبيها، وكأنَّها تستفسر منه عن كلام العمّ مرشد، فابتسم لها، ولم يقل شيئًا.

بعد أن أغلق البوابة وراء مرشد، سألته:

يابا: من سيعتني بأمي، ويخدمها؟ أنت تعرف أنَّها تشخ وتخرى تحتها!

أختاك، حفيظة وسارة ستخدمانها.. وأنا أحتاج لمن يخدمني يا مليحة.

سقطت المكنسة من يدها عندما سمعت كلام والدها. اتَّجهت إلى أمّها الممدَّدة في الفراش على ظهرها. سحبت الخرق المبلَّلة كريهة الرائحة من تحتها، وكوَّمتها بعيدًا عنها، ثمَّ خلعت ثوبها عن بدنها وألبستها ثوبًا نظيفًا، وهي ساكتة.

سألتها أمّها:

أنتِ حزينة يا ابنتي، حتى إنَّك لم تصبِّحي عليّ! ماذا تخفين عنِّي يا حبّة عيني؟

همَّت أن تبوح لأمّها بما سمعته، وبزيارة العمّ مرشد، واتِّفاقه مع أبيها على تزويجها.. و.. زواج أبيها من آمنة، لكنَّها أجّلت الأمر، ففي الأيّام القادمة ستعرف أمّها بالمصيبة التي ستقع على رأسها، وكأنَّه لا يكفيها شللها.

سألت نفسها: أأقبل بعبد الرحمن؟ أنا لم أره سوى مرَّات قليلة. حاولت أن تستحضر ملامحه: طويل، عريض الكتفين، أسمر، عيناه!.. لا أعرف لون عينيه. وجدت نفسها تهمس وهي تحمل خرق أمّها وتضعها في وعاء الغسيل: آ.. ومالو.. لكنَّ أمّي.. من سيخدمها؟ أختاي صغيرتان.. وماذا ستفعل آمنة بأمّي؟ تكوَّمت لصق الجدار، وفاضت دموعها، فلمَّت جسدها، وكتمت بكاءها حتى لا تراها شقيقتاها، أو تسمع أمّها بكاءها.

وصل الفالوجي مع طلوع الشمس، وسأل عن بيت الشيخ رزق، فدلُّوه عليه. قرع البوابة، فجاءه صوت من الداخل، وانشقَّت البوابة عن وجه بلحية بيضاء كثيفة، وعينين فيهما ترحيب وتساؤل عن الحاجة.

شرح له مشكلة ابن أخيه محمود، الذي صار عمره سبعة أعوام، وما زالت ساقاه لا تحملانه، وهو يترنَّح في مشيته، ويقع بعد خطوات قليلة.

أدخله الشيخ، وأجلسه على المصطبة، واستأذنه قليلًا، ثمَّ عاد وقد وضع لفّة صفراء لطيفة حول رأسه. أمسك بإبريق وأسال ماء على يده اليمنى، ودعك وجهه، ثمَّ تمضمض، وجلس قبالة مرشد، وسأله كأنَّه لم يستوعب كلامه الذي قاله قبل قليل.

أعاد مرشد ما أخبره به، فتأمَّل الشيخ رزق وجه مرشد، وسأله:

من أين أنت يا...

مرشد.. من ذكرين.

ابتسم الشيخ:

قرية الماء البارد...

آ...

قال الشيخ:

إن شاء اللَّه خيرًا.

ثم بعد أن صمت قليلًا، وهو يسدِّد نظره إلى عينيْ مرشد:

أحتاج لعدّة أشهر، ربما ثلاثة أشهر، وربّما أكثر.

قال له مرشد:

على بركة اللَّه.

والنعم باللَّه. لي شروط، والذي أوَّله شرط آخره رضى.. كما يقول المثل.

ابتسم مرشد، وهو يتأمَّل وجهه:

أشرط، وكلّ شروطك مجابة، إن شاء اللَّه يا شيخ رزق.

ابتسم الشيخ برضى. رفع يده وبرم اللَّفَّة حول رأسه:

أنت تعرف اسمي، وإن شاء اللَّه ستعرف فعلي. الولد سيشفى بقدرة اللَّه، وببركة سيِّدنا الفالوجي، وشطارة يديَّ هاتين.

بسط راحتيه تحت نظر مرشد، وقلَّبهما، وكأنَّه يريده أن يستشفّ ما تحويانه من قدرة على إشفاء ابن أخيه.

آكل نفس طعام ابن أخيك نفسه، وأشرب الحليب معه.

طمأنه مرشد:

تكْرم يا شيخ. هذا ليس شرطًا، فأنت ستكون ضيفًا عزيزًا علينا.

عندما يشفى إن شاء الله: أحصل على كيسيْ قمح وخمسة جنيهات.

مدّ مرشد يده، وأمسك بيد الشيخ وهزها قليلًا بودّ:

أنت رجل مبارك يا شيخ رزق، وسمعتك وصلت لآخر الدنيا، وأنا جئتك طمعان في بركتك وكرمك: قمح تكرم، ما لي كلام، وتأكل من أكل محمود، وتشرب الحليب وتأكل البيض وخبز القمح من طابون والدته وخالته، والفراريج المحمَّرة في الطابون.. تِكْرم، بس خمسة جنيهات كثيرة علينا، وأنت تعرف الأحوال!

نهض الشيخ رزق، فنهض مرشد:

قبلت بثلاثة جنيهات مع كيسيْ القمح.

استدار الرجل، فتأمَّل مرشد ظهره، فتنبَّه إلى أنَّه محنيّ قليلًا، مع ميل للطول، وشعر شائب ينسدل من تحت العمامة على عنقه.

غاب الشيخ قليلًا، وظهر حاملًا بقجة تحت إبطه. أغلق الباب، ثمَّ وقف قليلًا يتأمَّل الحوش:

يلَّا يا ذكريني، لنتَّكل على اللَّه ونمشي.

ودّ مرشد لو يسأله: أليست لك أسرة يا شيخ! لكنَّه أجَّل السؤال.

عرض عليه أن يمتطي الحمار، وهو يمسك برسنه، فابتسم الشيخ:

لم نتعب بعد، والمشي مفيد يا مرشد، فهو يقوِّي البدن، ولاسيَّما الرِجْلين، فلنمش، وعندما أتعب سأركب، والمسافة بين الفالوجي وذكرين قريبة.

كانت الشمس قد ارتفعت، والحركة دبّت في أزقّة البلد، وإلى ضريح السيِّد الفالوجي كان يتوافد زوّار، عرفهم مرشد من اللّهفة البادية عليهم، وهم يغذّون السير صوب الضَّريح. قرأ الفاتحة لروح السيِّد الفالوجي، ومسح وجهه، ودعا ببركة الفالوجي أن يوفق الله الشيخ رزق ويشفي ابن شقيقه على يديه.

في الطريق، توقَّفا واستظلا بشجرة خروب، ثمَّ استأنفا سيرهما. مرشد يمشي بجوار الشيخ، بينما يده تمسك برسن الحمار الذي سار نشيطًا خفيفًا، والشيخ يتأمَّل كلّ ما يقع تحت نظره، وكأنَّه يراه لأوَّل مرّة.

قطع مرشد الصمت:

يا شيخ، بلا ثقلة عليك، كأنَّك تعيش وحدك!

ابتسم الشيخ، وهو يلوي رأسه، ويخفِّف من سرعته:

نعم، أنا أعيش وحدي.

ثم لاذ بالصمت، ونظر أمامه بعيدًا، ولم يكمِّل كلامه، فتركه مرشد وشأنه حتى لا يثقل عليه.

سلمان لا يعرف أنَّه حضر للفالوجي، وأنَّ فاطمة وذوابة ألحّتا عليه أن يزور الشيخ رزق الذي سمعتا عنه كثيرًا، ويحضره لعلاج محمود الذي تبدو ساقاه رخوتين لا تحملانه، رغم أنَّه تخطّى السبع سنوات.

الداية غضبت على فاطمة، فقد أذهلها أنّها كانت تنيِّم ابنها على جنبه، ولا تمرّج أطرافه وتجبِّدها، ولا تدهنها بالزيت، وهذا ما أورث الولد عِوَجًا في كتفه، لم يتخلَّص منه رغم كلّ ما بذلته الداية.

لو مشى محمود، وتحسَّنت صحّته، فستفرح فاطمة، وسلمان سيتخلَّص من الحزن الذي يبديه كلّما تكلّم على محمود بحسرة وقلق، خشية من أن يكبر وهو ضعيف البدن.

نبَّهه صوت الشيخ رزق:

كأنَّك قلق على ابن أخيك يا مرشد!

أي واللَّه يا شيخ رزق! فهو وحيد أمّه، وشقيقه اختفت أخباره في الحرب، ونحن خسرنا بعض أقاربنا. نحن بحاجة هذا الولد ليعوِّض أمّه عن شقيقها الذي اختفت أخباره، ووالده عن ابنه الذي راح وراحت أخباره.

التفت إليه الشيخ رزق، ومدّ يده ووضعها على كتفه:

اتّكل على اللَّه يا مرشد. قلبي يحدِّثني بأنَّه سيصير مثل الحصان بعد ثلاثة أشهر، إن شاء اللَّه.. ولا تقنطوا من رحمة اللَّه.

لاحت بيوت قرية ذكرين، فتأمَّلها مرشد وكأنَّه غاب عنها أيَّاما وليس بضعة نهار.

سرح نظر الشيخ رزق على بيوت وحقول ذكرين:

صار لي أكثر من سنتين ما شربت من ماء ذكرين الطيِّب.

ستتبارك بك ذكرين يا شيخ رزق...

دخلا القرية من جهة البيادر، ففوجئ مرشد برؤية سلمان الذي كان يتمشَّى في مدخل الشارع المؤدِّي إلى بيتهم، مركِّزًا نظره على الجهة التي ظهرا منها، وإذ اقتربا تهلَّل وجهه، وارتفع صوته مرحِّبًا بالشيخ رزق:

يا أهلًا وسهلًا...

ثمَّ متوجِّهًا لمرشد:

لماذا لم تخبرني يا أخي بسفرتك؟ سألت عنك، فأخبرتني ذوابة وفاطمة أنَّك رحت للفالوجي.

عانقه مرشد كأنَّه لم يره في الأمس، ثمَّ التفت للشيخ رزق:

هذا الشيخ المبارك رزق، وفي يده الشفاء لمحمود إن شاء اللَّه.

أمسك سلمان بيد الشيخ رزق:

إن شاء اللَّه يكون شفاء محمود على يديك يا شيخ. نحن بعد اللَّه، نتَّكل عليك يا مبارك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمود يتمدَّد على الفراش تحت العريشة، وأمّه وخالته تجلسان عند رأسه. غمزهما سلمان فقامتا، وابتعدتا قليلًا. انحنى الشيخ رزق على محمود، وأزاح اللِّحاف عن

ساقيه وأخذ يجسّهما، ويهزّهما، ويضرب عليهما برؤوس أصابعه.

بدن الولد ضعيف، يحتاج للغذاء. ساقاه نحيلتان، ولحمهما خفيف. أعطوني زيت زيتون.

أحضرت فاطمة صحنًا فيه زيت زيتون، فتناوله منها سلمان، وناوله للشيخ رزق الذي شمّر عن ذراعيه، وسمَّى بالله، وأخذ يمرِّر أصابعه المدهونة بالزيت على وركيْ محمود، وساقيه، وركبتيه، وأصابع قدميه، وباطن قدميه، ويفركها بلطف، ويهزّها قليلًا كأنَّه ينفض ما فيهما من وهن.

فاطمة وذوابة تردِّدان: يا الله، يا ربّ.. وسلمان ومرشد يتأمَّلان يديّ الشيخ رزق، آملين أن يمنّ الله بالشفاء على محمود، ببركة الشيخ رزق الفوالجي.

قعد الشيخ على الفراش، وأسند ظهره للجدار، ورفع نظره:

لا تهكلا الهمّ.. إن شاء الله في مدّة ثلاثة أشهر سيطارد مثل الحصان. أريد أن يأكل ليقوى بدنه.

قال سلمان:

الدجاج موجود، والحمام موجود، والبيض والسمن واللَّبن موجود.. وكلّ شيء بفضل الله موجود. أنت تأمرنا ونحن ننفِّذ، ولنبدأ من اليوم.

اتَّجه مرشد إلى قنّ الدجاج، فتبعته ذوابة حاملة سكين الذبح.

أسند الشيخ رزق ظهره إلى حائط البيت، وأغمض عينيه قليلًا، وبدأ كأنَّه يرغب في النوم، فتركوه ليرتاح، وانهمكت فاطمة وذوابة في إعداد طعام العشاء، بينما خرج سلمان ليتمشَّى حتى البيادر، أمّا محمود فكان يسترقّ النظر صوب الشيخ رزق، ويتمنَّى أن يشفى على يديه، حتى يركض مع الأولاد، ويلعب مثلهم، ولا يبقى مرميًا في الفراش كالخرقة.

بعد أن كان كالخرقة المبلولة، ما إن ترفعه أمَّه بين يديها حتى يرتخي ويسقط على الأرض، ها هو يقف على ساقيه وحده ويمشي من مصطبة الدار حتى بيت التبن، ويعود وحده دون أن يسنده أحد.

وقفت وظلَّلت عينيها وتأمَّلته، والفرحة تفيض على وجهها:

الحمد لك يا ربّ.. الحمد لك يا اللَّه.. جبرت بخاطري، وشفيت ابني.

كان الشيخ رزق يتأمَّله بعين الرضى، فهو، بعد اللَّه، من مكَّنه من الوقوف على حَيْله، والمشي، وسيمكِّنه من الركض بعد شهر من الزمن.

تطقطق ذوابة بحبّات سبحتها، وتشكر اللَّه على نعمة شفاء محمود. ركضت فاطمة إلى الفتى الذي بان طوله واحتضنته، وهي تلهج بالشكر للَّه، والدُّعاء للشيخ، الذي وجدها فرصة:

وإذا مرضت فهو يشفين.. صدق اللَّه العظيم.

ابتسم ابتسامة رضى على ما فعل:

كلّه بفضل اللَّه.. وما أنا إلّا وسيلة بما لديّ من علم.

قالت ذوابة:

بارك اللَّه بك، وزادك من فضله يا شيخ رزق.

أشار لمحمود الذي احتضنت أمّه رأسه، وانهمكت في تحسُّس فخذيه وركبتيه وساقيه، وعظام مشطيْ قدميه، أن يجلس فجلس، وكشف عن فخذيه، لينهمك الشيخ في تمسيد عضلات ساقيه بالزيت الدافئ، والضرب بلطف على ركبتيه وساقيه، وتجبيد أصابع قدميه.

وضعت فاطمة صينيَّة القشّ الملوَّنة، وعليها البيض المشويّ والزيت والزيتون والدبس والزبدة، والخبز الساخن الذي أخرجته للتوّ من الطابون:

تفضل يا شيخ رزق.. صحّة وعافية على بدنك، تستأهل أكثر واللَّه!

وهو يوارب نظره، متحاشيًا أن ينظر إلى وجه أمّ محمود:

شهر يا حاجة فاطمة.. وسترينه يركض في الشوارع.. وهات الحقي به!

يا رب.. اللَّه يسمع منك يا شيخ رزق. كلّه ببركات يديك المباركتين.

ارتفع صوت الحاجّة دلال:

دستور يا أهل الدار.

ردَّت فاطمة، وقد عرفت صوتها:

دستورك معك يا حاجة دلال.. تفضَّلي يا أختي.. الدار دارك.

بعد أن تعانقت المرأتان، صبّحت الحاجَّة دلال على الشيخ رزق، وما إن لمحت الشيخة ذوابة مغمضة العينين تسبِّح، حتى مضت إليها وانحنت لتبوس يدها، فتنبَّهت ذوابة:

استغفر الله يا حاجَّة دلال.

نحن نتبارك بك يا شيخة ذوابة.

ارتفع صوت الشيخ رزق:

ابنك محمود مشى اليوم يا حاجة دلال. مشى أكثر من أيّ يوم.

خبر يستحق زغروتة.

أطلقت زغروتة، وقرفصت قبالة محمود:

يلّا يا حبيبي.. شدّ حيلك، بلاش يقولوا ابن عواجيز.

ضحكت فاطمة، ومالت بقامتها العالية:

ولكنَّنا عواجيز يا حاجّة دلال!

فرغ الشيخ رزق من تناول الطعام، وكان محمود ينتظر منه أن يأمره بما يريد. رفع رزق الإبريق وأسال الماء في حلقه الذي أخذ يصدر صوت كركرة، ثمَّ أنزل الإبريق ومرَّر يده على فمه ليجففه، وحمد الله، ونقر على بطنه:

الآن، نرتاح ساعة زمن، ثمَّ في العصر نتمشَّى إلى عمِّك مرشد في كَرْمه ليفرح بك.

أغمض الشيخ رزق عينيه، وبدا كأنَّه ينام، فغادرت الحاجّة دلال، وعادت فاطمة لشغلها، وواصلت ذوابة الدعاء لأخيها الغائب.

دفع حرب البوابة، وارتفع صوته:

إإإإإخ...

برك الجمل على الأرض، عندئذ حمَّل مرشد وحرب كيسيْ القمح على رَحْل الجمل، ووضعا كيسًا فيه زبيب وقطين، وخرّوب ناشف أسود من خروب ذكرين المشهور بين القرى بحلاوته بين الكيسين، وحزموا بحبل الأكياس، وثبَّتوها على ظهر الجمل.

وقفت ذوابة وفاطمة تراقبان الرجال المنهمكين، ولِصْق أمّه وقف محمود والنعاس في عينيه، وهي تحضن رأسه بذراعها.

دفعته أمّه في كتفه:

اذهب إلى عمِّك الشيخ رزق و«بوس يده»، فهو بعد الله جعلك تمشي وتركض.

بخطى قصيرة، مشى محمود.. وحين وصل الشيخ رزق، انحنى على يده ورفعها وباسها عدّة مرَّات، فتأمَّله الشيخ، واحتضنه:

الحمد لله يا بنيّ أنّك شفيت. والله، إنَّ هذا سرّني كما لو أنَّك ابني.

ارتفع صوت سلمان الذي تُرك نائمًا، ولكنَّه استيقظ على رغاء الجمل، ولرغبته في وداع الشيخ رزق، رغم ما يشعر به من وَهن:

والله، إنَّنا ألفناك يا شيخ رزق. أهكذا تتركنا وترحل؟!

ابتسم الشيخ في وجهه، وظهرت ابتسامته جليّة بعد أن خفَّف لحيته عند حلّاق ذكرين أبو موسى:

البلاد طلبت أهلها، يا عمّ سلمان.

داعبه سلمان، وهو يقترب منه ويعبطه:

لحيتك هيك خفيفة وحلوة.. ومش ناقصك غير العروس يا شيخ رزق!

ضحك مرشد:

يا شيخ رزق: أخي سلمان لا يحبّ اللّحى، ولكنَّه أحبّك.

علّق حرب:

مش كلّ اللّحى مثل بعضها. لحى عن لحى تفرق. لحية الشيخ رزق مباركة وطيِّبة، ويداه فيهما الشفاء.

ثم صاح حرب عند رأس الجمل بصوت ممطوط:

حيييت...

فنهض الجمل، واهتزّ الكيسان وتقلقلا على ظهره، وكادا يميلان للأمام على عنقه، ولكنَّهما ارتدَّا مع ارتداد جسده واستقراره على قوائمه.

رفع الشيخ رزق راحته ملوِّحًا لسلمان والمرأتين ولمحمود:

بخاطركم.. إن شاء الله ما أكون أثقلت عليكم يا جماعة.

ردّ سلمان:

ثقلتك على الأرض. أنت فضَّلت علينا يا شيخ رزق.

غادر الموكب، وأغلق سلمان البوابة، وحمد الله وهو يرى ابنه واقفًا، ثمَّ وهو يمشي شادًّا جذعه دون الاعتماد على أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين ابتعدوا عن ذكرين، أمسك الشيخ رزق بيد مرشد، فالتفت مرشد إليه، منتظرًا منه قول شيء:

سألتني عن سرّ عيشي وحدي يا شيخ مرشد، ونحن في الطريق من الفالوجي إلى ذكرين. الآن، أجيبك، وقد صار بيننا عيش وملح! صلِّ على النبي: تزوَّجت من بنت خطبتها لي المرحومة أمي، أحببتها، وارتحت معها، وبقينا معًا حوالى عشرين سنة.. لا ينقصنا سوى الإنجاب. هي تطلب منِّي أن أتزوَّج حتى أخلِّف، وأنا أردّ عليها: وما يدريك أنَّني سبب عدم الإنجاب يا بنت الناس؟ ماتت نجيّة بدون مرض. استيقظتُ، وإذا بها نائمة بجواري. استغربت، فهي نشيطة وشاطرة وتسبقني في الصحو. هززت بدنها وأنا أدلِّلها بالكلمات التي اعتادت سماعها منِّي، ولكن بدنها لم يستجب. انحنيت عليها، وتحسَّست صدرها، ثمَّ ألصقت رأسي بصدرها.. فإذا بنجية: ولا نَفَس يا عمّ مرشد.. ميِّتة. ماذا جرى لي؟ لا أدري. أمِّي تقف عند رأسي، والجيران تمتلئ بهم غرفة نومنا. راحت نجيّة.

صمت الشيخ رزق، وأخذ يمسح عينيه براحتيْ يديه.

تساءل مرشد:

ولم تتزوَّج بعدها؟!

للأسف، أطعت أمّي وتزوَّجت. بلغت الخمسين تقريبًا، والبنت التي خَطَبتْها لي لم تكن قد بلغت العشرين. قالت لي: من هذه البنت سترزق بالصبيان يا رزق. بقيت معي خمسة أعوام، ولم يرزق رزق بالصبيان، ولا بالبنات!

التفت إلى مرشد:

ستسألني: وبعدئذ؟ أجيبك: ذات صباح، وبعد أن وضعت بنت الناس صينيَّة الإفطار بيننا، لم تمدّ يدها كالعادة وتشاركني الطعام. انتبهت لها، فإذا بها واجمة، حزينة، وفي عينيها شيء فاجأني. سألتها: ماذا بك يا بنت الناس. فاجأتني: يا عمّ رزق: أنا طنيبة عليك.. مشهدة على الله وعليك أن تطلِّقني. زوجتك المرحومة لم تنجب.. وأنا معك صار لي خمس سنوات.. ولم أحبل منك.. فالعطل منك يا عمّ رزق. سقطت اللَّقمة من يدي وأنا أتأمَّل وجهها. بنت صغيرة، وأنا شيخ كبير، وهي تستغيث بي.. ومن حقِّها أن تحبل وتلد.. فوجدتني أردِّد: أنت يا خديجة طالق طالق طالق.. وأنا مش زعلان منك. أنت حرّة يا.. واحترت ماذا أقول لها: يا بنتي.. أو يا حرمة.. أو.. يا امرأتي. سألتني: وماذا ستقول لأهلي يا شيخ رزق؟ كيف ستبرِّر لهم طلاقك لي؟ طمأنتها: سأقول لهم الحقيقة: أنا لا أنجب، وليس من العدل أن أفرض عقمي على بنت في أوَّل عمرها، زحفت على أربعتها، وظلَّت تبوس يدي وكتفي ورأسي إلى أن أمسكت بها من كتفيها وأجلستها، وطلبت منها أن تتناول الإفطار معي. وهكذا

افترقنا بدون مشاكل، وبقي رزق وحده.. فوالدتي ماتت بعد شهرين، فالمصائب تتلاحق، ولكنَّ اللَّه صبّرني. هذه حكايتي يا شيخ مرشد.

تنهَّد رزق:

أنا أفرح عندما أسهم في شفاء من هم مثل محمود، فأنا أرى فيهم أبناء لي. تعلَّمت هذه المهنة من المرحوم والدي، الذي كان يردِّد مشجِّعًا لي على تعلُّمها: لن تحتاج أحدًا إذا ما أتقنتها، وستكسب رزقك وحب الناس وثقتهم. يرحمه اللَّه.

لاحت بيوت الفالوجي، وارتفعت الأصوات مع اقترابهم، وأمسك حرب برسن الجمل وسحبه، حتى صار قريبًا من عنقه.

ارتفع صوت مرشد:

عندك يا حرب.. فهنا بيت الشيخ رزق.

توقَّف حرب، وأناخ الجمل، وأنزلا الحمل هو ومرشد، وأدخلا كيسيْ القمح إلى داخل حوش البيت، ووضعا بجوارهما كيس الزبيب والقطين والخرّوب.. وإذ تعانق مرشد والشيخ رزق، دسّ في يده أربعة جنيهات فلسطينيَّة، وحين تأمَّلها الشيخ رزق نظر في عينيْ مرشد متسائلًا:

هذا أكثر ممَّا اتّفقنا عليه!

قال مرشد وهو يربِّت على كتفه:

واللَّه إنَّ هذا المبلغ أقلّ ممّا تستحقّ، ولكن هذا ما نستطيعه.

عانقه حرب، ومضى الرجلان لقراءة الفاتحة للشيخ أحمد الفالوجي، قبل العودة إلى ذكرين.

كان مرشد يفكِّر في ما أخبره به الشيخ رزق، ويكرِّر لنفسه: لا شيء يكمل. الشيخ رزق يشفي الناس من أمراضهم، وهو نفسه بحاجة للعلاج. رجل بنيته قوّيّة و.. بذرته ميِّتة.. سبحانك يا رب: يخرج الحيّ من الميِّت.. ويخرج الميِّت من الحيّ.. والشيخ رزق بذرته ميِّتة وهو حيّ، ولا يخرج منه حيّ!

ومع ارتفاع الشمس، عاد مرشد وحرب إلى ذكرين وهما يتأمَّلان حكاية الشيخ رزق.

وضعت يديها على خصرها وهي تتأمَّله، وقلبها يخفق بقوّة في صدرها، وضحكتها تتَّسع مع كلّ خطوة يخطوها، وهو يمضي مديرًا ظهره غير منتبه لوقوفها، وهي تتابعه فرحة.

يخطو ويتمايل محاذرًا السقوط، فتتمتم: يا ربّ.. يا ربّ! قوِّ بدنه يا ربّ، وفرِّحني به حتى أشوفه زلمة وأجوِّزه، ويفرح قلبي مثل النساء المسعدات.. وأشوف له أولادًا ينادونني: يا جدّة.. ما عليك شيء بعيد يا قادر يا كريم!

استدار، وإذ رأى أمّه تفتح ذراعيها وهي تشمله بنظرة حبّ وأمل، توقَّف قليلًا، ثمَّ عاد يمشي متمايلًا قليلًا، شادًّا جذعه، رافعًا رأسه، ليرضي أمّه، ويطمئنها إلى أنَّه تحسَّن، وأنَّه وقف على قدميه اللّتين يمشي عليهما، وأنَّه سيركض مع الأولاد، ولن يمكث طيلة الوقت في البيت عاجزًا بجسد رخو.

اللَّه يرضى عليك يا شيخ رزق، ويوفِّقك، ويرزقك، وينجِّيك من كلّ ضيق...

احتضنت ابنها، وتمايلت معه، وتشمَّمت رأسه وعنقه، وباست خدّيه، وجبينه، ثمَّ أبعدت رأسها، وتأمَّلته كلّه، وهو يقف بين يديها:

الحمد لك والشكر يا ربّ.

من خلفهما وقف سلمان. وارتفع صوته:

يصبّحكم بالخير.. شو مصحّيكم يا جماعة؟

قالها مبتهجًا، وهو يرى ابنه واقفًا على قدميه، ومستيقظًا في وقت مبكّر.

ها هو محمود يمشي وحده من دون مساعدة يا سلمان.

استدار محمود، وهرول دافعًا جسده رغم الوهن الذي يشعر به، وتوقَّف لصق والده الذي احتضنه. قال موجِّهًا كلامه لفاطمة التي كانت تتأمَّلهما، ووجهها يضيء بالفرح:

ما أحلى هذا الصباح يا فاطمة! محمود يقف ويمشي ويركض..ولا تنقصه سوى العروس. إن متُّ يا فاطمة فزوَّجوه. لا تتأخَّروا في زواجه.

في حياتك يا سلمان إن شاء اللَّه. واللَّه.. إنَّ الشيخ رزق، اللَّه يسهِّل عليه، يستاهل أن نمنحه أكثر ممَّا منحه مرشد، لكنَّ أحوالنا ليست كما يجب. سنزوره في الفالوجي ونأخذ له هدية كويِّسة، فلا يكفي منحه كيسيْ قمح وجنيهًا زيادة على الثلاثة جنيهات.

قلبها في صدرها يكاد يقفز من فرحتها بابنها، حتى إنَّها فكَّرت أن تغنّي، فأخذت تهمهم بكلمات خطرت على بالها، لأنَّها لم تتذكَّر أغنية فرح واحدة!

انهمكت فاطمة في إعداد الإفطار، في صباح ربيعيّ عذب، أنعش فيه محمود قلبيْ أمّه وأبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد الإفطار، غادر سلمان البيت ومعه محمود، وتوجَّها خارج القرية.

لم يسأل محمود والده: إلى أين؟ فهو يعرف أنّ والده يريد له أن يتمشى ليراه الجيران، والأولاد، وليمرِّن رجليه، كما أوصى الشيخ رزق.

توقَّف سلمان عند البيادر، وبطرف عكّازه أشار إلى كرم مرشد:

هل تستطيع أن تسبقني وتصبِّح على والدك مرشد؟

أومأ برأسه، واندفع قاطعًا المسافة غير البعيدة. رآه والده وهو يدفع بوّابة الكرم، ويختفي، فتمتم: سيفرح مرشد كثيرًا بمحمود.

وهو يعبر البوابة، رأى سلمان شقيقه وابنه يتجوَّلان بين الأشجار. كان مرشد يتنقَّل بين الأشجار مشيرًا لكلّ واحدة، وكأنَّه يعرِّف محمود بها. سمعه يسمِّي له أشجار التين: هذه بياضيّة، وتلك سباعيّة، والتي هناك في الزاوية شحاميّة، أمّا تلك التي هناك فموازيّة، ومحمود يمشي مع عمّه كأنَّه منوَّم، فهو لم ير هذه الأشجار من قبل، ولم يلمس أوراقها، وإن أكل من ثمارها تينًا وعنبًا، كان أبوه مرشد يحضره للعائلة.

اتَّجه سلمان إلى طرف الكرم، ونادى على ابنه أحمد، فردَّ عليه، وهو يتوقَّف عن نكش الأرض:

نعم، يابا...

تعال شوف أخوك محمود.. تعال لكرم والدك مرشد.

كانا يتكلَّمان، وبينهما سور عال من أشجار الصبّار.

ارتفع صوت عبد الرحمن:

يابا.. جئت لك بالفطور...

التفت مرشد إلى سلمان، ونفض يديه من التراب، وانحنى ليبوس يده، فدفع سلمان كتفه، وعانقه.

اجتمعوا: سلمان ومرشد، والأبناء: عبد الرحمن، وأحمد، ومحمود.

فَرَد عبد الرحمن خرقة تحت الطعام: خبز الطابون، والزيت والزيتون، والبيض المشويّ، والزيتون الرصيص.

دوروا على ما قسم اللَّه...

قال مرشد، فداروا، وتناولوا الأرغفة، وانهمكوا في تقشير البيض.

ما أحلى هالصباح يا أخي سلمان، نجلس وحولنا أبناؤنا، هذه واللَّه نعمة من اللَّه الذي عوَّضنا عمّن راحوا.

نقّل سلمان نظره بين محمود وأحمد، وتساءل: أحمد ابني، ومحمود ابني. واحد طويل والثاني قصير. أحمد أسمر غامق، ومحمود أسمر فاتح.. وتساءل: يا ترى، كيف ستكون علاقتهما ببعضهما بعضًا؟

نهض الثلاثة: أحمد، عبد الرحمن، محمود، فوجدها سلمان فرصة:

دير بالك عليهم يا مرشد. أنا رحلتي في الدنيا قرَّبت تنتهي.

وجم مرشد:

الله يمدّ بعمرك يا أخي وتربّي أبناءنا وأحفادنا...

أحمد تزوَّج، و.. عبد الرحمن سيتزوَّج بعد أيّام، والحمد لله على نعمته. زوَّج محمود يا مرشد بعد ما أموت.. زوَّجه عندما يبلغ.

رغم أنَّ أحمد وعبد الرحمن أكبر من محمود، فإنَّهما تراكضا معه بين الأشجار، وشجّعاه على أن يتشبَّث بالأغصان ويدلّي جسده ويمرجحه، ويجبِّد بدنه.. فأخذ ينهض كلَّما سقط نافضًا التراب عن قمبازه، وتشجَّع وصعد شجرة التين السباعيّة الوارفة الأغصان، وقعد في منتصفها على غصن غليظ.

أوصيك بأحمد ومحمود يا مرشد، فأنا خائف من بثّ النسوان الشرّ بينهما.

بعينين مائلتيّ النظر، وهو يمسِّد على التراب الأحمر المنكوش:

أحمد زلمة، وجدع، ومحمود لن يكون إلّا مثل والده.. اطمئن يا أخي، و.. الله يمدّ في عمرك.

نهض سلمان، فاتَّجه إليه أحمد:

تعال عندنا يا والدي.

سأزوركم إن شاء الله لأبارك لكم بالبنت.. ماذا أسميتموها؟

مريم يابا.. مريم.

صار عندك محمّد ومريم.. الله يرزقك بأولاد، وتكفيك بنت واحدة، فالأولاد عزوة والبنات همّ.

استدار سلمان ومضى إلى البوابة، وخَلْفه سار أحمد ومحمود، وعاد مرشد إلى كرْمه، أمَّا عبد الرحمن فتناول فأسًا، وانحنى ينكش حول شجرة تين، فابتسم مرشد، وهزّ رأسه: لا بدّ أن تحبّ الأرض لتعتني بها يا عبد الرحمن. أنا لن أدوم لك، فلا بدّ أن تتعوَّد على خدمة الأرض لتخدمك. يلّا: الأيّام ستعلِّمك، وأنا لست دائمًا لك يا ولدي.

رمى عبد الرحمن الفأس، واستند بظهره إلى ساق التينة وأغمض عينيه، وبدا كأنَّه يغرق في النوم. تأمَّله مرشد وابتسم، فعبد الرحمن تعب من ضربات قليلة بالفأس.. وتساءل: من سيعتني بالكرم بعد موتي؟ ومن سيزرع الأرض ويحصدها، ويعتني بها؟ الكرْم لا يعتني به مرابع، الكرْم يعتني به صاحبه يا عبد الرحمن!

جاس بين الأشجار، وهو يتحسَّس أوراق أشجار التين الخضراء، وأوراق الزيتون التي بحجم لسان العصفور، وحبّات الزيتون الصغيرة التي ستنضج في تشرين، وتتحوَّل إلى زيت وزيتون. آه لو يعرف عبد الرحمن قيمة هذه النعمة، لما نام بكسل. الحياة ستعلِّمك يا ولدي، فنم الآن. نم على كيفك، لكنَّها لن تتركك تتدلَّل عليها، فالدنيا لا تتحمَّل النوّامين.

قال له والده وهو يتهيَّأ للتمدُّد في فراشه:

سنسرّي مع صلاة الفجر لنصل إلى بيت جبرين قبل طلوع الشمس، ثمَّ من هناك نتوجَّه إلى الخليل. أنت والحمد لله شفيت، وسنزور الحرم الإبراهيمي ونصلّي شكرًا لله على شفائك يا محمود. وفي الخليل، نشتري لك كسوة جديدة، وتتفرَّج على المدينة.

نام نومًا متقطِّعًا، فهو سيزور مدينة الخليل لأوَّل مرَّة، وسيصلِّي مع والده في الحرم الإبراهيمي، وسيشتري له والده حاجات تفرحه، كما وعده.

أوصته أمُّه:

الخليل مدينة كبيرة، فيها أوتومبيلات تمشي بدون خيل، وتزمّر، وتخوّف. أمسك في يد والدك، وإيَّاك أن تضيع عنه.. أيْوه.

أيْوه يمّا.

أغفى، وهي تتلو على بدنه آيات من القرآن، وأدعية، ممرِّرة راحة يدها على رأسه ووجهه، داعية الله أن يحميه ويبقيه لها، ويرعاه حتى يكبر وتراه عريسًا، وترى له أولادًا.. وبلاش البنات، فالبنات يتعبن أهلهنَّ.

همست في أذنه:

لمَّا تتزوَّج ، ويجيك ولد، سمّه أحمد، على اسم خالك.

تنهَّدت تنهدة ارتجَّ لها بدنها، وامتلأت عيناها بالدموع:

يا ترى: أين أنت يا أخي؟ الله يرجعك لنا بالسلامة.

أخذت تتأمَّله وهو يغفو، ثمَّ أغلقت عينيها، وغفت سعيدة بأنَّ الله عوّضها في آخر العمر بابن.. وأنَّ الله شفاه وعافاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تناهى صوت والده إلى سمعه، وهو يصلِّي الفجر، فخرج وهو يفرك عينيه، ويلمّ قمبازه على بدنه ليستره، فهو لا يرتدي سروالًا تحت القمباز كما يفعل الرجال الكبار.

تناول الإبريق ودلق شيئًا من الماء في راحة يده، ورشق وجهه، ثمَّ مسح الماء فانتعش مع بدء انتشار الخيوط البيضاء التي بدَّدت عتمة اللَّيل.

لم يسأله والده إن كان سيصلِّي، فهو لا يشدِّد عليه في هذا، كما تفعل أمّه التي تلحّ عليه أن يصلِّي ليحرسه الله ويبقيه لها.

صبَّحت فاطمة عليهما، كانت قد أعدَّت صرّة فيها أرغفة خبز وبيض وحبّات بطاطا مشوية ليتناولاها عندما يجوعان في مدينة الخليل.

وضعت أمامهما بيضًا مشويًّا وزيتونًا وخبز طابون يتصاعد منه البخار، وهما يجلسان على المصطبة.

يلّا.. كِلا لقمةً قبل سفركما بالسلامة.

جلس قبالة أبيه، وجعلا يمضغان صامتين الخبز والزيتون، ويغمّسان البيض في صحن الزيت وهما صامتان.

ابتلع سلمان اللُّقمة الأخيرة ومسح فمه، وتنفَّس بصوت عال، وشعر بالرضى عن كلّ ما حوله، شاكرًا في سرِّه الله الذي عوَّضه عن زوجته الأولى أم محمّد بفاطمة التي أنجبت له ابنه محمود، الذي عوّض غياب شقيقه محمّد.

وهو يتأمَّل وجه محمود، تساءل: ماذا سيكون مصيره يا ترى؟ هل سيكبر ويتزوَّج وينجب؟ كيف ستكون علاقته بشقيقه أحمد؟

نهض بقامته الرشيقة:

يلّا، بخاطرك يا فاطمة، ادعي لنا بالتوفيق يا أمّ محمود.

كان يرضيها أن يناديها أمّ محمود، فهي تعرف أنَّه بهذا يُكرمها.

الله يرجّعكما بالسلامة، دير بالك على محمود يا سلمان. إيّاك أن تتركه يبتعد عنك، أو تفلت يده من يدك.

لحقت بهما، ووقفت في البوّابة تتابعهما بنظرها حتى غابا في آخر الشارع، فأغلقت البوّابة وانخرطت في إطلاق الأدعية، مبتهلة إلى الله أن يحرسهما ويرعاهما، ويعيدهما سالمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بيت جبرين، لحقا بأوَّل أوتومبيل يتَّجه للخليل.

جلسا صامتين، بينما الأوتومبيل ينطلق مخلِّفًا بيوت بيت جبرين وراءه.

محمود يتأمَّل الطريق مندهشًا، وما يحيط بها من كروم، والجبال العالية المغطَّاة بالأشجار، والطيور التي تحلِّق عاليًا في السماء والتي تهبط على الأشجار وتختفي بين الأغصان والأوراق.

يهتزّ الأوتومبيل فيميل مع ميلانه، فيلتفت والده إليه، ويبتسم في وجهه:

الطريق مائلة والأوتومبيل يميل معها.

ثمَّ، وهو يشير له إلى الطريق عبر الزجاج الأماميّ:

انظر إلى الطريق لترى كيف يميل من جهة إلى جهة. لا تخف يا محمود، فالأوتومبيل قويّ والشوفير شاطر. أنا أعرفه منذ بدأنا نسافر للخليل من بيت جبرين، ونعود من الخليل لبيت جبرين.. بالأوتومبيل.

سأله محمود:

كيف كنتم تصلون الخليل يابا أيّام زماان، قبل الأوتومبيل؟

مرَّات، مشْيٌ على أقدامنا، ومرات على البهائم. كنَّا نقضي وقتا طويلًا في الطريق، ولا نستطيع العودة إلى بيت جبرين حتّى بعد يومين..أو ثلاثة! حتّى نتزوَّد باحتياجاتنا. الأوتومبيل ساعدنا يا محمود.. خفَّف علينا التعب.. والوقت. إنَّه نعمة يا ولدي. هذا من حظ جيلكم.

ظهرت بيوت الخليل، فأخذ محمود يتأمَّلها منبهرًا.. إنّها المرَّة الأولى في حياته التي يرى بيوتًا مبنيّة من الحجارة تنتشر على الجبال وسفوح الوديان.

ابتسم والده في وجهه:

هذه مدينة الخليل المباركة. بعد قليل ننزل في منتصفها، وندور في شوارعها، ونشرب الزبيب والخرّوب، ونأكل الملبن الطيِّب، والكعك بالسمسم أيضًا.

ارتفع صوت السائق:

الحمد للَّه على السلامة.. وصلنا. اتفضّلوا انزلوا.. ومن يريد الرجوع إلى بيت جبرين، فسنلتقي هنا بعد صلاة العصر مباشرة، حتّى نرجع على الفضا. لا تتأخَّروا يا جماعة.

أمسك والده بيده، وهو يتَّجه إلى مخيطة علي اشتي القريبة من الحرم؛ وعندما بلغا المخيطة، أفلت والده يده وتركه يسير بجواره كما لو أنَّه رجل كبير.

السلام على ابن صاحبي.

رفع علي رأسه عن القماش المفرود أمامه، وأسقط المقصّ من بين أصابعه، ومدَّ يده، وهو يلتفّ حول طاولة التفصيل مرحِّبًا بوجه بشوش:

يا أهلًا بالعمّ سلمان.

حرّك كرسيًّا وقدَّمه له، وأشار للفتى محمود إلى تنكة مغطاة بقطعة قماش ليجلس عليها، وسأل وهو يفرك راحتيه:

هذا المحروس! لم أره معك من قبل يا عمّ سلمان؟

ابتسم العمّ سلمان، وهو يتأمَّل ابنه:

آخر العنقود يا علي الغالي.. يا ابن الغالي.

قال علي، وهو يفرك يديه:

بدّي أروح عالبيت أوصّي على غداء. اللي بيشاور ما بيعيب، صح؟

هزَّ سلمان رأسه، وحكَّ جبينه بأطراف أصابعه الطويلة الرفيعة، دافعًا بكوفيَّته قليلًا إلى الوراء:

غدانا معنا في الصرّة يا علي.

أشار للصرّة التي يضعها محمود في حضنه.

بدنا نكسب الوقت. بدنا تفصِّل قمبازين لمحمود: واحد من قماش الكرت الرماديّ الثقيل وواحد روز أبيض، وسروالين. ولعمّك سلمان: قمباز كرت وسروال. يلّا خذ قياسنا، وخلّينا نروح نفرِّج محمود على سوق الخليل، ونشرّبه الزبيب، ونصلّي في الحرم.. محمود طاب من المرض، واليوم بدِّي أفرّحه وأفرجيه على الخليل.

التقط علي الكلام من سلمان:

الزبيب علينا، وعند جارنا أحسن خرّوب وزبيب.

أشار لمحمود أن يقترب منه، وهو يمسك بالمتر، وإذ صار قربه وضع المتر على منكبيه، ثمَّ فرده مع طوله، وقاس خصره.

هذا للقمبازين...

قاس خصره من جديد، وطوله من سرّته حتى قدميه:

وهذا للسروالين..

وأنت يا عمّ سلمان طولك كما هو، وخصرك لم يتغيَّر، وقياسك عندي في الدفتر.

ونقر على الدفتر الموضوع على طاولة التفصيل.

التفَّ من وراء الطاولة ووقف في مدخل محلّه، ونادى بصوت مرتفع:

جيب لنا ثلاث طاسات زبيب يا وصفي، بسرعة: العمّ سلمان مستعجل. استر وجهنا يا بني آدم، حتى لا يُقال الخلايلة بخلا...

أضاف:

يا عمّ سلمان.. ستبيتان أنت والمحروس محمود عندنا الليلة.

قال العمّ سلمان:

معروفكم، أنت ورحمة الوالد، سابق يا علي يا ابن أخي: لازم نرجع اليوم لذكرين، والأوتومبيل يعود بعد صلاة العصر لبيت جبرين.

رفع علي رأسه، ونظر إلى وجه العمّ سلمان:

أنتم خيركم السابق يا عمّ سلمان. والدي كان يوصيني بكم، أنت والعمّ مرشد، وكل أهالي ذكرين.. وأنت والعمّ مرشد لكم معزّة خاصَّة.

كرع محمود طاسة الزبيب، وبتمهّل ارتشف سلمان الزبيب متلذِّذًا، ثمَّ مسح فمه بظاهر راحته، وحمد الله على نعمته.

يلّا.. يا محمود، سنترك عمّك علي ليشتغل في أواعينا، وندور ونفرجيك على الخليل، فأنت لم ترها من قبل!

خرج علي معهما إلى الشارع، تمطّى، وأجال نظره في وجوه المارّة والمحال حواليه، وسأل:

عمّ سلمان: أتريد شراء شيء؟ أنا أدلّك على من ينصحك، ويراعيك..

كندرة لمحمود، وكندرة لوالدته...

أشار له إلى محلّ غير بعيد يعلِّق الأحذية في مدخله:

اذهب يا عمّ سلمان إلى محلّ عبد الهادي القواسمي، وقل له إنَّني أرسلتك إليه. سيراعيك وينصحك إن شاء الله.

ألحَّ عليه سلمان:

قبل العصر، يجب أن نلحق بالباص يا علي.

تكرم يا عمّ سلمان. سيساعدني أبناء عمِّي في خياطة قنابيزكم. أنت تعرف مخيطتهم؟ قبل العصر تكون جاهزة إن شاء الله.. لا تشغل بالك.

بارك الله بك يا علي.. هذا أفضل من الغداء.

مضى سلمان ومحمود وسط زحام، بدأ يتزايد مع ارتفاع الشمس في السماء الصيفية الزرقاء الصافية، متوجِّهًا إلى محلّ عبد الهادي، الذي رحَّب به عندما أبلغه بأنَّه من طرف علي اشتيْ.

أخرج سلمان خيطًا من جيبه، وقال لعبد الهادي:

أريد كندرة لحرمتي بطول هذا الخيط.

تناول عبد المعطي الخيط، وأخذ يقلّب الكنادر الحريميَّة بين يديه ويقيسها على الخيط، حتى اهتدى إلى واحدة رآها مناسبة.

قلّب فردتيْ الكندرة تحت نظر سلمان ممتدحًا نوعها وحجمها:

زدتها نتفة في الطول، وهي جلد كويِّس، ونعلها متين ما بيعلى عليه.

التفت الرجل إلى محمود:

وبدّك للعريس الله يحفظه كندرة، أو صندل؟

كندرة وصندل. الكندرة للمناسبات، والصندل حتى ما يظلّ يمشي حافي القدمين.. لقد صار شابًّا كما ترى!

اختار له صندلًا أحمر السيور وكندرة سوداء، طلب منه أن يدسّ قدميه في فردتيها:

طلب من محمود أن يقف، ويضغط على الكندرة بثقله، حتَّى يتأكَّد إن كانت مريحة.

كيف شايفها يا عريس؟

غمغم محمود وهو يقف مرتجفًا، وهو ما لاحظه والده، الذي يعرف أنَّه لم يشف تمامًا بعد، وأنَّه يحتاج للعناية بضعة أشهر كما أخبرهم الشيخ رزق:

كويِّسة...

عاد يسأله ليتأكَّد:

ها: مريحة؟ امش فيها كم خطوة، يلّا يا عريس..

مشى محمود خطوات خارج المحلّ، ثمَّ عاد، فتنبَّه البائع إلى أنَّه يتمايل في مشيته. أمَّا والده، فحمد الله أنَّه يمشي على قدميه دون الاعتماد على أحد.

عاد البائع يسأله:

ها.. مريحة؟

أومأ محمود برأسه.

مبروك.. شو بدك تلبس: الكندرة، أم الصندل؟

أجابه محمود قبل أن يسمع رأي والده:

الصندل...

ابتسم والده:

أيْوه، لازم تحافظ على الكندرة. لازم ما تعود تمشي حافي القدمين، فأنت صرت زلمة. وعندما تهري الصندل، سنعود إلى عمِّك عبد الهادي لنشتري لك غيره!

انتبه محمود إلى أنَّ عبد الهادي قصير شعر الرأس، وأنَّ رأسه العاري كبير، ووجهه مدوَّر، وأنَّه يغمض عينيه وهو يتحدَّث، ثمّ يفتحمها مرمَّشا، وأنَّ ظهره محنيٌّ قليلًا، وأنَّ بدنه ممتلئ، وأنَّه يرتدي قمبازًا بدون حزام حول وسطه.

عندما صار في الشارع مع والده، سأله عن الشيء الأحمر الذي وضعه عبد العاطي على رأسه، عندما خرج مودِّعًا لهما من الدكَّان:

طربوش يا ولدي. فبعض أهل المدن يضعون الطرابيش على رؤوسهم، ونحن نغطي رؤوسنا بالحطّات ونثبّتها بالعُقل.

دخل والده دكّان قماش، فاستقبله صاحب الدكّان هاشًّا باشًّا:

يا أهلًا بالعمّ سلمان، زارتنا البركة.. أهلًا بأهل ذكرين.

أمسك الرجل العجوز بيد سلمان وسحبه إلى داخل الدكّان، وقدَّم له كرسيًّا، ثمَّ التفت إلى محمود وربَّت على كتفه:

يا أهلًا بشيخ الشباب.. هذا المحروس؟

أجابه سلمان، وعلى وجهه ابتسامة:

آخر العنقود. ربّنا عوّضنا عن محمّد شقيقه الذي اختفت أخباره في الحرب.

أشار سلمان إلى أرفف القماش:

بدنا قماش لثوبين يا صاحبي.. لأم محمود.

تِكْرم.. تِكْرم. عندي قماش مجدلاوي لا يُعلى عليه.

قاس قماشًا لثوبين، كلّ قطعة وحدها، واختار شلل خيوط وحرير ولفَّها.

تنهَّد الرجل:

غداؤكم عندنا اليوم، نوصي من المطعم.

نهض سلمان وناوله ثمن القماش، وشدَّ على يده:

لم نأت لنجرِّبك يا أصيل، فنحن صحبة عُمر.. خيرها بغيرها، ولكن، لا بدّ من أن نشتري كلّ احتياجاتنا، ونتبرّك بالصلاة في الحرم، ونسرع لنلحق بأوتومبيل بيت جبرين.

لحق بهما صوت الرجل الذي توقَّف في مدخل دكّانه:

واللَّه ما إلها وجه تروحوا بدون ما تمالحونا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجال كثيرون يصطفّون متحاذين داخل الحرم، وإمام بملابس خاصة يؤمُّ بهم، وهو ما لم يره محمود من قبل.

لمَّا فرغوا من الصلاة، تدافعوا مسرعين. والده أمسك بيده، وثبَّته في مكانه حتى فرغ المسجد من المصلِّين، فسحبه وخرجا براحتهما.

جذبه والده من يده:

لنجلس هنا بجوار جدار الحرم، ولنأكل لقمة. ألم تجع يا محمود؟

هزّ رأسه، فعرف والده أنَّه جاع. فتح الصرّة، وناوله بيضة وكسرة خبز:

كل.. يلّا، الشيخ رزق نصحنا أن نطعمك بيضًا وحليبًا لتقوى عظامك.

أخذ محمود يقضم قضمة، ثمَّ يتأمَّل المارة، والباعة، وحركة الناس، ويصغي لنداءات الباعة الغريبة المتداخلة والصاخبة.

سأله والده:

مبسوط يا محمود؟

آ، يابا.. كثير.

أشعل سلمان سيكارة، وأخرج خيطًا من الدخان، وهو شبه مغمض العينين متلذِّذًا بالسيكارة.

هبط على سمعه صوت رجل يقف فوق رأسه:

ما اسمك يا عمّ؟

رفع سلمان رأسه متسائلًا:س

ليش يا ابن أخي؟

أحب أن أتعرَّف يا عمّ؟

إسمي سلمان.. من ذكرين.

واسم الوالد:

عليان يا ابن أخي...

ناوله الشاب الذي يضع طاقية على رأسه ورقة، وقال له:

هذه الورقة يا عمّ لك حتى تحضر إلى المحكمة يوم الأربعاء صباحًا، لأنَّك ستحاكم على تدخينك التتن العربيّ!

نهض سلمان منرفزًا:

وهل تدخين تتن الهيشي ممنوع؟!

قال له الرجل وهو يبتعد حذرًا، لأنَّه لاحظ بأنَّ العجوز أمسك بعصاه:

ممنوع يا عمّ بأمر الحكومة...

أمسك بيد محمود واتّجها إلى الخيّاط، الذي أخبره بأنَّ تحضير أواعيهم لن يتمّ اليوم، وأنَّ بإمكانه إرسال أيّ شخص غدًا ليأخذها، فستكون جاهزة.

قال لعليّ:

أنا يا بنيّ سأحضر، فقد سلَّمني أحدهم ورقة، وأخبرني بأنَّني مطلوب للمحكمة لأنَّني أدخِّن تتن الهيشي العربيّ.

ابتسم علي:

ألم تكن تعرف يا عمّ سلمان أنّ التتن العربيّ ممنوع؟!

أدار ظهره لعليّ، ومرق في الزحام ممسكًا بيد محمود حتى وصل إلى الأوتومبيل الذي كان يهدر ويرتج، بينما السائق يقف بجواره حاثًّا الركّاب على الإسراع:

يلّا يا جماعة.. بيت جبرين، أسرعوا.. بيت جبرين.. بيت جبرين.

دفعه والده للصعود وتبعه، وجلسا معًا، في حين أخذ المسافرون يتوافدون حتّى اكتظ بهم الباص، فصعد السائق:

يا اللَّه...

تطلّع في الزجاج أمامه:

اتَّكلنا على اللَّه...

واندفع الأوتومبيل عابرًا شوارع الخليل، فارتفع اللغط والضحك، بينما الشوفير ينقّل نظره بين الطريق والركاب عبر المرآة وهو صامت، وجسده يهتزّ مع حركة الأوتومبيل، وبين آونة وأخرى يطلق البوق.

مال سلمان على ابنه الذي قرّب أذنه من فم أبيه ليسمع كلامه عبر الضجيج:

سنصل قبل غياب الشمس إلى بيت جبرين، وعند غياب الشمس، سنكون في ذكرين إن شاء الله.

ابتسم في وجه محمود:

ستفرح أمّك بك، وبما أحضرناه لها.

محمود يهزّ رأسه وابتسامة تفيض على محيَّاه، فهو يمتلك كندرة وصندلًا، وفصّل الخياط له قمبازين وسروالين، وشاف الخليل، وشرب الزبيب، وصلّى في الحرم الإبراهيمي، ويحمل كعكًا بالسمسم وملبنًا لأمّه وخالته ذوابة وعمّه مرشد.

أغمض الأب عينيه، وبدا كأنَّه يأخذ غفوة، بينما محمود يسرِّح نظره محاولًا أن يرى كلّ ما يحفّ بالطريق، ليحكي لأمِّه عن كلّ ما شافه، كما طلبت منه.

تأمَّلته فاطمة مشفقة وهو يصلِّي الفجر، فهو سيمشي إلى بيت جبرين، ومن هناك إلى الخيل، وسيقف أمام حاكم كافر.

أعدت الزوّادة ولفَّتها في صرّة، وانتظرت أن يفرغ من صلاته.

بعد أن سلّم، استدار ونظر إليها فرأى الهمّ على وجهها، فابتسم لها:

يصبّحك بالخير يا أم محمود. لا تشيلي هم، فقبل غياب الشمس سأعود.

سمع حركة البوابة، ورأى ابنه أحمد ملفوف الرأس بكوفيّته، فكاد يضحك من قصر قامته. انحنى أحمد وباس يده ورفعها إلى جبينه، ثمَّ صبَّح على امرأة أبيه التي لا يحبّها، والتي يعرف أنَّها لا تطيقه، لا هو ولا امرأته سارة:

بصبّحك بالخير يا أم محمود.

ردَّت بغمغمة، وناولته الصرّة:

هذه زوّادة .. لوالدك ولك ولعبد الرحمن.

ظهر عبد الرحمن في باب غرفته، فتأمَّل سلمان ابن أخيه بقامته الطويلة، ووجهه الأسمر الغامق: مرشد أبيض وعبد الرحمن أسمر أدغم.. سبحان الله.. عبد الرحمن أخذ لونه من أمّه!

نهض وأمسك بعصاه، ثمَّ قال:

هيا بنا، فأمامنا مشوار لبيت جبرين وبعدئذ للخليل.. يلاّ يا أزلام.

لحقت فاطمة بهم. تمنَّت أن ترى محمود كبيرًا وقويًّا مثل أخيه أحمد وابن عمّه عبد الرحمن.. ولو أنَّ جسمه غير عليل. همست لنفسها: بكره يكبر ويشفى ويصير رجلًا.

أمسكت بالبوّابة، وتابعتهم بنظرها وهم يبتعدون حتى اختفوا. دفعت البوابة وأغلقتها، وتنهَّدت: يحاكمون عجوزًا لأنَّه يشرب التتن؟ ما دخلهم به؟ يا سبحان الله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين وصلوا إلى بيت جبرين، صعدوا في الأوتومبيل. جلس سلمان وبجواره أحمد، وخلفهما عبد الرحمن بجوار أحد المسافرين، وإذ غصَّ الأوتومبيل بالمسافرين، صعد السائق، فتنفَّس سلمان بعمق واتَّجه بكلامه لابنه ولابن أخيه خلفه، ولمن يسمعونه:

زمااان كنّا نمشي إلى الخليل، أو نركب البهائم، فنقضي يومًا ونصف اليوم للوصول.. من الصباح الباكر حتى منتصف الليل، وها نحن نصل في ساعة زمان، يعني شرب سيكارتين.. هُب، وإذا أنت في الخليل. ارتحنا، والله، من مشقَّة السفر.

ارتفع لغط المسافرين وضحكاتهم، فصمت سلمان، وأغمض ابنه أحمد عينيه، فتركه سلمان ينام.

لاحت كروم الخليل وبيوتها وتلالها وجبالها، فتنفَّس سلمان بعمق: يا خليل الله، نجّني من الحاكم الكافر.

توقف الأوتومبيل. نظر السائق في المرآة:
تفضَّلوا يا ناس.. وصلنا بالسلامة.. ادعوا لنا وأنتم تصلُّون في الحرم.
عندما صاروا خارج الأوتومبيل، أخذ سلمان يدور حول نفسه متسائلًا:
كيف نعرف أين المحكمة ؟
ردَّ أحمد:
نسأل يا أبي، ومن يسأل لا يتوه.
صدقت...
عند محلّ عبد الهادي شاور، توقَّف سلمان:
السلام عليكم يا قرابة: أين المحكمة؟
خرج الرجل من داخل دكّانه، وسلَّم على سلمان، وانهمك في الوصف، فهزّ سلمان رأسه:
عرفت...
لحق به صوت الخليليّ:
إن شاء اللَّه المشكلة صغيرة، وما فيها دم وشرّ.
ضحك سلمان:
المشكلة شرب سيكارة.. يا قرابة. قبل جمعة كنت أشرب سيكارة قرب حائط الحرم.. طب، وإذا شخص فوق رأسي يبلِّغني بأنِّي ارتكبت مخالفة بتدخيني التتن العربيّ!
ضحك الخليليّ:
الهيشي يعني يا عمّ سلمان؟
أيْوه الهيشي يا قرابة...
ضحك الخليليّ، وهو يشير له إلى مكان المحكمة، وصوته يلحق بسلمان:
دشّر الدخان يا عمّ سلمان.. أنت كبرت يا زلمة!
تساءل، وهو يتأمَّل وجوه المنتظرين أمام قاعة المحكمة:
يا ترى: من نسأل يا ناس؟
أشار أحدهم إلى شاب على رأسه طربوش، فاقترب منه وأمسك به من كتفه، وسأله:
يا ابن أخي: عندي اليوم محكمة، ولا أعرف من أسأل، فهل...
أنا يا عمّ.. أنا.. اسألني أنا. أنت ما اسمك؟
سلمان.. سلمان ابن عليان من ذكرين.
فتح دفتره:
نعم: محاكمتك اليوم.. على تدخين تتن عربيّ.. صح؟
هزّ سلمان رأسه، فقال له:

إجلس يا عمّ، وسأنادي عليك عندما يأتي دورك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف سلمان أمام القاضي، بينما لبث أحمد وعبد الرحمن قرب الباب يسترقّان السمع والنظر.

قرب القاضي على كرسيّ أدنى، جلس شابّ سماته عربيَّة.

رطن القاضي بلغته الغريبة.. وسكت، فارتفع صوت الشابّ:

يسألك القاضي يا شيخ: لماذا تشرب التتن وأنت عجوز؟

ابتسم سلمان:

من زماااان وأنا اشرب التتن.. تعوَّدت عليه.. بدَّك تقول: صار التتن من طول العشرة صاحبي.

رطن الشاب وهو ينظر إلى القاضي الذي عاد ورطن له، وهو يمدّ له يده بعلبة سكائر.

مدّ الشاب العلبة لسلمان، فتناولها سلمان باستغراب، وأخذ يقلّبها:

ما رأيك، يسألك القاضي، أن تدخِّن من هذه السكائر، وتترك تدخين التتن العربيّ. الهيشي يتعب صدرك، فهو ثقيل، ورائحته عاطلة؟

تعوَّدت عليه من صغري يا ولدي. ما باقدر أغيِّره وأنا في هالعمر!

ردّ العلبة للشابّ بعد أن تأمَّلها:

هذه لن أشربها، فهي لا تكيفني.

ابتسم القاضي، ومال باتّجاه الشابّ، ورطن له من جديد:

يقول لك القاضي: أنت رجل كبير في العمر، وإذا قبض عليك مرَّة ثانية، فهو سيحبسك. ماذا تقول؟

رفع سلمان طرف كوفيَّته عن صدغه الأيمن، ودوّر بإصبعه الشاهد حولها، وقال:

خُليّق يا ذاني إذا عدت للتدخين. من اليوم سأترك التتن.

ثم أخرج كيس دخّانه، وناوله للشابّ:

وهذا كيس تتني خذوه.. فلن أعود للتتن والكيف بعد اليوم.

رطن الشاب للقاضي، ودوَّر إصبعه حول أذنه، فضحك القاضي، وتناول كيس التتن المطرّز وأخذ يتأمَّله، ورطن للشابّ بكلامه الغريب..وسكت، فتوجَّه الشابّ لسلمان بالكلام:

يقول لك: هذه المرَّة سماح، وهو سيحتفظ بكيس التتن حتَّى لا تعود للتدخين.. مع السلامة .

رفع يده إلى رأسه وغادر، وعند الباب أخذ الشابان في تقبيل رأسه، ويديه.

يلّا.. فلنصلِّ ركعتين في الحرم، ثمَّ نأخذ القنابيز التي فصّلناها عند علي اشتي، ونلحق بالباص.. يلّا يا حبيبيني.

أمسك بيديهما:

إيّاكما والتتن، فالإنكليز سيحبسونكم لو دخّنتم، و.. الحمد لله أنَّهم لم يبهدلوني.

ثمَّ كأنَّما تفطّن.. وقف، وثبَّت الشابّين في مكانهما جاذبًا يديهما:

ما دخل الإنكليز بأن أشرب تتن أو لا أشرب تتن؟ هل صحّتي غالية عليهم؟ عجايب والله!. ولكنَّني، كما وعدت القاضي: لن أشرب تتن بعد اليوم.. قلت كلمة وعيب أرجع عنها.

سأله أحمد:

كم سنة لك وأنت تشرب التتن يابا؟

ضحك سلمان، توقَّف، وجذبهما من يديهما، وتأمَّلهما:

أكثر من عمريكما معًا.. أي والله أكثر.. من وأنا عمري.. نسيت كم كان عمري.

استظلّوا بجدار الحرم، وفرد أحمد الزوّادة، وعندما فرغوا من طعامهم، اقترح سلمان أن يتوضأوا، ويصلّوا ركعتين تحيّة للمسجد، ويسرعوا لأخذ القنابيز والسراويل، ومن ثمَّ اللحاق بأوتومبيل بيت جبرين.

اعتاد محمود أن يناديها أختي حليمة، وهي تعامله كأنَّه أخوها الصغير، فهي تنيِّمه على ركبتها، وتفلّي رأسه رغم عدم وجود قمل فيه، لأنَّه ينام، بينما أصابعها تسبح في شعره وعلى جلدة رأسه.

محمود يحب خالتيه: ذوابة وآمنة، ولكنَّه متعلِّق بخالته حليمة أكثر، وعندما تنحني عليه يفتح عينيه ليرى عينيها الفسيحتين، ووجهها الأبيض المدوَّر، وابتسامتها التي تبهجه.

والشيخ رزق يعالجه، كانت تجلس قبالته وهي تتمتم أن يمن اللَّه عليه بالشفاء، وأن يساعده على الوقوف والمشي ويقوِّي بدنه. وحين مشى خطواته الأولى معتمدًا على نفسه، ركضت إليه واحتضنته، وارتفع صوتها منادية أختها فاطمة لترى ابنها وهو يمشي.

تعلَّق محمود بخالته الصغيرة التي يناديها أختي حليمة، ونسي أنَّها يومًا ستغادر البيت إلى بيت آخر. وها قد جاء اليوم الذي لم يتوقَّعه محمود، والذي أحزن قلبه، وأفرح قلوب ذوابة وفاطمة وآمنة أخوات حليمة.. فها هي ستتزوَّج من رجل صالح، وإن كنَّ حزنَّ لأنَّه سيأخذها بعيدًا عنهنّ.

من أين جاء هذا الرجل المديد القامة، الأسمر الغامق السمرة، المعمَّم بعمامة حمراء غامقة، والذي يرتدي ثوبًا أبيض وعباءة حمراء غامقة؟

ألم يجد امرأة غير أختي حليمة؟!

أنا أكرهك يا زلمة، ولا أطيق أن أراك، وها أنت تقيم عندنا ثلاثة أيّام، وتتَّفق مع أبي مرشد على الزواج من أختي حليمة!

أمِّي تبدو فرحانة، وخالتي ذوابة تكاد تطير من الفرح، وخالتي آمنة تحضر من بيت زوجها من الصباح وتبقى حتى المساء، و.. حليمة..أختي حليمة تبدو مبسوطة، فهي تكحِّل عينيها وترتدي ثوبًا مطرَّزًا!

راحوا إلى الخليل، ولم يأخذوني معهم، ولو طلبوا منِّي أن اصطحبهم لما فعلت!

راحت أختي حليمة!

راحت الركبة التي كنت أسند رأسي عليها.

راحت الأصابع التي كانت تنغمش رأسي، فيسري النعاس في عينيّ وأنام هانئًا.

راحت لبعيد بعيد.. لمكان لن تعود منه قريبًا، ولن نذهب إليه لنراها!

تمتم وهو ينفجر في البكاء: أنا أكرهك.. أكرهك يا.. من لا أعرف اسمك، سوى أنَّهم في البيت أخذوا ينادونك منذ دخلت بيتنا: الشيخ!

باستني كثيرًا، واحتضنتني، وأوصتني أن أحضر وأزورها، وعندما بكيت وتشبَّثت بها: قالت لي: أنت صرت زلمة يا محمود، وصرت تمشي والحمد للّه.. وتركض، و.. أنا سأعود وأزوركم.. ثمَّ دفعتني قليلًا، وأفلتت يديَّ المتشبّثتين بقبّة ثوبها:

عيب: لازم أروح يا حبيبي.. فالشيخ ينتظرني، وعمّك مرشد وأمّك وخالتك آمنة ينتظرونني. لازم نصل الخليل بدري حتى يصافح الشيخ على أختك حليمة، حتى أصير امرأته بالحلال.

راحت.. راحت أختي حليمة، وبقيت أبكي بصمت، بينما والدي يراقبني محزونًا. قال لي والدي وهو يركِّز ظهره على الحائط:

يا ولدي: خالتك حليمة لازم تتزوَّج.. وأنت كبرت، وسيأتي اليوم الذي تتزوَّج فيه.. هكذا حال الدنيا.. الله يسهِّل عليها، ويستر عليها، ويوفِّقها، فهي كبرت، ولازم تتزوَّج.. لعل الله يرزقها بولد يملأ عليها حياتها.

نظر سلمان إلى محمود نظرة عتب: أتريدها أن تبقى عندك مدى الحياة دون زواج يا محمود؟ لا تبكِ.. عيب، فأنت رجل!

أخذ محمود يمسح دموعه، ثمَّ اقترب من والده الذي احتضن رأسه:

لو أنَّ صحّتي تساعدني يا محمود لسافرت معهم للخليل، ولكن المرض يهدّ حيلي. هذا حال الدنيا، يولد الناس ويكبرون، ويتزوَّجون، ويتفرَّقون. هذا حال الدنيا يا ولدي، فلا تحزن، وادعُ لخالتك أن يوفقها الله...

احتار محمود بماذا يدعو لخالته حليمة، فنهض وجلس على المصطبة، وشعر بأنَّ النعاس يثقل رأسه فتمدَّد ونام، ودموعه تسيل على فمه بطعمها المالح.

صلّى الفجر، وشعر بالسكينة تملأ روحه، وهو متربِّع على عباءته المفرودة تحته، متنعِّمًا بالهدوء الذي يعمّ كلّ شيء: القرية، والفضاء المحيط، ولون السماء الرائق، والنسمات المنعشة، والأشجار العالية التي لا تنام، وحمد الله على هذه النعمة، وبارك ذوابة وفاطمة وهما تستيقظان وتدخلان الطابون، فتفوح رائحة خبز القمح التي تشرح النفس.

تمتم:

أحمدك يا رب وأشكرك على هذه النعمة. أللّهمّ أدمها علينا، واحفظ أسرتنا، وأهل قريتنا ذكرين، وكلّ جيراننا، و.. كلّ الناس.. وأعد الغيّاب يا ربّ آمين.

وضعن أمامه طبق القشّ وعليه صحون الطعام والخبز الساخن، ثمَّ قعدن قبالته، فسمَّى بسم الله، وبدأ يمضغ الطعام بتلذّذ:

يسلم أيديكن يا فاطمة وذوابة.

أخرج حصاتين سوداوين ساخنتين من رغيف ثان شرع في التهامه، وكوَّمهما جانبًا مع حصى آخر سيعاد ليفرد في قاع الطابون، لتنضج عليه الأرغفة.

نهضت فاطمة، وكأنَّما تخلي الجوّ لمرشد وذوابة، مفسحة لهما ليتكلَّما في أمور تخصّهما، وفتحت قنّ الدجاج، وطيَّرت الحمام، وتمهّلت في تنقُّلها في أطراف البيت، حتى وصلت بجوار البايكة، حيث تربط داخلها البقرتان، ويخزّن التبن، فسمعت صوت نخير بقرة، وضربات حادَّة في الأرض، فنادت مرشدًا:

يا مرشد: أسمع صوتًا غريبًا في داخل البايكة.. كأنَّ بقرة تريد أن تقطع الحبل.. و...

ضحك مرشد مطمئنًا فاطمة:

يمكن استعوقتني البقرتان، فأنا أطلت إفطاري، وتمهّلت.

فتح بوّابة البايكة، فوجم وهو يرى البقرة الصفراء متمدِّدة ساكنة الحركة، متشنِّجة الأطراف.. ومنتفخة!

اندفع وتحسَّسها، فوجدها ساكنة تمامًا، جذبها من ساقها وهزّ رأسها، شدَّها من أذنها.. لا حياة في جسد البقرة!

ضرب على بطنها المنتفخ كالطبل، فذهل وهو يتأكَّد من موتها.

صاح:

البقرة الصفراء ماتت.. لدغتها أفعى.. في البايكة أفعى. أيقظي عبد الرحمن يا ذوابة.

ضربت فاطمة على صدرها، وركضت صوب ذوابة:

البقرة الذهبيَّة ماتت يا ذوابة.. لدغتها أفعى.

نهضت ذوابة على أربعتها، وكأنَّها تلقّت نبأ موت أحد أفراد العائلة، ولطمت وجهها، ومضت محنيّة الظهر، وخبطت على باب غرفة عبد الرحمن ومليحة، فاستيقظ وهو يفرك عينيه:

البقرة الصفرا لدغتها الأفعى وماتت، يا عبد الرحمن.

تساءل عبد الرحمن:

لدغتها أفعى!.. ومن أين جاءت الأفعى؟!

حثّته:

يلّا يمّا.. والدك ينتظرك في البايكة.. والأفعى ربما تكون لابدة في التبن. ما في أخطر من حيَّة التبن، فهي تلدغ وتندسّ في التبن.

لفَّ كوفيَّته حول رأسه، وتناول عصاه ذات الرأس المكوَّر والذراع القصير، واندفع راكضًا، فوجد والده يقف واجمًا عند مدخل البايكة، وهو يمسك برسن البقرة البرقاء بلونيها الأسود والأبيض.

لا تدخل يا عبد الرحمن، فالأفعى أكيد لدغت واختفت تحت كوم التبن. إنَّها خطرة، فنحن لا نراها، وهي قد تندفع وتباغتنا. البقرة الذهبيَّة ماتت، وانتهى الأمر.

وماذا سنفعل يا والدي؟

صفن مرشد:

لا بدّ من إخراج البقرة من الداخل، وجرِّها إلى خارج القرية، وتركها بعيدًا على التلال لتأكلها الكلاب والضباع. إن بقيت هنا ستفوح رائحتها. إذهب إلى عند عمّك حرب وأخبره، وهو سيأتي لنجرّ البقرة بعيدًا، ونفرغ البايكة من التبن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربط ساق البقرة بالحبل، وشدَّه على كتفه، وانحنى جاذبًا البقرة، ولكنَّه بالكاد زحزحها، فهي ضخمة وثقيلة، إلّا أنَّه لم يكفّ عن جذبها؛ وإذ رأت المرأتان أنَّه لن يجرّها وحده، تقدّمتا وأمسكتا بالحبل وجذبتا معه.

ارتفع صوت حرب من خلفه:

أنا جئت يا مرشد، يا صاحبي.

نصب مرشد هامته، وفرد يديه، واحتضنه:

نكبة يا صاحبي.. واللَّه نكبة! فهذه البقرة تحرث، وتدرّ الحليب، وهي غالية علينا...

أمسك حرب بالحبل:

يلّا، فلنجرّها إلى خارج البلد، وبعدئذٍ نرى ما نفعل يا صاحبي.

معًا.. مرشد وحرب جرّاها في الحوش حتى البوّابة، بينما وقفت المرأتان ومليحة التي استيقظت، وهنّ يبكين البقرة التي كن يناديها تدليلًا الذهبيَّة: يا ذهبيّة يا ذهب. يا ذهبيّة يا أم الحليب والسمن واللّبن. راحت يا خسارة.. بلدغة حيَّة ملعونة.

رآهم بعض الجيران، فأسفوا لمصيبة مرشد ببقرته، وأمسكوا بالحبل، وتناوبوا على مواصلة جرّ البقرة بعيدًا عن بيوت ذكرين، حتى بلغوا حافّة الوادي، فتركوها هناك.

فكُّوا الحبل من حول قائمتيها الأماميَّتين، ووقف مرشد أمام جثّة البقرة دامع العينين، فاحتضنه حرب، واستدار به صوب القرية.

قال حرب:

الحيَّة في بيتكم.. وقد تقتل البقرة الثانية، لذا لا بدّ من إفراغ البايكة من التبن، وتبييت البقرة خارج البايكة، ولا يدخل أحد من الأسرة إلى داخلها.

بدآ في إفراغ البايكة بالمذاري والشواعيب بحذر، فهما يتقدَّمان وعيونهما مركَّزة عند أقدامهما، ومتنقِّلة بين السقف وكوم التبن الذي يملأ البايكة من الأرض وحتى السقف.

وقف عبد الرحمن متهيِّئًا بعصاه في يده، حذرًا من أن تفاجئهم الحيَّة.

قال حرب:

حيَّة التبن تختفي داخله، ولكنَّها يمكن أن تتوارى في السقف بين الخشب، أو حتَّى تنتقل إلى أماكن أخرى.. فهي سيّارة، إلَّا إذا كانت تعيش في البيت نفسه، وهي خطرة جدًّا، لأنَّها تكون بلون التبن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجر اليوم التالي، خرج مرشد دون أن يتناول إفطاره، وهو يجرّ خلفه البقرة البرقاء، لا ليحرث عليها، ولكن ليبعدها عن البيت، فالحيَّة باتت خطرًا قاتلًا. يمشي واجمًا وهو يتساءل: من أين جاءتنا هذه المصيبة؟ أنا ما صدقت حتى أمتلك البقرتين لأحرث أرضي، وتدرّا الحليب. الذهبيَّة ماتت وهي حامل. لو لم تقتلها الحيَّة فلربّما ولدت عجلة أو عجلًا. والله يا ربّ إنَّها مصيبة لنا!

ما إن صار في أرضه، حتى سمع صوت حرب:

مرشششششد.. يا مرشششد.

التفت، فرآه بقامته العالية، ومنكبيه العريضين، فاستذكر أيَّام الحرب، حينما كانا يحملان قلل المدافع الكبيرة في الحرب مع الكفّار. كانا يتناديان: هووووووو.. فيردّ الآخر وقد تعرَّف على صوته: يا هووووو..ثمَّ يلتقيان ويتعانقان، رغم أنَّهما لا يكونان قد افترقا طويلًا، ودائمًا يتحدَّثان عن ذكرين والأهل الذين تركوهم وراءهم.

تأمَّل مرشد صاحبه الذي يجرّ بقرة، أو ثورًا، ويتَّجه إليه.

العوافي يا مرشد...

لبث مرشد في مكانه يتأمَّله.

يا مرشد، يا صاحبي: أنت لن تحرث أرضك على بقرة، فأنت تحتاج لبقرة ثانية، وهذه تعويض لك عن الذهبيَّة.

رفع أصبعه في وجه مرشد، كأنَّما يقول له: لم أنه كلامي:

عندنا سبع بقرات، يعني زيادة عن حاجتنا لحراثة أرضنا، وحاجاتنا من الحليب والزبدة واللّبن.. فهذه لك حلال زلال يا مرشد يا أخي وصاحبي. ووالله إن رفضت الهدية.. لا أنت صاحبي ولا أخي!

ومدّ يده برسن البقرة، التي في لون جلدها صفرة قريبة من صفرة البقرة التي لدغتها الحيَّة.

تردّد مرشد قليلًا، وارتجّ عليه، ولم يجد كلامًا يقوله، وأمسك بالرسن، ثمَّ اندفع محتضنًا حرب.

رغم الغشاوة على عينيه، تمكَّن من رؤية وجهيْ مرشد وفاطمة المقرفصة عند رأسه، وسمع تمتمة ذوابة التي كانت تتلو الأوراد، وتستغفر له، وتطلب من اللَّه الرحمة واللّطف بعبده سلمان.

افتقد ابنيه أحمد ومحمود، وعبد الرحمن ابن مرشد.

وجهه يبدو طويلًا غامق السمرة، وأنفه النحيل المدبَّب الرأس أطول ممَّا اعتاد مرشد أن يراه. كفّ راحة مرشد اليمنى مفرودة فوق صدر شقيقه، ودموعه تسيل بصمت، ونهنهة تشي بالألم الذي يكتمه في صدره.

دخل الأقارب، الأكبر فالأصغر، وارتفعت أصواتهم لاهجة له بالصحّة والعافية، وبأن تنتهي مرضته هذه على خير:

قال عبد القادر عزيزة، وهو ينحني على صدر سلمان ويبوس جبينه:

قم يا عمّ سلمان، حمولتنا بدونك جسد بلا رأس.

الحاجّ خليل قال، وهو يجسّ نبض سلمان:

بخير إن شاء اللَّه .. بخير.. دمك مثل دم الشباب.

تمتم سلمان وهو يفتح عينيه، ويحاول أن يبتسم، فترتجف شفتاه الرقيقتان:

شو عرَّفك يا خليل؟

علَّمونا جسّ النبض في الحرب. أنت تعرف أنَّني كنت أعمل مسعفًا.

لاحظوا طيف ابتسامة على وجه سلمان، فعاد الحاجّ خليل للتأكيد على كلامه، فتساءل:

يعني يا عمّ سلمان: أنت لا تعرف أنَّني كنت مسعفًا، و.. تعلَّمت كيف أميِّز بين الحيّ والميِّت، والمتماوت، والمتمارض؟!

بصوت واهن، سأله سلمان:

أنا ميِّت أم حيّ، يا حاج خليل؟!

ضحك الحاجّ خليل، وشاركه الحضور الضحك، حتى فاطمة ضحكت بصوت مرتفع، ومازحه:

ما دمت تحكي فأنت حيّ يا عمّ سلمان، فأنا لم ألتق في الحرب بعساكر أموات يحكون. عمرك طويل يا عمّ سلمان إن شاء اللَّه.

غاب سلمان، ما عاد يحكي، أو يردّ على كلام الملتفِّين حول جسده الممدَّد والمغطى بلحافين، واحدهما فوق الآخر، حتى يعرق ويشفى.

انسحبوا وجلسوا على المصطبة تحت العريشة، حتى لا يثقلوا على سلمان.

قال الحاجّ خليل مخاطبًا مرشد:

سلمان.. سلمان يا عمّ مرشد...

جحظت عينا مرشد، واربدّت ملامحه، فغيَّر ما كان ينوي قوله:

أقصد الأعمار بيد الله.. و.. العمّ سلمان بخير إن شاء الله. مرضة وتمرّ.

تأمَّله مرشد بنظرة غير راضية، فيها غضب وعتب، فلاذ الحاجّ خليل بالصمت. انبثق رأسه الصغير من جسده الذي لفَّه بعباءته حتَّى عنقه، فأخذ يحرِّكه يمنة ويسرة محتارًا ماذا يقول، وكيف يفصح عن دنو أجل سلمان.

خرجت فاطمة وخلفها ذوابة. دارت بنظرها على الأقارب الحاضرين الصامتين، وأخبرتهم:

سلمان نفسه ميِّت.. وجسمه بارد.

رمقها مرشد بنظرة نارية غاضبة، ودخل إلى الغرفة، وانحنى على سلمان. وضع راحة يده على جبين سلمان، ثمَّ دسّ أصابعه وتحسَّس شرايين عنقه. أخذ يهمس قرب أذن شقيقه: سلمان.. سلمان يا أخي وأبي.. أأنت بخير؟ أأنت نائم؟ نم يا أخي وارتاااااح.. لكن لا تنم كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعوا عبر البوابة، يتقدَّمهم أحمد، وخلفه عبد الرحمن ومحمود.

ارتفع صوت محمود:

يمّا.. يمّا.

وقفت صامتة، تتطلَّع صوبهم. بدا محمود شابًّا، رغم جسده الرقيق وكتفه المائل قليلًا. شعرت بالقلق على صحّته، وهمست لنفسها: ابن رجل عجوز وامرأة عانس!. رغم ما هي فيه من حزن على سلمان، فقد التمعت الفكرة في رأسها: لا بدّ من تزويج محمود، فأحمد متزوِّج وصار له ابن وابنة، وعبد الرحمن تزوَّج، فلماذا لا تزوَّج ابنها؟ لكنَّه ما يزال صغيرًا.. ستنتظر سنوات قليلة، فمحمود يحدِّق في وجوه البنات طويلًا وكأنَّه يختار لنفسه، ويقارن بينهنّ، ولكنّ نظرته لا تتوقَّف إلّا على وجه ابنة أبو عوض!

أيقظها صوت أحمد، وهو يمدّ يده باللفَّة:

هذا قماش الكفن يا أم محمود.

زجرته بصوت منخفض، وهي تصرف بأسنانها:

أسكت، لا نريد أن ينتبه عمّك مرشد، فإن علم أنَّني أرسلتكم لبيت جبرين لشراء قماش الكفن سيغضب علينا جميعًا، وغضبه سينصبّ على رأسي.

دخلت في غرفة مرشد وذوابة، ودسّت قماش الكفن بين طيّات الفراش.

عندما خرجت من الغرفة، التقطت أذناها سؤال مرشد، وقد تنبَّه لظهورهم فجأة:

أين كنتم.. ها؟

ردَّ أحمد بشطارة:

خرجنا بمحمود، لأنَّه كان يبكي بصوت عال. أردنا أنا وعبد الرحمن أن نبعده عن والدنا، وهو...

لم يعرف ماذا يقول، فلاذ بالصمت، وفوجئ بنفسه ينفجر في البكاء، فاحتضنه عمّه مرشد وأخذ يربِّت على ظهره وكتفيه.

أبوك بخير يا حبيبي.. سلمان بخير يا أحمد.

قعد محمود بعيدًا ووضع رأسه بين ذراعيه، وجلس عبد الرحمن قريبًا منه، ثمَّ جذبه بذراعه وأمال رأسه على صدره، وانخرطا في البكاء معًا.

دخل مرشد، وبعد قليل خرج، وارتفع صوته مناديًا الحاجّ خليل الذي هبَّ واقفًا تاركًا عباءته خلفه.

قال مرشد للحاجّ خليل:

أدخل شوف عمّك سلمان...

دخل الحاجّ خليل، وانحنى على صدر سلمان. أمال رأسه، وألصق أذنه بصدر سلمان، فلم يسمع دقّات قلبه، وجسَّ يده فلم يشعر بأيّ نبض، ثمَّ قرَّب أذنه من فم وأنف سلمان، فلم يشعر بأيّ نَفَس يخرج من فم سلمان.. فرفع رأسه. وحين التقى نظره بنظر مرشد، خاف من انفجار غضب مرشد إن هو أخبره بأنَّ العمّ سلمان مااات، فتهرَّب من لفظ كلمة موت، ورد على نظرة مرشد المتسائلة:

نَفَسه ضعيف يا عمّ مرشد...

هزّ مرشد رأسه:

وأنا قلت: نَفَسه ضعيف.. لكنهَّ بخير إن شاء اللَّه يا خليل.. صحّ؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفعت الشمس وبلغت منتصف السماء، ولا أحد يعرف إن كان سلمان حيًّا أم ميِّتًا.. حتى الحاجّ خليل بات محتارًا.

تدفَّق رجال القرية من حمائل: الذيبة، وعقل، وتيلخ، والغرابات، وحيف، وأبو جبة، والمحروق، وفرشت لهم الفرشات، ورُصَّت الوسائد، فجلسوا يهمهمون، ويلفّون السكائر ويدخِّنون، ويتبادلون النظرات، وعلى وجوههم سحابات الحزن، وفي نظراتهم المتَّجهة إلى باب البيت الذي يتمدَّد فيه سلمان قلق وترقُّب.

همس الحاجّ خليل لمن هم حوله، محاذرًا أن يسمعه مرشد:

سلمان مااات.. واللَّه أعلم، ولكن...

ارتفع صوت المؤذن أبو خميس داعيًا لصلاة العصر، فوقف الرجال واصطفُّوا للصلاة وراء أبي خميس.

سمعوا وهم يركعون صوت الحاجّ خليل:

عمّي سلمان طيّب.. واللَّه العظيم يتنفَّس، و.. حكى معي.

قطع مرشد الصلاة، واندفع إلى الغرفة، وارتمى قرب شقيقه سلمان، وانهمرت قبلاته ودموعه على جبين سلمان ووجهه وشاربه وأنفه.

تساءل الحاجّ خليل مبتسمًا:

يا عمّ سلمان.. لك من قبل الظهر حتى ما بعد صلاة العصر وأنت غائب عن الدنيا.. يعني.. ماذا شفت وأنت في المو...

برم سلمان رأسه، وافترَّت شفتاه عن ابتسامة خفيفة، وبصوت بالكاد يسمع:

ما شفت شيء يا خليل.

سأله خليل بلهفة:

يعني ما في آخرة.. لا جنّة ولا نار!

بنَفَس متقطِّع، وطيف ابتسامة على وجه سلمان:

اطمئن يا خليل: لا جنَّة ولا نار...

جلجلت ضحكة مرشد، الذي احمرَّت عيناه لشدَّة بكائه:

الله عليك يا سلمان يا حبيبي، حتى وأنت على فراش ال... تتمسخر، و...

قبل أن يكمل مرشد كلامه، التوى رأس سلمان على الوسادة، وانطفأت نظرة عينيه، فأخذ مرشد يرتجف، ويهزّ جسد سلمان. عندئذ خرج الحاجّ خليل، وأجال نظره فوق رؤوس الحضور الذين أرهفوا آذانهم لسماع شيء عن حالة سلمان:

العلم لله.. أقول: العلم لله.. أن عمِّي سلمان قد أعطاكم عمره يا أهل ذكرين.

انتفضوا واقفين، وتجمَّعوا عند باب الغرفة، وقد ارتفع نواح مرشد، بينما من خلفهم ناحت فاطمة وذوابة نواحًا يقطِّع القلوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفعت أصوات:

إكرام الميِّت دفنه يا أزلام.

ما زال في النهار ضوء، فلنحفر القبر بسرعة ولندفن الرجل يا أزلام.

مرشد التصق بصدر شقيقه وغمره، فلم يبن وجهه بسبب انحنائه وتشبَّثه به. حاول الأقارب رفعه، ولكنَّه لم يتزحزح.

رفع الغطاء عن سلمان، واندسّ بجواره وألصقه بصدره.

قال عبد القادر عزيزة:

يا عمّ مرشد: القبر سيجهَّز بعد قليل، و.. لا بدّ من غسل بدن العمّ سلمان، وتجهيزه.. هداك الله يا عمّ. أنت رجل مؤمن، والأعمار بيد الله.

أغمض مرشد عينيه وسدّ أذنيه، وما عاد يعي ما حوله.

أخذوا يهزُّونه:

وحِّد الله يا عمّ مرشد.

كل نفس ذائقة الموت.. هداك الله.

فجأة، انتفض وهبَّ واقفًا، وصاح في وجوه الرجال المتجمِّعين:

يا أهل ذكرين: سلمان لن يدفن اليوم.. الليلة سننام، أنا وإيَّاه معًا، كما كنّا ونحن صغار.. وغدًا صباحًا تدفنونه. والله لو انطبقت السماء على الأرض ما دفنتموه اليوم.. هذا آخر كلام عندي.

تساءل الحاجّ خليل:

ولكنَّنا ندفن موتانا بسرعة بعد موتهم يا عمّ مرشد. فلماذا نبيِّت العمّ سلمان؟ كل الناس...

صاح به مرشد بصوت مرعد:

أسكت يا خليل. هل سلمان مثل كلّ الناس يا خليل؟ هذا سلمان يا خليل.

تراجع خليل مبتعدًا عن مرشد، ودخل بين الحضور محتميًا بهم، خشية من أن يوجِّه له مرشد لطمة، أو يهوي بعصاه على رأسه.

عاد مرشد وارتمى بجوار شقيقه، وألصق بدنه ببدنه، ودفن رأسه ورأس شقيقه تحت الغطاء.

قال سالم شيخ الذيبة:

اسمعوا يا ناس: أنتم تعرفون مرشد، هو حليم، وطيِّب، ويكرم الناس، ولكن إذا غضب فلا تقتربوا منه. أنستيم أنَّ أمّه عجّوريّة، وأخواله عجاجرة. أنتم تعرفون طيبة أهل عجّور وعنادهم. نلتقي هنا مع صلاة الفجر. نصلِّي الفجر معًا، ونغسّل ميِّتنا وندفنه.. و.. قبل ما أمشي: عليَّ الطلاق غير الغداء يا دار أبو شاور، ويا أهل ذكرين.. في مضافة الذيبة بكرة. العمّ سلمان غالي علينا جميعنا.

قال حرب:

سبقتني يا عمّ سالم...

وضع الشيخ سالم راحته على كتف حرب:

نحن وعائلة تيلخ واحد يا حرب. هيِّئوا القبر مبكرًا.. يا حرب، ولندفن سلمان بعد صلاة الظهر، وبعدئذ نلتقي في مقعدنا للغداء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمدَّدوا تحت العريشة، وفي حوش الدار. التفّوا بعباءاتهم وتهامسوا متمايلي الرؤوس مستذكرين أهلهم الذين ماتوا، ومتحزّرين على أعمارهم، مَنْ أكبر من الآخر، والدور على مَنْ في الموت.. حتى شقشق الفجر.

نفض حرب عباءته عن بدنه، ودلق من الإبريق حفنة رشها على وجهه كي يطرد النعاس.

دفع باب الغرفة وتأمَّل مرشدًا، فوجده يضع رأس سلمان على ذراعه، ويلصق وجهه بوجهه ويحتضنه بذراعه اليسرى.

مرشد.. يا صاحبي.. انهض. أكثر من هيك سيلومك أهل ذكرين، وسيتقوّلون عليك. أنت رجل مؤمن.. يلّا يا صاحبي، الفجر طلع، والناس ينتظرون، لم يذهبوا إلى بيوتهم من أمس.. أقاربكم، وجيرانكم، وكثير من رجال حمائل ذكرين.

رفع مرشد رأسه. سحب ذراعه من تحت رأس سلمان. قعد ومسح على وجهه، ثمَّ نهض ووقف وجهًا لوجه مع حرب، وتعانقا:

يلّا يا حرب يا صاحبي.. فلندفن سلمان.

خرجا معًا، فالتفّ حول مرشد الأقارب، ومن بقي من أهل البلد، يعانقونه ويعزّونه.

قال حرب:

الماء ساخن، والكفن جاهز، فلنجهِّز الشيخ سلمان يا ناس.

دخل الأقارب، وحرب، ونقلوا سلمان من الفراش ومدَّدوه على لوح خشبيّ، وخلعوا عنه ملابسه، ثمَّ بدأوا في تغسيله، والتشهُّد عليه، والدعاء له، وملأوا عينيه بتراب من أرض ذكرين، ولفّوه بالكفن، وارتفع تهليلهم، ورفعوا الجثَّة المغطاة بلحاف ومدَّدوها على لوح خشبيّ، وخرجوا به، فارتفع التكبير والنواح، واختلطت عبارات الترحم بالتفجُّع.

مضوا بسلمان، ومرشد بينهم يهزّ رأسه ذاهلًا، متهدِّل البدن، وهو يردِّد: استعجلت يا أخي.. والله لم أشبع منك.. أخس على الدنيا الغدّارة.. يعني تروح وكأنَّك لم تكن يا أخي.. آخ يا سلمان.. آخ..آخ من الموت يا سلمان!

الجزء الثاني

عندما فرغ من صلاة العصر وضع عباءته على كتفه وحمل عكّازه، وتنهَّد كأنَّه يزيح حملًا ثقيلًا يجثم على صدره، فزيارته لبيت قريبه عبد الرحيم عوض تثقل على نفسه، فالرجل وإن كان ابن عمّ، ومن صلب الحمولة، إلّا أنَّه محكوم لامرأته التي توجِّهه كيفما تشاء.

كان يفكِّر وهو يتوجَّه إلى بيت عبد الرحيم: هذا مشوار لا أحبّه، فالكلام مع هذا الهامل غير مجد، فهو لا يحلّ ولا يربط، وامرأته لا تهمّها قرابتنا، فهي غريبة، وأنت يا محمود!.. آه يا محمود: ألم تجد سوى بنت هذا الهامل تتعلَّق بها!

قرع البوابة بعصاه، فسمع صوت المرأة، استعاذ باللَّه.

فتحت البوَّابة، ورحَّبت:

أهلًا يا عمّ مرشد، خطوة عزيزة.

أمَّا هو، فردَّ بصوت أراد أن يسمعه عبد الرحيم:

دستور يا قرابة، أين أنت يا ابن عمّنا؟

برز الرجل من داخل غرفة النوم، واندفع فاردًا ذراعيه:

زارتنا البَرَكة يا أبو العبد.

فردوا له فرشة لا توضع إلّا تحت الضيوف الأعزّاء. أسند مرشد ظهره إلى الجدار، في حين جلس عبد الرحيم قبالته، وقد بدا على وجهه الحرج، فهو خمَّن سبب زيارة مرشد.

ابتدره مرشد بالكلام:

أنت لا تسأل عنَّا، فقلنا نسأل عنك يا ابن عمِّنا.

فرك عبد الرحيم يديه:

ما لنا غنى عنكم يا عمّ مرشد، ولكنْ أنت تعرف هموم الدنيا.

رفع مرشد صوته لتسمعه زوجة أبي عوض:

تعلَّمنا من أهلنا أنَّ ابن العمّ يُنزل العروس عن ظهر الفرس يا قرابة!

أخذ عبد الرحيم في فرك يديه كأنَّه يغسلهما، متحيِّرًا في الجواب الذي سينجيه من عتب مرشد الشديد.

سأدخل في الكلام بدون لفّ ودوران يا ابن عمّنا: محمود ابن سلمان.. سلمان يا ابن العمّ، الذي كان يحمي حمولتنا من طمع الطامعين في أرضنا، حامي الحمى سلمان، ابنه محمود يريد ابنة عمّه وطفاء، فماذا تقول إن كانت الكلمة كلمتك؟!

مرشد كلامه كالسيف، هذا يعرفه عبد الرحيم، وأهون الكلام ما سمعه، فالكلام الجارح سيأتي عندما يبرِّر له رفض طلبه.

تململ في جلسته، ومرَّر يده على ذقنه، ثمَّ دفع بعقاله وكوفيَّته من فوق جبينه، وتنهَّد بعمق:

زيارتك عزيزة علينا، والعمّ سلمان كبيرنا، وقدره حاضر حتى وهو ميِّت، ومحمود ابننا، ولكن يا عمّ مرشد: وطفا خُطبت.

هنا قاطعتهما امرأة عبد الرحيم، وهي تدخل حاملة صحنًا فيه حامض حلو، وملبَّس ملفوف بالورق، وضعته أمام العمّ مرشد:

تفضَّل يا عمّ مرشد. هذا من الخليل، فأمس ذهبنا إلى هناك، وعقد ابن أخي على وطفا، والعرس بعد أيَّام يا عمّ مرشد، فسيأخذونها إلى قرية العريس.. كرتيا، بلد أهلي الذين أخذتموني منهم، وأهلي مش غرباء يا عمّ مرشد، فهم أصهاركم!

دفع مرشد الصحن بقفا أصابعه، فتدحرج من أمامه، وتناثرت حبَّات الملبَّس، ومدَّ يده والتقط عصاه، فأبعد عبد الرحيم رأسه، وتزحزح في قعدته، فهو يعرف مدى غضب مرشد.

ومرشد يقوم، ارتفع صوته ممتلئًا بالغضب:

أنت، ليس لك أقارب تشاورهم يا هامل. أنت مشورتك لحرمتك التي قولها عليك فوق كلّ قول!

استوى واقفًا، ومضى متثاقلًا، فارتفع صوت امرأة عبد الفتاح:

خلّينا نسوّي لك شايًا يا عمّ. أمسِ، أحضرنا الشاي والسكر من الخليل، اشتراه أبو العريس.

وارب جسده وزجرها بنظرة حارقة، وغادر وهو يلعن هكذا رجال تحكمهم حريمهم.

كان يقلِّب الأمر في عقله: لو كان سلمان حيًّا لحمل طبنجته ووضعها في رأس هذا الهامل، وأمره أن يبارك لمحمود. تفكَّكت الحمولة بعدك يا سلمان، يا أخي.. فها هي بنت الحمولة تُزوّج دون استشارة أهلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفع بوَّابة البيت، فاندفعت فاطمة وذوابة لملاقاته. سألته فاطمة:

ها، خبِّر، قمحة أم شعيرة؟

نفخ بغلّ:

شعيرة.. وشعيرة مسوّسة يا فاطمة، فالبنت عقدوا عليها لابن خالها، وسيأخذونها بعد كام يوم إلى كرتيا.

ضربت فاطمة كفًّا بكفّ: وهي تموِّج رأسها بين كتفيها:

اللَّه يفضحك يا أم وطفا يا عائبة.. كسرت قلب ابني.

قال مرشد:

العائب قريبنا يا فاطمة، فهو ينخّ لامرأته كالبهيمة.

أغمض عينيه، وبدا كأنَّه يغفو، في حين كان يفكِّر في أيّ من بنات البلد يزوِّجه إيّاها، فلن يطفئ نار قلب محمود سوى تزويجه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضغطت راحة محمود على شبريّته، وهو يراقب بوّابة بيت عبد الرحيم عوض. حدَّث نفسه: لا، ليس هذا الزلمه من أعمامي، ولا من حمولتنا، إنَّه امرأة، ليس من نسل أجدادنا. امرأته تتحكَّم به، وهو لا يردّ لها كلمة. ماذا لو هجمتُ عليهم وأشهرتُ شبريّتي في وجوههم، وانتزعت وطفا من بينهم، وهربت بها؟ ولكنْ ما يدريني أنَّها سترضى، وتهرب معي؟ سأفضح حمولتي، وألحق العار بالبنت، وربَّما يهجمون عليّ جميعهم، فماذا يحدث لو قتلت أحدًا منهم؟ لا، هذا لا يجوز.

انزلق بدنه لصق الجدار وهو يرتجف. رأى نساء ينبثقن من بيت قريب، فتحرَّك متثاقلًا، ثمَّ أسرع في مشيته، وكأنَّه يمرّ مصادفة من أمام بيت وطفا.

فردت أمَّها ثوب العرس، والتمعت عيناها وهي تتأمَّله، ورفعته بين يديها لتراه وطفا بكامل تطريزه، بينما وطفا تنظر إلى أمَّها بعينين ذاهلتين، وكأنَّها لا ترى الثوب الذي احتاج تطريزه لعشرات شلايل خيوط الحرير الملوّن.

سيفرح بك عريسك عندما يراك، وأنت تختالين بهذا الثوب الذي طرَّزته أيدي أمهر نساء قريتنا. الله يبارك له، فهذا الثوب يليق بك!

صمتت قليلًا، ووضعت الثوب بحرص على الفراش:

واللَّه، إنَّه يستحقك.. وأنت تستحقّينه.. شابّ مثل عود الرّمّان: طول، وطلعة، ما في مثله شابّ في كلّ البلد، حتّى ولا في بلدكم ذكرين.

سدَّدت وطفا نظرة غاضبة تطفح مرارة في وجه أمَّها التي تقول (بلدكم)، وكأنَّها تفضِّل بلد أهلها على بلد زوجها وحمولته، وأهل ذكرين الذين ستستوحش لهم بعد رحيلها.

أمَّها تعرف أنَّ قلبها مع محمود، وأنَّها لا ترتاح لابن خالها، ولكنَّ الأمّ تميل لابن شقيقها، ولأهلها، والوالد يوافق الأمّ في كلّ ما تقول، فماذا تفعل؟

تعالي احملي معي دست الماء.

خرجت معها صامتة، وأمسكت بحافَّة الدست من جهتها، والأمّ من الجهة المقابلة، ثمَّ خطتا مائلتين مواربتين بالدست، ودخلتا الغرفة محنيَّتيْ الجسدين، بينما وطفا تشيح نظرها حتى لا تلتقي عيناها بعينيْ أمّها.

نصبت الأمّ جسدها، وأمرتها وهي تغلق الباب:

اخلعي ثوبك...

خلعت ثوبها كالمنوَّمة، ووقفت في منتصف إناء الغسيل.

أشارت لها أمّها أن تقرفص، ففعلت، فأخذت تدلق الماء على رأسها، وتفرك شعرها بالصابون النابلسيّ:

الله يبارك لابن خالك الذي يستأهلك. شابّ حلو وبنت مثل القمر.. الله يبارك ويسعد!

أزاحت يد أمّها عن جسدها:

وبعدين معك.. اسكتي، أو لن أغتسل.

يجب أن تظهري جميلة ليراكِ عريسك، وخالك، وأهلي القادمين لاصطحابك إلى كرتيا.

قالت مغضبة:

كرتيا بعيدة يمّا. كرتيا عند غزّة، وغزّة بعيدة يمّا.

سنأتي أنا ووالدك ونزورك دائمًا، وسيصحبك عريسك إلى غزّة، ويشتري لك حاجات تُفرح قلبك من هناك.

سمعتا هدير سيّارة، فأسرعت الأمّ في دعك جسد ابنتها بالصابون الممسك، بعد أن فرغت من تنظيف شعرها بصابون الجمل النابلسيّ.

نشَّفت جسدها، وانهمكت في تسليك شعرها، وتسريحه، ومن ثمَّ في تكحيل عينيها، ودعك خديها ليحمرّا.

تأمَّلت عينيها الواسعتين، وفركت راحتيها وهي تبتسم:

اللَّهم صلِّ على النبي.. قمر ليلة تمامه.. سينسحر ابن أخي بجمالك.

لمَّا زوَّجوني من والدك، وأحضروني إلى ذكرين، انذهلت نساء البلد! فلم تكن بينهن من هي أحلى منِّي، وها أنتِ لن يكون في كرتيا أحلى منك بين نساء بلد أهلي.

ارتدت البنت ثوبها وهي واجمة، ورشَّت عليها أمّها عطرًا أحضرته من الخليل، وادّخرته لها لهذا اليوم.

دسَّت الزجاجة في صندوق ملابس العروس، الذي تفوح منه رائحة العطر والحنّاء والصابون الممسّك.

دائمًا تطيّبي لزوجك، فالزوج روح قلبه الرائحة الطيِّبة.

خرجتا، فإذا بالأهل يقفون في ساحة البيت. توجَّهت إلى شقيقها وقبَّلت يده، ثمَّ تباوست مع زوجته، وأخذت تعبط كلّ واحدة من البنات، وهي تردِّد اسمها.

قال شقيقها أبو يوسف:

نريد أن نغادر يا أختي، لأنَّ مشوارنا طويل.

ثم تفطَّن إلى عبد الرحيم الذي كان يقف خلفه، وهو يفرك يديه محتارًا:

نستأذن منك يا نسيبنا...

وأضاف ضاحكًا:

أخذت أختنا، وها نحن نستردّ بدلًا منها ابنتها.

أمسك عبد الرحيم بنسيبه من ذراعه، وحلف:

واللَّه العظيم، غير تتعشّوا...

قبل أن يكمِّل قسمه، قاطعه والد العريس:

انشاها اللَّه يا نسيبنا. نريد أن نرجع للبلد على الفضا، ومشوارنا طويل، ونحن وأنت واحد.

ارتفعت الزغاريد، وتدفَّقت القريبات والجارات مع لعلعة الزغاريد، وفاضت دموع لحظة الوداع، فالقريبة والجارة العزيزة مأخوذة بعيدًا إلى قضاء غزّة! وهيهات أن تراها العيون.. يا من يدري متى؟!

كانت تدور بين الأحضان ودموعها تسيل بغزارة، وهي تشهق هازَّة رأسها، غاضَّة نظرها، وقلبها يخفق، وهي تتحسَّر بدون كلام: آه لو أنَّ عريسي هو محمود ابن العمّ، وعرسي هنا في ذكرين. آه لو أنَّني بقيت هنا مع أهلي وجاراتي.. آه منكِ يا أمّي!

رمى خالها عباءته على رأسها ، فانسدلت على بدنها، ثمَّ مضى بها هو ووالدها، كل واحد يحتضن أحد ذراعيها. مشت ببطء، والنسوة يطللن من بوابات البيوت، ويزغردن، ويلوِّحن لها، ويوصينها بأن تعود لزيارة بلدها وناسها، وأن لا تنساهم!

صعد خالها بجوار السائق، وأجلسها بجواره، ثمَّ صعدت النسوة وأمّ العروس في صندوق الأوتومبيل، وقد ثبَّتن أنفسهنّ لصق جدران الصندوق، وتشبَّثن بالعوارض الخشبيَّة ليتفادين خضّها لهنّ.

انطلقت سيَّارة الشحن في أزقّة القرية وزمورها يسبقها، وغادرت عابرة البيادر، ومارّة بالكروم إلى كرتيا.

وارب محمود بوّابة كرم خاله إبراهيم، ومدَّ رأسه بحيث يرى ولا يُرى، فاندفعت السيَّارة مخلِّفة زوبعة من الغبار، فلم يتبيَّن في الغبار شيئًا، وامتلأت عيناه بالدموع والغبار، وامتلأ صدره بهواء ثقيل خانق، فأقعى بجوار البوابة، وكوَّر جسده وهو يحاول التقاط أنفاسه، ومسح دموعه بطرفيْ كوفيَّته، وشعر بدوار يدوِّخ رأسه ويفقده توازنه، فتشبَّث بساق الشجرة، ووجد نفسه ينزلق على التراب وهو يلهث، وكأنَّه سيختنق، وروحه ستغادر بدنه.

تحسَّس شبريَّته، وتخيَّل أنَّه يغمدها في صدر والد وطفا، ولكنَّه دفع الفكرة السيِّئة عن رأسه، وتخيَّل أنَّه يغمدها في صدر أمّ وطفا، ولكنَّه استبعد الفكرة، وأغمض عينيه، وارتخى بدنه لصق شجرة التين، وشعر أنَّه مهدَّم، وأنَّ الدنيا ظلام، فوطفا راحت.. راحت بعيدًا، وهو لن يراها بعد اليوم، فقد صارت لغيره.

ثلاثة أيّام وهم يمشون، بطونهم فارغة، ورؤوسهم تترنَّح على أبدانهم من شدّة النعاس والتعب.

قال لهم قائدهم سالم الدوايمي:

اتبعوني...

فتبعوه، وبعد أن قطعوا شوطًا بين التلال والأحراج، أدركوا أنَّه يقودهم إلى ذكرين، القرية التي لم تقع فيها معركة مع الإنكليز، والتي لا يوجد منها واحد بينهم.

لمَّا صاروا على مقربة من آبارها، أشار لهم أن يقعدوا تحت أشجار الحرج القريب، فتهاوت أبدانهم، ورموا رؤوسهم على أيديهم، وغفوا، وارتفع شخير بعضهم.

كانوا سبعة، وهو ثامنهم. لبث واقفًا مشدود البدن رغم تعبه:

يا أزلام، سأدخل إلى ذكرين. سأترك بارودتي عندكم، واحتفظ بمسدَّسي. لينم بعضكم، ويبقى مستيقظًا بعضكم. سأتدبَّر مكانًا لنا ننام فيه، وننال بعض الراحة، ونغسل أجسادنا التي تفوح رائحتها الكريهة، ونجد شيئًا نأكله.

دخل ذكرين من جهة الآبار، وانعطف وصعد مع الطريق، وعند باب كرم مرشد توقَّف، وأطلّ من فوق بابه ماطًّا جسده، ثمَّ دفعه ودخل بسرعة، وأجال نظره تحت الأشجار، فلمح الشيخ مرشد وهو ينكش حول شجرة في آخر الكرم، فانسحب بهدوء دون أن يلفت انتباه الرجل، وغادر، ودخل ذكرين من جهة البيادر.

قرع بوّابة بيت مرشد، فسمع صوتًا نسائيًّا، فخمَّن أنَّها أمّ محمود، تسأل:

ميين؟

ردّ:

افتحي يا خاله فاطمة. أنا سالم.

فتحت البوّابة مواربة، وسألت:

ميين؟

أين محمود يا خالة؟ أنا سالم.. الدوايمي؟

ردَّت عليه:

يا أهلًا يا ولدي، محمود في المضافة يا ابني.

كان يعرف المضافة التي نام فيها عدّة مرَّات مع والده، صاحب سلمان والد محمود، فاتَّجه إليها غير قلق، فهو يعرف بأنَّ أكثريَّة رجال القرية في حقولهم وكرومهم.

المضافة مفتوحة الباب، ومحمود متمدِّد ورأسه على ذراعه:

همس سالم، وهو يقف بالباب:

العوافي يا محمود.

رفع محمود رأسه:

هه: سالم...

نهض وعانق صاحبه، وابن صاحب والده:

يا مرحبًا.. يا سالم.

تأمَّله: حطته وسخة، ووجهه مرهق بالتعب، وبدنه متهدِّل كأنَّه سيسقط.

ارتمى سالم على الحصيرة:

اسمع يا محمود: نحن منذ ثلاثة أيّام بلا نوم، وبالجوع، ونحتاج أن نغسل أجسادنا ونريد أن نأكل، وننام، ونغتسل، ونغسل ملابسنا.. ثمَّ نستأنف مسيرنا. الإنكليز فقدوا عقولهم بعد معركة الريحية، ونحن نضلِّلهم بتحرُّكاتنا السريعة.

سأله محمود:

أين جماعتك يا سالم؟

في مكان قريب، ولكنَّهم لن يدخلوا في النهار، فهم مجموعة، ويحملون بنادقهم، وسيلفتون الانتباه. لا نريد أن يشعر بنا أحد. سننام الليلة عندكم، ونبقى نهار الغد إن أمكن، ثمَّ نستأنف سيرنا.

●●

توجَّه سالم وأحضرهم، ودخلوا ذكرين بعد غياب الشمس، فوجدوا الماء ساخنًا، والطعام جاهزًا، فانهالوا على الطعام، وتناوبوا على الاغتسال، وكوَّموا ملابسهم، فحملها محمود لتبدأ مليحة بغسلها، ونشرها.

همس محمود لعمّه مرشد بأنَّ سالم ورجاله في المضافة، فضغط عمّه على كتفه:

أكتم السرّ، ولا تدع أحدًا يدخل عندهم.

وقف حسن في مدخل الزقاق، وأخذ محمود الحاج وعبد الرحمن يتجوَّلان في أزقَّة البلد، بينما فتح إسماعيل قيس دكَّانه، وبقي فيها حتى وقت متأخِّر، وعيناه تراقبان كل عابر.

مرَّت الليلة بسلام ونام سالم ورجاله نومًا متقطِّعًا، وفي الصباح أحضر محمود وحسن الخبز الساخن، والبيض والزيت واللّبن، فأكل سالم ورجاله بنهم.

عند الظهر أحضر محمود وحسن ملابسهم وقد جفَّت، فارتدوها، وتهيَّأوا للمغادرة مع هبوط الليل.

انتحى محمود بسالم خارج المضافة، وهمس كأنَّما هناك من يسمعه:

أريد أن أكون معكم يا سالم!

لكنَّك لا تملك سلاحًا.

أملك: اشتريت بارودة يونانيَّة معها عشر رصاصات.

صفن سالم:

ولكن العمّ مرشد سيزعل منِّي يا محمود!

لن يزعل، فهو يكره الإنكليز، وهو ما زال يبكي على تركيّا!

ضحك الدوايمي:

ولكنّنا نقاتل الإنكليز لنخرجهم من فلسطين، وليس لنعيد تركيا...
سأرافقكم يا سالم.. وإذا لم تأخذوني معكم، سأبحث عن غيركم.
في المساء، خرجوا من ذكرين، ومعهم تاسع: محمود الذكريني.

استفاق أهالي بيت جبرين، وذكرين، وعجّور، ورعنا، وكدنا، وتل الصافي، وقرى أبعد تتبع لمدينة الخليل، على غبار يتصاعد عاليًا في السماء، وجنود إنكليز يراقبون ما يجري، بينما آلات كبيرة تحفر، وتدور حول منطقة واسعة، هي أرض مشاع لا يزرعها أحد، تُركت كمراع لأهل بيت جبرين والقرى المجاورة.

أخذ بعض القرويِّين يقتربون، مخمّنين ما يجري، دون أن يتوصَّلوا إلى فهمه، فأفكارهم تذهب في اتّجاهات شتّى، ولكنَّهم استقرُّوا على أنَّ الإنكليز سينشئون معسكرًا كبيرًا لجيشهم، وأنَّهم ربّما يحتاجون لعمّال عرب في المعسكر، كما في معسكراتهم الكبيرة التي استوعبت عمّالًا كثيرين من كلّ أرجاء فلسطين، قبل بدء الحرب مع الألمان.

تفاءلوا وهم يتابعون عن بعد تدفُّق السّيّارات، وبدء بناء البيوت الخشبيَّة بسرعة، وبخاصّة من عملوا في معسكر صرفند من قبل، فهم منّوا أنفسهم بالحصول على عمل في المعسكر القريب.

استمرّ الحفر، ورفع سور أسلاك شائكة حول المساحة الشاسعة. اقترب أهل القرى، وحتى الرعاة، من المكان الذي ضجَّ بالحركة، وظلُّوا يخمِّنون، ولا يجدون جوابًا يريحهم.

يومًا بعد يوم، اقترب الفضوليّون من القرويِّين، ومن أرسلهم مخاتير القرى ليستطلعوا الأمر، وحاولوا أن يتعرَّفوا بالنظر على ما يجري، لكنَّهم باءوا بالفشل، فمن يعملون يرطنون بلغة لا يفهمونها.

وها قد ظهرت بيوت لا تشبه بيوت الفلّاحين، جدرانها من خشب، فتحزّر بعض المستطلعين الذين عملوا من قبل في معسكرات الإنكليز: ألا تشبه براكيّات المعسكرات الإنكليزيَّة؟ أجاب بعضهم: آ.. ولكنَّها تختلف أيضًا.

وذات صباح، قرع مرسلون أبواب بيوت المخاتير في القرى القريبة، وطلبوا منهم بأمر من القائد الإنكليزي الحضور إلى موقع العمل صباح الغد، قبل صلاة الظهر.

تدفَّقت إلى المكان سيّارات تحمل نساء ورجالًا وأولادًا، وهذا ما أدهش من يسترقّون النظر، وبلبل أفكارهم.

رأوهم يتقافزون من الحافلات، وينزلون أغراضهم من الشاحنات، ثمَّ يتوجَّهون إلى تلك البيوت الغريبة، فأيقن الفضوليّون أنَّ ما يقام ليس معسكرًا إنكليزيًّا!.. فماذا يكون؟!

تراكض بعضهم، وأخبروا المخاتير في القرى المجاورة عمّا رأوه، فوَجَمَ القوم، وازدادوا حيرة.

بعض أولادهم الذين يدرسون في القدس، تجرَّأوا وأخبروا المتجمّعين في المضافات: هؤلاء يهود.

المختار ياسين أبو سلامة، أكبر مخاتير بيت جبرين عمرًا، سأل ابن أخيه مسعد مستنكرًا، عندما سمعه يؤكِّد بأنَّ ما ينشئه الإنكليز هو مستعمرة يهوديَّة:

شو قلت يا مسعد؟!

مسعد تقدَّم لامتحان المترك ليشن، وهو في عطلة، حضر من القدس بانتظار نتيجة الامتحان الذي تقدَّم به في الكلّيّة.

أعاد المختار السؤال على ابن أخيه ليتأكَّد:

كيف عرفت يا مسعد؟!

فنجر الحضور في المضافة عيونهم، وبدت على وجوههم حيرة وقلق واستنكار:

ردَّ مسعد، وهو يزيح نظره عن وجه عمّه:

يا عمّ: اليهود يتسلَّلون إلى فلسطين بعلم الإنكليز، وهؤلاء يهود، والإنكليز يمنحونهم الأرض المشاع، ويسرّبونهم في غفلة من الناس. الإنكليز يضعون أيديهم على الأرض بحجَّة أنّها للدولة.. يعني للإنكليز يا عمّ!

قال المختار مستنكرًا:

نحن سمعنا عن تسريب الإنكليز لليهود، ولكن: كيف يحضرونهم إلى قرانا، ويستولون على أرضنا؟!

ردَّ مسعد على تساؤل عمه:

يا عمّ: اليوم أرسل لكم الإنكليز، وغدًا ستسمعون منهم، سيهدِّدونكم، ولكن بطريقة إنكليزيَّة!

أخذ المختار ينكت بعود صغير الكانون أمامه، والذهول باد على محيَّاه، وهو ما سرَّب القلق والحيرة إلى نفوس الحضور:

أنت تعرف لغتهم يا ولدي، أليس كذلك؟

نعم يا عمّ، ولكنَّهم سيحضرون مترجمًا معهم، ابن عرب، ينقل كلامهم لكم، وكلامكم لهم.

عندي فكرة: تحضر معنا غدًا، وتخلع عنك ملابسك الإفرنجيَّة هذه، وتلبس ملابسك العربيَّة، حتى تبدو فلَّاحا لتسمع كلّ كلامهم، وتخبرنا به بعدئذ.

ثمَّ أضاف المختار:

فعلًا إعرف لغة القوم تأمن شرّهم.

انفضّ الحضور، وبقي المختار جالسًا وحده. أسند ظهره إلى الحائط، ومسح على وجهه براحته، وهو يردِّد: اللّهمّ احمنا ممَّا يُبيَّت لنا يا ربّ! لعنة الله على الإنكليز.

وهو شارد الذهن، قال لنفسه: بكرة.. بكرة.. بكرة سنعرف ما يخبِّئه لنا الإنكليز. لقد وصلنا البلاء، وكنّا نظنّ أنَّه بعيد عنّا.

●●

تجمَّع المخاتير أمام مضافة المختار ياسين أبو سلامة، ومن هناك انطلقوا على صهوات خيولهم، ووراءهم مشى حشد من وجهاء القرى غاذّين السير وهم يلهثون.

أخذ المخاتير يجيلون نظرهم حولهم، متهرِّبين من الكلام واحدهم مع الآخر، فهم مهمومون، متوتِّرون، فالإنكليز لم يزوروا قرية إلّا وهم يحملون أنباء سيِّئة، ولم تظهر خيولهم وسيّاراتهم إلّا وهي تفتِّش، وتطارد، وتتوعَّد، وتهدِّد، ولا ترحل إلّا بعد أن تترك وراءها الحزن والعويل.

عندما اقتربوا من المكان، تأمَّلوا المشهد مشدوهين، فقد أحيط بالأسلاك الشائكة، وبأبراج على أطرافه الأربعة، وعند البوابة تجمَّع حشد من عساكر الإنكليز، واصطفت سيّارات، وخيول يمسك بأرسنتها جنود بنادقهم في أيديهم.

ترجَّل المخاتير والوجهاء عن صهوات خيولهم، وتركوا ألجمتها لأتباعهم، وتوجَّهوا إلى الحلقة، ورفعوا أيديهم على رؤوسهم محيّين، وهم يردِّدون: السلام عليكم.

أشار لهم ضابط أن يجلسوا على الكراسي، فجلسوا صامتين حائرين؛ ومن داخل المكان المحاط بالأسلاك، والذي دبّت فيه الحركة، ظهر رجال بملابس قصيرة تكشف أفخاذهم، ينهمكون في العمل دون أن يأبهوا بالمخاتير.

تبادل المخاتير النظرات صامتين حائرين، دون أن ينبس واحدهم بكلمة، وهم يرون نسوة سافرات وحولهنَّ أطفال يتقافزون.

اندفعت سيّارة عسكريّة صغيرة من داخل المكان، وتوقَّفت مثيرة زوبعة من الغبار بين مدخل المكان وموقع الاجتماع.

ظهر ضابط كبير بعد أن توقَّفت السّيّارة، وصبّ نظرة باردة على الحضور.

التفّ حوله جنود وضبّاط، فتقدَّم ببطء وهو يشدّ قامته المديدة، وحين اقترب من الحضور رفع يده إلى جبينه، وقال بعربيَّة مكسَّرة:

سلام أليكم...

ردّ المخاتير على تحيَّته ووقفوا، فأشار لهم أن يجلسوا، فجلسوا.

غمز لشابّ يرتدي ملابس مدنيَّة، فاقترب الشابّ الذي بدا أنَّه ابن عرب، فأخذ يرطن معه بلغته التي لا يفهمونها، والشابّ يهزّ رأسه، وهو ينقل نظره بين الحضور، موحيًا أنَّ الكلام الذي ينطق به الضابط موجَّه لهم.

تنحنح الشابّ، وبدأ:

الكولونيل يرحِّب بكم، وهو يخبركم بأنَّ هؤلاء الذين ترونهم هم ضيوف عندكم، وبأنَّهم شُرِّدوا بسبب الحرب، وأنَّ كثيرين من أقاربهم قُتلوا قبل أن ينجوا ويصلوا عندكم.

هذه الأرض للحكومة، ونحن مؤقتًا سنسكنهم هنا.. وسيكونون جيرانكم، وأنتم العرب تكرِّمون الضيف والجار، لهذا طلبت اللِّقاء بكم.

سيكون لجيرانكم مختار، حتى يتَّصل بكم، وتتَّصلون به، وهو يحكي عربيّ، فهو يهوديّ عربيّ.

ظهر من وراء الضابط الكبير والجنود رجل يضع على رأسه طاقيّة صغيرة، وتقدَّم وهو يرفع يده إلى رأسه، ويحيِّي الحضور: السلام عليكم..أنا أخوكم موشي.. يعني موسى كما تلفظون الاسم. المساكين الذين ترونهم في هذا المطرح هربوا من

بولونيا، وحكومتنا استقبلتهم لتحميهم من الموت.. من الألمان الملاعين. أنا يهوديّ عربيّ مثلكم.

أومأ الضابط لموسى، فسكت، ثمَّ استأنف كلامه للمترجم، الذي خاطب الحضور:

الكولونيل يريد وعدًا منكم بالحفاظ على الجيرة، وإلّا فإنَّ حكومة صاحب الجلالة ستغضب عليكم، وهذا ما لا نريده. كلّها فترة صغيرة، ويعود هؤلاء الناس من حيث جاؤوا.. إلى بلادهم.

تقدَّم رجل عربيّ الملامح، وهو يحمل بكرج قهوة سادة، وانهمك في صبّها في الفناجين، وتقديمها لهم.

ارتشفوا قهوتهم صامتين، كأنَّهم في عزاء، فهم لا يعرفون من هم هؤلاء الضيوف، ولا ما ينوي الإنكليز فعله.

مال المختار ياسين أبو سلامة على مختار ذكرين أبو إسماعيل الجالس بجواره، وهمس في أذنه:

كأنَّ الأرض أرضهم، والبلاد بلادهم!. يخبروننا بعد أن أسكنوهم في أرضنا دون إذن منّا، ويفرضونهم ضيوفًا علينا. يحذِّرنا هذا الضابط الكبير ويتوعَّدنا! قال جيران يا أبو إسماعيل.. جيران فجأة، ودون علمنا!!

عاد صوت المترجم ليرتفع، فتوقَّفوا عن التهامس، وتبادل النظرات المستريبة، والغاضبة، ووجَّهوا أنظارهم صوب المترجم، وأرهفوا أسماعهم:

يقول الكولونيل: ها أنتم قد أخذتم علمًا وخبرًا، وهو يتوقَّع منكم أن تكونوا جيرانًا طيِّبين، فهم سيساعدونكم، وستتعرَّفون بهم أكثر في قادمات الأيّام.

ارتفع صوت الكولونيل بلغته التي لا يفهونها، وحين توقَّف، ارتفع صوت المترجم:

يشكركم الكولونيل جورج، ويطلب منكم أن تعودوا إلى قراكم، وتخبروا ناسكم بما أخبرناكم به، حتى لا يقتربوا من المكان الذي أنشأته كمبنى.. يعني شركة، فهذا المكان هو لشركة، يعني هذه ليست قرية، ولا هي معسكر، ولكن الشركة أقامتها لتؤوي هؤلاء المساكين المشرَّدين.. يلّا مع السلامة.

نهضوا، ولفّوا عباءاتهم، ووضعوها على أكتافهم، وبعضهم تسربل بعباءته، وسوّى كوفيَّته وثبَّت عقاله، ثمَّ ساروا في موكبهم الصامت، يتقدَّمهم المختار ياسين أبو سلامة، ورأسه يتقلقل على منكبيه الضيِّقين، ويكاد يسقط أمامه، ووجهه مربدّ، وعيناه تنظران بعيدًا، كأنَّما تحاولان رؤية ما تخبِّئه آتيات الأيّام.

●●

أمام المضافة الفسيحة، وقف فارس الابن الأكبر للمختار ياسين أبو سلامة مرحِّبًا بالضيوف، وحوله شباب من الحمولة. شدَّ المختار جذعه بعدما هبط عن ظهر جواده بمساعدة مسعد، وفرد يمناه:

تفضَّلوا يا مخاتير. يا أهلًا.. يا أهلًا. زارتنا البركة، شرّفتمونا.. يا هلا.. يا هلا بالوجوه الطيّبة واللّحى الطاهرة.

خلعوا نعالهم، وجلسوا على الفرشات، وأسندوا ظهورهم، وتهيَّأوا لسماع رأي أبي سلامة قبل تناول طعام الغداء الذي كانت تهبّ رائحته على أنوفهم.

تخفّف المختار من عباءته، ودفع بكوفيَّته وعقاله قليلًا عن جبينه، فظهر شعره الأشيب الخفيف على رأسه الصغير المستدير.

مرَّر نظره على الضيوف واحدًا واحدًا مرحِّبًا بهم بأسمائهم، ثمَّ ارتفع صوته:

القهوة يا فارس يابا.. القهوة.. قهوتنا الطيِّبة.

عرفوا أنَّه يغمز من القهوة التي قدَّمها الإنكليز لهم.

قال قهوة قال! طعمها سكن ولونها رماد عكر. قهوة يهود وإنكليز!

انهمك سلامة في صبّ القهوة مبتدئًا عن اليمين، ثمَّ حين فرغ، وكانوا يهزُّون فناجينهم، سأل:

حد يا أعمامي يحبّ أن يتنّي...

ارتفعت الأصوات: يخلف يا فارس.. يخلف يا عمّ.

سأل المختار ابن أخيه مسعد:

هل ترجم العربيّ كلام الضابط الإنكليزيّ بالضبط يا ولدي؟

هزّ مسعد رأسه:

أي والله يا عمّي.. ترجمه بالضبط.

أُحضر وعاء معدنيّ كبير، وعاد فارس وهو يحمل إبريقًا، فأخذ المخاتير يتعازمون، ثمَّ مدُّوا أيديهم معًا، فتشابكت الأيدي، وتداخلت الأصابع. وإذ لحظ المختار تشابك الأيدي والأصابع، خاطبهم:

هكذا، بتشابك أيدينا سندرأ الخطر عنّا. أنتم تعرفون كيف تسلَّل اليهود برعاية وحماية الإنكليز في مناطق من بلادنا فلسطين. اليوم جاء دور قرى الخليل التحتانيَّة! إمَّا سيتوسَّعون، أو نحدّ من شرّهم ونحشرهم ونطردهم. لازم نبعد شرّهم عنّا وعن أرضنا. أنتم تعرفون أنَّ شقيقي سرحان استُشهد في الثورة، ولكنْ، كما يقال: من خلّف ما مات، وها هو ابنه.. ابني.. مسعد قد تعلَّم، وبعد كام يوم يحصل على شهادة كبيرة، شهادة المتركوليشن، ويفهم لغة الإنكليز، وسيتوظَّف، ويتزوَّج، وينجب. ونحن نناديه أبو سرحان نسبة لوالده الشهيد.. سرحان.. تذكرونه!

ارتفعت الأصوات:

الله يرحم روحه.

رحمه الله.

ربّنا ما ينسى أحد من رحمته.

من خلّف ما مات...

مات شهيدًا برصاص الإنكليز، قاتلهم الله.

حضر شباب يحملون المناسف، فمدّ أبو سالم أصبعه مشيرًا لهم أين يضعوها، وأمام من، ثمّ فرد راحتيه:

يا مرحبًا.. اتفضّلوا على ما قسَّم اللَّه.

التفُّوا حول المناسف، وانهمكوا في تناول الطعام صامتين، وإن كان بعضهم ينقر قطعة لحم لتتدجرج أمام صاحبه، فيهمهم الآخر: لا تتعب نفسك يا أبو... كلّ أنت يا زلمة... واجبك أنت علينا.

وإذ فرغوا من تناول طعامهم، نهضوا لغسل أيديهم، وكلّ واحد منهم يحاول أن يتنحّى احترامًا ليفسح لصاحبه أن يتقدَّمه.

لبثوا واقفين حتى فرغوا من غسل أيديهم، وكانت فناجين القهوة تدور عليهم، فيرتشفون جرعات صغيرة متلاحقة، ويهزّون فناجينهم، ثمَّ يحمدون اللَّه سائلينه دوام النعمة: اللَّه يخلف عليك يا مختار.. ويبالغ أحدهم: يا مختار المخاتير. فيردّ عليهم، وهو يربّت براحته على صدره: شرَّفتمونا وأسعدتمونا اليوم بحضوركم.

ارتفع صوت أبو إسماعيل مختار ذكرين:

بدنا نسمع كلمتين من مختارنا أبو فارس قبل ما نمشي. ماذا نفعل بهالمصيبة الزاحفة علينا؟

استقرَّت نظرة متسائلة من عينيه الواسعتين السوداوين على وجه أبي فارس، الذي تساءل:

ما رأيكم أن نجلس، ونحكي شوية حكي؟!

قال مختار صميل:

قدَّامنا مشوار الرجعة لقرانا يا مختار.

تساءل:

ولماذا لا تبيتون عندنا يا هالربع. الدار واسعة، وبتوسع بكم أكثر!

قال مختار التلّ وهو قريب لياسين أبي سلامة:

تسلم الدار وصحابها.. خلّينا نتيسَّر مع الفضا يا أبو فارس يا قرابة.

تنحنح المختار، ومرَّر نظره على وجوههم:

يا جماعة صلُّوا على النّبيّ...

صلوا جميعهم على النّبيّ، ووحِّدوا اللَّه، وشنّفوا آذانهم مصغين بانتباه لما سيقوله أكبرهم سنًّا، وأكثرهم خبرة، فهو مختار من أيّام الأتراك ومختار في أيّام الإنكليز، وهو ورث المخترة أبًا عن جدّ.

الإنكليز خبثاء، وهم يحضرون اليهود ويزرعونهم في بلادنا، ويتوسَّعون شويّة شويّة. هذا ما فعلوه في الجليل، وتوسَّعوا حول مدننا الكبيرة.. ولهذا، انفجرت الاشتباكات في القدس، ويافا، وحيفا، والخليل...

شدّ جذعه، ونقّل نظره على وجوههم جميعًا، كأنَّما يحكي لكلّ واحد منهم:

لا نريد أن نشتبك مع هؤلاء اليهود فورًا، لأنّ الإنكليز معهم..ولكن علينا أن نحدّ من شرّهم.

سأل مختار صميل أبو العبد:

كيف يا مختار؟

أجابه أبو سالم:

سألتني كيف؟

التفت صوب ابن أخيه:

قل يا مسعد لأعمامك كيف نواجه هذا الخطر الذي دهمنا، فابن أخي كما تعلمون متعلِّم، وهو يعيش في القدس، يعني يعرف ما يدبّره الإنكليز واليهود لنا.. وبيني وبينكم: هو يعرف سماحة المفتي الحاجّ أمين، ويسمع منه. تفضَّل يا عمّ، نوّر أعمامك، وفتّح عقولنا.

تنحنح الشاب، وهو يقف بينهم، وكأنَّه خطيب، وسمَّى بسم اللَّه:

يا أعمامي: هؤلاء لن يكتفوا بالبقاء داخل الأسلاك التي نصبوها حولهم، فهم سيحاولون التوسُّع.. يعني على أرضنا. في بعض مناطق فلسطين اشتبكوا مع الفلّاحين في القرى، لأنَّهم أظهروا الطمع في أرضهم، وحاولوا إغراء بعضهم ببيع أرضهم، وأنتم تعرفون أنَّ الإنكليز يجورون على الفلّاحين بالضرائب الثقيلة، حتى يضطرُّوهم للتّخلّي عن أرضهم.

هنا تطايرت نظرات التحفُّز من عيون الشباب:

فشروا.. واللَّه نموت على أرضنا، ولا يأخذون منها شبرًا...

أضاف مسعد:

ولكنَّهم دخلوا أرضنا، وسيحاولون التوسُّع حتى تصير لهم أرض ومستعمرات مثل هذه وأكبر، وهم مسلَّحون. اليهود بيقولوا فلسطين لهم، وأنَّها كانت لأجدادهم، وهم سيستعيدونها، والإنكليز يساعدونهم.

تنهَّد الشاب:

الإنكليز أصل البلاء. انظروا كيف وضعوا أيديهم على أرضنا وأعطوها لليهود، وهيك يعملون على إعطائهم فلسطين كلّها.

صمت، ثمَّ أضاف:

يا مخاتير: لازم نخبِّر الهيئة العربيَّة العليا في القدس. الحاجّ أمين حاليًا خارج فلسطين، لأنَّ الإنكليز يطاردونه، ولكنْ هناك أشخاص من الهيئة العربيَّة العليا، وهؤلاء يمكن أن أخبرهم بما يجري عندنا، وأسمع منهم، وأنقل كلامهم لكم، بعدئذٍ تفعلون ما ترونه مناسبًا. وحتّى ذلك الوقت، نفتح عيوننا على كلّ حركة يقومون بها.

سألهم المختار أبو فارس:

سمعتم يا مخاتير.. ويا وجهاء قرانا؟ رأيي أن نتشاور باستمرار في ماذا نفعل.. والأيّام بيننا، ونوكّل مسعد أن يخبر الهيئة العربيَّة في القدس، وهم هناك سينقلون له

كل شيء.

ودّعوا المختار، واتّفقوا أن يلتقوا، وانصرفوا محزونين.. ومنذ ذلك اليوم، صار اسم المكان الذي نشأت عليه بيوت لليهود: كمبانيّة موسى..ومع الوقت صارت تلفظ: كبانيّة موسى نسبة لمختارها!

رأى محمود بنادق انكليزيَّة مع الثوار، ورشاشات برن، وستنات، واستغرب أن بعضهم يحملون سيوفًا، وعندما رأى الدوايمي الدهشة في عينيه، قال له:

أنت تستغرب أنَّ بعض الثوار يحملون سيوفًا يا محمود!. هؤلاء لا بنادق معهم، لأنَّهم لا يملكون ثمنها، وهم يتسلَّحون بالسيوف، وينتظرون أن يستولوا على بنادق من الجنود الإنكليز في المعارك.

بدا محمود مندهشًا من كثرة الثوار، وانتشارهم في الكروم، بين الصخور، وعلى امتداد لا ترى آخره العين.

أضاف الدوايمي:

سيحضر قائدنا أبو زياد الشلف يا محمود، وهو بطل خليليّ، اسمه ليس الشلف، ولكنَّهم يلقبونه بهذا اللّقب، لأنَّه يطلق النار بيده اليسرى، يعني شلفاوي، وهو شلف البندقيّة من يد جندي انكليزيّ في الخليل، وشُرِّد إلى الجبال، ومن بعدها عرفه الإنكليز، فصاروا يطاردونه، وكثر الثوار الذين انضمّوا له بعد انطلاق الثورة، وها هم على مدى العين ما تشوف يا ذكريني.

قلّب محمود أمام عينيه بندقيَّته اليونانيَّة الصغيرة الخفيفة التي يلقّمها برصاصة واحدة، والتي لا يثق أنَّها ستقتل عسكريًّا إنكليزيًّا، بنظرة استخفاف، وهو يتأمَّل البنادق الإنكليزيَّة والألمانيَّة في أيدي الثوار، وقال للدوايمي:

هذه البارودة هاملة يا صاحبي. آخ، لو تصحّ لي بندقية إنكليزيَّة.

ضحك الدوايمي:

اهجم في المعركة، واركض وراء إنكليزيّ وخلّصه بندقيّته.. فتكون لك.

توقَّف الدوايمي عن الكلام، عندما لاح عدد من الثوّار، وهم يحيطون بشخص عرف أنَّه أبو زياد الشلف:

ها قد جاء القائد يا محمود.

صعد الشلف على صخرة، ودار بنظره على الرجال المنتشرين في المكان. على رأسه الكوفيَّة المرقّطة، وقد وضع بين قدميه رشاش برن.

يا رجال: الإنكليز يظنّون أنَّهم يحاصروننا.. فشروا!. نحن نعرف كلّ ما يعدّونه لنا، لذا اطمئنوا، فعلى قمم جبالنا وسفوحها. وفي الكروم، وبين الصخور ينتشر ثوّارنا. واليوم يومكم يا أزلام.. يا أبناء جبل الخليل. اثبتوا، فالنصر صبر ساعة.

فوق الصخرة، رآه محمود طويلًا، محاطًا بهالة من الضوء، تحت السماء الزرقاء التي تنحني وراء ظهره، فشعر بهيبته، فارتفع صوته مدويًّا:

«العينين عينيك يا عمّ أبو زياد.. إحنا أزلامك».

رفع القائد قبضة يده ولوَّح بها، ثمَّ ارتفع صوته من جديد:

إحنا أزلام فلسطين.. يا...

ردَّ محمود، وهو يتقدَّم رافعًا بارودته اليونانيَّة:

أنا ذكريني يا عمّ أبو زياد.. محمود الذكريني.

ارتفع صوت الشلف:

يمكن يهاجمنا الإنكليز بالطيَّارات. لا تخافوا، فإخوانكم في الشمال أسقطوا واحدة أمس، واحترقت بالطيّار، ونحن سنسقط واحدة مثلها إن شاء الله.

انحنى، ورفع رشاش البرن بيديه الإثنتين، وهزّه، وفوهته تتَّجه إلى السماء، كأنَّها توجّه إلى طائرة.

تنبَّه محمود إلى وقوف صاحبه الدوايمي لصق الصخرة، قرب الشلف، وأنَّه يبتسم برضى، ثمَّ يهمس للشلف بعد أن نزل عن الصخرة، مشيرًا إلى صاحبه محمود.

دوّت القذائف في الجبال المقابلة، وسقطت على الكروم القريبة، فاشتعل إطلاق الرصاص، وعندها ارتفعت التكبيرات، وتوارى الرجال بين الأشجار، وخلف الصخور، بينما صوت مجلجل يتقاطع مع دويّ القذائف والرصاص:

لا أحد يطلق النار، وفّروا كلّ رصاصة حتى يقترب الإنكليز.

والشمس تعلو في السماء ازدادت الحرارة، واشتدّ الظمأ، فتسلَّل محمود إلى حيث الماء، وشرب بسرعة، وعاد إلى موقعه. قلّب بندقيَّته اليونانيَّة أم رصاصة واحدة، غير واثق بأنَّها ستنفعه في المعركة، بحيث ودّ لو أنَّه يحمل سيفًا مثل بعض الثوّار، فهو ربّما يكون أجدى منها.

انبثق الدوايمي أمامه:

محمود.. ذكريني.

التفت محمود، فرآه وهو ينحني، ورأسه أمامه، ويندقيَّته في يده:

شدّ همّتك.. كلّ رجالنا بخير، أنا أتفقَّدهم واحدًا واحدًا. ستشتدّ المعركة، فلا تخف. هذه أوَّل معركة تشارك فيها.. فكن جدعًا.

ابتسم في وجهه، وقرفص قبالته، وربَّت على كتفه:

نحن أبناء قرى الخليل التحتانيَّة، يجب أن نرفع رأس القائد بنا اليوم.

مضى الدوايمي بين الصخور، فساد الصمت لحظات، وارتفع دويٌّ في الفضاء، فرأى محمود طائرة تمرق، ثمَّ تستدير في الفضاء، وتعود بعد قليل، وتلتفّ، وتهبط، وتمرّ ورأسها ينحني، حتى خيِّل لمحمود أنَّه رأى رأس الطيار، فشعر بالخوف، وارتجف، وحمد الله أنَّ أحدًا لم يلحظ خوفه وارتجافه.

دارت الطائرة بسرعة، ومضت بعيدًا، وارتفعت أصوات من بين الصخور:

ما حدا يطلق النار عليها.

وفجأة وهي تلتفّ، وتهبط قليلًا، دوّى رشاش البرن، فرفع محمود رأسه قليلًا، فلمح الشلف وهو يتمدَّد على ظهره، وقد رفع سبطانة البرن على قدميه، وسدَّدها باتّجاه السماء.. و.. اشتعلت النار، ودارت شعلة النار في الفضاء، وهوت؛ فالتصق محمود بالصخرة، وقد دهمه الخوف من أن تسقط الطائرة المشتعلة فوقه، ولكنَّه سمع انفجارًا كبيرًا، فالتقط أنفاسه، وأبعد رأسه قليلًا عن الصخرة، فرأى شعلة نار هائلة

تنبثق في الكرم المجاور، وارتفعت التكبيرات، وصعد الشلف فوق الصخرة، وأخذ يلفّ جسده ، ويمرِّر نظره في الأرجاء، وتراكض رجال كثيرون من بين الصخور، وأحاطوا به، وهو يلوِّح لهم، ثمَّ ليأمرهم:

خذوا مواقعكم يا أزلام.. المعركة بأوَّلها.. إلطوا بالصخور، فجورة بحلص مليئة بالصخور، وانتشروا في الكروم.

ثمَّ مضى مرفوع الرأس بين الصخور، وعيناه تتطلَّعان إلى السماء. وعاد صوته وارتفع:

ستعود طائراتهم لتقصف المكان انتقامًا لسقوط الطائرة، فابتعدوا عن المكان.. ابتعدوا بسرعة.

رأى رجالًا يركضون بين الصخور، فركض معهم. فهو لا يعرف لمن يتبع، والدوايمي اختفى.

منذ الأمس، وهم ينتظرون حضور القائد (أبو زياد) الشلف، وها أنَّ وقت العصر قد حان، وبدأ من يُصلّون صلاتهم، ومن لا يصلّون يحرسون على قمم الجبال وسفوحها، بينما نام كثيرون في المغاور، وتحت الأشجار.

ناداه سالم الدوايمي، وانتحى به جانبًا، بعيدًا عن العيون والأسماع.

همس له بصوت حزين منكسر، رغم ابتعادهم بين الصخور عن إخوانهم ثوّار جبل الخليل:

يا محمود يا صاحبي: الثورة...

صمت، ولاحت في عينيه غشاوة، وعلى وجهه حزن، وفي صوته وهن:

الثورة أُوقفت بطلب من ملوك وحكّام العرب.

لم يفهم محمود كيف تتوقَّف الثورة بطلب من ملوك العرب، بينما الإنكليز ما زالوا يحتلّون فلسطين!

بلع محمود ريقه:

ألم تخبرني بأنَّنا سنستمرّ بالثورة حتى نطرد الإنكليز واليهود من فلسطين؟

استند الدوايمي على الصخرة التي يقف بجوارها، وبدا كأنَّ جسده سيتهاوى، فتكلَّم ببطء، وهو ينظر نظرة تائهة مائلة حتى لا تلتقي عيناه بعينيْ صاحبه:

ملوك العرب وحكّامهم يعدون بأن تحقِّق الصديقة بريطانيا كلّ مطالبنا. الصديقة بريطانيا يا محمود! يا خوفي يا محمود نضيع ونضيّع قضيتنا. المصيبة أنَّ حربًا نشبت بين بريطانيا وألمانيا، ودول كثيرة تحالفت مع بعضها، دول محور ضدّ دول التحالف.

لم يسمع محمود بكثير من الدول التي ذكرها الدوايمي، ولا لماذا تتحارب، ولا ما هي علاقة فلسطين بالمتحاربين، ولكنَّه شعر بالإحباط، لأنَّ الثورة توقَّفت بأمر القيادة العليا، قبل طرد الإنكليز واليهود، وقبل أن يشارك في معارك كثيرة، و.. يقتل جنديًّا إنكليزيًّا ويستولي على بارودته، ويرمي البارودة اليونانيَّة، ويتباهى أمام أهل ذكرين بما فعل.

سمعوا أصواتًا ترتفع، فجذبه الدوايمي:

يلّا.. أبو زياد الشلف أكيد حضر.

رأيا أبا زياد وهو يتنقَّل بين الصخور، ثمَّ يرتقي إحداها، رافعًا صوته:

يا رجال: صدرت الأوامر لنا بإيقاف الثورة من قيادتنا بطلب من الحكّام العرب، وهم يعدون بأن تلبِّي بريطانيا مطالبنا بعد الحرب، ولذلك أطلب منكم باسم القيادة أن تعودوا إلى بيوتكم، وعليكم الأمان، فالإنكليز لن يطاردوكم، وأعدكم شخصيًّا بأن نبقى على اتّصال بكم، والمهمّ أن تبقى بواريدكم جاهزة، وأنتم في حالة استعداد للعودة إلى الجبال.

هبط عن الصخرة فتقافز حوله عدد من حراسه، ومضى مبتعدًا، وبدا الرجل غيره في ميدان المعارك، حزينًا، وقلقًا، وغير مقتنع.

أجهش محمود بالبكاء، وحوله ارتفع بكاء الرجال، فاحتضنه الدوايمي:

محمود يا صاحبي: سنعود قريبًا. أنظر إلى هذه الجبال حولنا..جبال الخليل، ستبقى تناديا، وتدعونا لصعودها، والقتال حتى نحرِّر بلادنا. معركتنا طويلة يا محمود، وملوك وحكّام العرب قلبهم ليس على فلسطين يا صاحبي.

صعد الدوايمي على صخرة، وارتفع صوته:

رجال الدوايمة، عجّور، بيت جبرين.. كلّ قرى بيت جبرين، و.. ذكرين حتى ما يزعل صاحبي محمود، هيا نمضِ إلى قرانا مع بعضنا، وعند كلّ قرية نودِّع رجالها، ونواصل، وآخر من يبقى هم رجال الدوايمة. يلّا يا أزلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بيت جبرين، اتّخذ طريقه إلى ذكرين.

ثمانية أشهر وخمسة أيّام، وأنا بعيد عنكِ يا ذكرين. يا ترى: كيف حال أمّي؟ وعمِّي مرشد أتراه غاضبًا منّي لأنَّني لم أخبره، وتصرَّفت دون علمه؟ اللّه يرحمك يا أبي: أكنت ستغضب منِّي لو كنت حيًّا، لأنَّني ذهبت للثورة؟ لقد اصطحبني سالم ابن صاحبك الدوايمي عبد المنعم. سالم يابا متعلِّم. قرأ حتّى الصف السابع في الخليل والقدس، وهو يقرأ ويكتب، ويفهم، وليس مثلي، فأنا لا أميِّز حرفًا من حرف.

ليتكم أرسلتموني مثله، لأتعلَّم في الخليل والقدس.

سالم فهَّمني أشياء كثيرة، ونحن كنّا جماعته، أبناء قرى بيت جبرين؛ فهو شجاع، ويعرف الضرب على رشاش البرن مثل الشلف قائدنا الكبير.. الشلف البطل! رأيته وهو يستلقي على ظهره، ويرفع ساقيه، ويركِّز عليهما رشّاش البرن، و.. يسقط الطائرة الإنكليزيَّة فوق كروم جورة بحلص قرب الخليل. بعينيَّ هاتين رأيتها تشتعل وتدور حول نفسها في السماء و.. تسقط.. فزغردنا، وغنّينا له:

هبّت النار والبارود غنّى

أبو زياد يا حامي ظعنّا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهرت بيوت ذكرين أمامه، وقد أدهشه البناء الجديد، وإذ اقترب منه، توقَّف عند سوره، وفاجأه صوت أليف من خلفه:

مرحبًا يا ابن عمّتي.. يا محمود.

استدار، فإذا بِ إسماعيل ابن خاله إبراهيم.

فتح ذراعيه، واحتضنه:

كأنَّك كبرت يا إسماعيل!

ابتعد إسماعيل قليلًا، وتأمَّله:

أنا أعرف أنّك كنت في الثورة. أبي أخبرني وهو خائف عليك كثيرًا، يقول: أمك ما لها غيرك...

مدَّ يده، وتلمَّس بندقية محمود اليونانيَّة:

بارودتك صغيرة يا ابن عمّتي.

من أين لي مصاري لأشتري بارودة كبيرة؟

إسماعيل هو الإبن البكر للخال إبراهيم الذي تزوَّج متأخِّرًا بالبدل، زوَّج أخته من عبد الفتاح سعد، وتزوَّج ابنة العبد سعد عايشة، وأنجبت له إسماعيل وأحمد وثلاث بنات.

أشار إسماعيل للمدرسة:

هذه المدرسة. حضر أستاذ لتعليم أولاد ذكرين فكّ الحروف، والأولاد بدأوا يتعلَّمون، وأنا دخلت في الصفّ الأوَّل. الأستاذ رفض في البداية، وقال لي: أنت كبير، ولكنَّه قبلني بعد أن زاره والدي ورجاه.

تعلَّمت الحروف، وصرت أكتبها. وأعدّ حتى العشرين. بخاطرك: والدي ينتظرني...

افترقا، إسماعيل إلى والده في كرمهم، ومحمود إلى البيت، ملصقًا بندقيَّته الخفيفة الصغيرة بساقه حتى لا يراها أحد، فيستخفّ بها وبه.

تحسَّس الرصاصات المتبقية في جيبه، وعدَّها: أربعة.. يعني أطلقت ست رصاصات. في كلّ الثورة ست رصاصات.. ولم تصب إنكليزيًّا!. إذا عدنا للثورة، فلا بد أن تكون معي بندقية ذات خمس طلقات، قويَّة، وثقيلة، وأستطيع أن أصيب بها الجندي الإنكليزيّ حتى لو كان على رأس جبل بعيد.. كما كان الدوايمي يعدني، لو امتلكت بندقية قوية!

نادته، فتوقَّف واستدار قبل أن يفتح البوابة:

أيْوه يمَّا.

وهي تحرِّك أصابع راحة يدها اليمنى المرفوعة قدّام وجهها، وتغمز بها، وكأنَّها ستبوح له بسرّ بينها وبينه.

رجع واقترب، ووقف قدَّامها، فأمرته:

أقعد.

قعدتْ أمامه وجهًا لوجه، وتربَّعت، ومدَّت رأسها إلى الأمام، وعلى وجهها فاضت ابتسامة نادرًا ما رآها:

أرخى بدنه وتربَّع، ورفع عينيه لتلتقيا بعينيها:

نعم يمّا.

ينعم عليك ربّنا، ويرضى عليك، ويرزقك ببنت الحلال.

تساءل في نفسه: ما حكاية بنت الحلال هذه، وأنا قلبي منكسر لزواج ورحيل وطفا؟!

تأمَّلت وجهه، وعينيه، ومدَّت أصابعها النحيلة الطويلة، ومررتها على صفحة وجهه:

أنت ذابل يا بنيّ، كأنَّك كبرت كثيرًا.

لم يعرف ماذا يقول لها، فهو ذابل من داخله، وليس وجهه هو الذابل.

يكفيك حزنًا يا ولدي. التي تفكِّر فيها وتذوب نفسك عليها راحت، تزوَّجت، وهي في بلاد بعيدة، ويجب أن تنساها، فحزنك على فراقها لن يعيدها لك. أهل البلد يعرفون أنَّك كنت تحبّها، وعيب أن تلاحقها ألسنة الناس بعد زواجها، فهذا يجرح والدها.. عمّك وقريبك.

ليس عمّي يا أمي.

ولو! هو من أهلك، من حمولتك، وهو من أبناء عمومة والدك المرحوم سلمان.

تنهَّدت، وهي تربِّت على كتفه:

لو كان سلمان حيًّا لما قبل أن...

بحثت عن كلمات مناسبة، وكأنَّما اهتدت لها.. أضافت:

نعم: لما قبل بما فعله عبد الرحيم والد وطفا، ولفرض عليه تزويجك البنت غصبًا عن شارب أبيها، ورأس أمّها الغريبة.

أوجعها الحزن في عينيه، فامتلأت نفسها غضبًا على عبد الرحيم وامرأته:

ما باليد حيلة يا ولدي، هي تزوَّجت وأنت لازم تتزوَّج، والبلد فيها بنات كثيرات وحلوات، وأحلى منها. والحمد لله أنَّك رجعت من الثورة بخير.

لم يقل شيئًا، فحسبت أنَّه لان، وأنَّه قطع الأمل من وطفا، وإذ تنهّد تنهدة طويلة، وأحنى رأسه، عرفت أنَّ دموعًا تسيل من عينيه.

مسح عينيه بطرفيْ كوفيَّته، وأخذ نَفَسًا عميقًا:

أنت تعرف البنت زينب.. بنت محمّد صالح؟ بنت حلوة..أكوس من وطفا، وأشطر، وأبوها مليح، وأمّها بتتوضع على الجرح بيطيب..ها، سمّعني كلمة تفرح قلبي. أنت ابني الوحيد يمّا يا حبيبي. ففرّحني، وأخرجنا من الحزن، خلّينا نفرح، ونشوف يومًا طيِّبًا تسعد فيه قلوبنا، ويدخل بيتنا فيه الفرح.

صفن، وخمَّن: أمّي وأبي مرشد طبخا الأمر، ففاجأها:

موافق يمّا، موافق.

زغردت بصوت منخفض، وضمَّته إلى صدرها.

يعني على الله الإتّكال؟

مثل ما بدّكم.

ومثل ما بدّك أنت يمّا، فأنت من سيتزوَّج، أم تريد بنتًا غير زينب؟!

زينب مليحة.

وقف، وانحنى وباس رأس أمّه، وتناول يدها ولثمها، ثمّ مضى صامتًا إلى حيث لا يدري، كما كان يفعل بعد رحيل وطفا.. ولكنَّه هذه المرّة، بدأ يردِّد اسم زينب، ووجد أنَّه توجَّه إلى ساحة القرية، وأخذ يراقب من هناك دكّان محمّد صالح، وبوّابة بيته المجاورة للدكّان، علّه يرى زينب، ويتملّى ملامحها عن قرب.

تساءل في سرّه: أنا لم أرها سوى مرّة، أو مرَّتين، وهي تقف مع والدها أمام دكّانه. سمرا، طويلة، و: ماذا؟ لا أعرف! وطفا راحت، ولن تعود، فما فائدة حزني عليها؟ هل سأحبّها طيلة العمر، ولا أتزوَّج؟! آه يا وطفا.. آه: لماذا لم ترفضي الزواج من ابن خالك؟!

زينب!.. زينب.. يمكن بعد الزواج أحبّها.. من يدري؟!

فلأفرّح أمّي، وأبي مرشد، وخالاتي...

أشارت له ذوابة أن يجلس، فجلس، ونقّل نظره بين الشقيقتين متسائلًا دون كلام، فابتسمت ذوابة، وتوقّفت أصابعها عن التنقُّل على حبّات سبّحتها:

محمود كبر يا مرشد، وفاطمة نفسها تجوُّزه، وتنسّيه وطفا. وأنت يا مرشد بمقام سلمان، وهي زارت دار محمّد صالح وشافت البنت زينب، وحكت مع أمّها.. وأمّها رحَّبت، وقالت: مش رايحين نلاقي أحسن منكم.

صمتت ذوابة، فاتَّسعت ابتسامته:

هذا يوم المنى. الموسم هذا العام وافر، وحالتنا مليحة، وخلّينا نفرح.

قالت فاطمة، والفرحة تفيض على وجهها:

البنت كويّسة، قمحيّة، وعودها وافي، وأبوها وأمّها ناس ملاح.

أراد مرشد أن يتأكَّد من موافقة فاطمة:

يعني يا أمّ محمود نتّكل على اللَّه؟

ونعم باللَّه. لن نجد أحسن من البنت وأهلها، ومحمود كبر...

وأضافت لتؤكِّد على كبره:

اقترب عمره من العشرين، والبنت أصغر منه بسنتين، كما أخبرتني أمّها.

ابتسم:

يعني أنتِ جسست نبض أمّها؟

أيْوه.. لكن هذا كلام نسوان ، فلا بدّ من الحكي مع والدها حتى يصير كلام زلام، وعليه رباط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف عبد الرحمن أمامه، وهو يحني رأسه، فابتسم:

أنت كالقرود طاعة بلا أدب.

ثمَّ، وهو يفرك راحتيه، وقد احمرّ خداه:

اسمع يا ولدي.. نريد أن نزوِّج أخاك محمود. نريدكما أن تنجبا لنتكاثر، ونقوى، فعدد عائلتنا قليل أمام حمائل البلد، وأرضنا واسعة وتحتاج لمن يخدمها، ويعيش منها.

ثمَّ ضحك ضحكته الهادئة:

ولو أنَّك ومحمود لا تنفعان لفلاحة الأرض. لعلَّ اللَّه يرزقنا منكما بمن هم أفضل منكما.. في حبّ الأرض.

كتم عبد الرحمن ضحكة أوشكت أن تفلت منه، ونكس رأسه أكثر، واختلج جسده لكتمه الضحكة. أخذ مرشد يتأمَّله، ثمَّ مدَّ راحته ومرَّرها على رأسه:

اللَّه يرضى عليك، إذهب عند عمّك محمّد صالح الصوص، تجده أمام دكّانه، سلّم عليه وقل له: والدي يريد أن يشرب فنجان قهوة من قهوتك الطيِّبة، ثمَّ عد وأخبرْني.

انطلق عبد الرحمن بخطى واسعة، فتأمَّله والده وهو يمضي مديرًا ظهره، فترضّى عليه، وسأل الله أن يهديه ويحبِّبه بخدمة الأرض، وأن يحفظ له ابنه أحمد، ويزيد من نسله.

نادى ذوابة:

سخِّني لي ماء يا ذوابة، أريد أن أغتسل، وحضّري لي ثوبي الأبيض النظيف وعباءتي وبلغتي الجديدة.

نهضت ذوابة وملأت الدست ماء، ووضعته هي وفاطمة على الأثافيّ، وأضرمت النار تحته.

تساءلت ذوابة:

قولك يا أختي سيوافق محمّد صالح أن يعطي ابنته لمحمود؟

برمت فاطمة بوزها، وردَّت على أختها:

قال يوافق قال! سيغنِّي في عبّه لأنَّ ابن سلمان سيتزوَّج ابنته. سارة صارت ضحكتها شبرين قبل أن أحكي لها بصراحة عن نيَّتي. ما إن سألتها عن عمر زينب حتى لقفت الكلام وهات يا مدائح بابنتها: وجهها ينقِّط عسل. شاطرة في الغسل والطبخ، وحتّى في الحصاد تحصد كأنَّها زلمة. ولولا الحيا كانت بدها تزغرد. قال يقبل قال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استحمّ مرشد، وارتدى ثوبه الأبيض السابغ على جسده، ووضع عباءته على كتفيه، وفرد كوفيَّته على رأسه، وانتعل بلغته الجديدة التي اشتراها من محلات القواسمي القريبة من الحرم الإبراهيمي في الخليل، ثمَّ أغمض عينيه، وفتح راحتيه وأخذ يتلو الفاتحة، وما إن فرغ من التلاوة حتى مرَّر راحتيه على صفحتيْ وجهه، وصدره:

لحقت به المرأتان، ولبثتا تراقبانه حتى توارى، فعادتا ودخلتا، وقعدتا بانتظار عودته ببشرى موافقة محمّد صالح.

لمّا أن رآه محمّد صالح مقبلًا وضع نربيش النرجيلة إلى جواره، فهدأت زغلولتا البندورة الحمراوان الصغيرتان في ماء الأرجيلة، وتبدَّد الدّخان، ونهض الرجل مرحِّبًا:

يا أهلًا بالحبيب، يا أهلًا.

تعانق الرجلان، واقترح محمّد صالح أن يدخلا إلى البيت من أجل قيمته، فأشار له مرشد:

أجلس هنا معك.. فالمكان شرح، والمصطبة قعدتها تردّ الروح.

فرك محمّد صالح يديه، ووضع كوفيَّته على رأسه، كأنَّما يعلن لمرشد عن استعداده لسماع طلبه.

صبّ القهوة، ومدَّ الفنجان لمرشد الذي تناوله ووضعه أمامه:

قهوتك عزيزة علينا يا أبو صالح، ولكنَّني لن أشربها إلّا بعد الموافقة على طلبي.

اشرأبَّ محمّد صالح بجسده، أنهض رأسه، ونصفه العلويّ وهو يتربَّع، وحدّد نظرته في وجه مرشد:

باطل يا أبو العبد! طلبك مجاب، إشرب قهوتك. واللَّه لو طلبت روحي ما رددتك خائبًا. أنت لست وجه تفشيل يا أبو العبد.

ارتشف مرشد رشفة من الفنجان، وأعاده أمامه، ثمّ مدَّ يده:

هات يدك يا أبو حسين

مدَّ أبو حسين يده، وشبكها بيد مرشد:

بدنا زينب لمحمود ابن سلمان. ها شو قلت؟

صفن محمّد صالح وكأنَّه فوجئ، مع أنَّ سارة أخبرته بزيارة فاطمة وتلميحاتها:

هي له إن شاء اللَّه. من جهتي: هذا ابن سلمان سيِّد الرجال. فقط، سأسأل البنت، فهذا من الشرع كما تعلم.

نزل عن المصطبة، ودخل إلى البيت، ثمَّ عاد بوجه يتهلَّل:

مبروك يا أبو العبد.

وطلباتكم يا أبو حسين؟ أنا جملك وأنت حمّلني يا صاحبي!

عادات الناس يا أبو العبد.. لا زيادة ولا نقصان!

ارتشف مرشد فنجانه، فصب له أبو صالح من جديد، وعندئذ تشعَّب بهما الحديث عن سلمان، وأيّام زمان...

وهو ينهض:

يا أبو حسين: سنأتي لكم بجاهة تليق بكم، لنقرأ الفاتحة أمام الناس، ومن بعد نذهب إلى الخليل لنكتب لمحمود على زينب، ونشتري لوازم العروس.

لمَّا دفع مرشد البوّابة، توقَّف قبالة المرأتين القاعدتين تحت العريشة:

الحمد للَّه. اتَّفقت مع محمّد صالح.

زغردت فاطمة بصوت منخفض، وضحكت ضحكة عالية لم تضحكها منذ سنوات:

هذه الزغرودة، لأنِّي مش قادرة أنتظر. بس بعد ما توخذ جاهة، وتقرأوا الفاتحة بدّي أزغرد بصوت عالٍ. نفسنا نفرح يا مرشد. قلوبنا ذايبة من الحزن يا ابن العمّ.. والحمد للَّه أنَّ محمود نجا من الموت في الثورة، ورجع لنا. لازم نجوِّزه حتى يعقل.

أجهش مرشد بالبكاء، وبصوت متقطِّع:

اللَّه يرحمك يا سلمان. يا ليتك كنت من يزوِّج ابنك .

رفعت ذوابة يدها بسبّحتها الطويلة:

هو فرحان في قبره، كأنَّه معنا يا مرشد. ترحَّم عليه، وخلّينا نفرح وننسَ الحزن.

ولتطرد الحزن، زغردت فاطمة بصوت عالٍ، ودارت حول نفسها وهي ترفع رأسها ليسمع الجيران الزغاريد التي لم تنطلق منذ سنوات في هذا البيت الحزين.

٩

رأته يجلس حزينًا، ويده على خده كما لو أنَّه حرمة مكسورة الخاطر، فخمّنت أنَّه لم يتَّفق مع الشيخ مرشد على فلاحة أرضه مرابعة لهذا العام، كما في العام الماضي.

وقفت فوق رأسه، فلم ينتبه لها. أوشكت أن تفلت منها ضحكة وهي تلاحظ كم أنَّ جسمه ضئيل الحجم، ولولا أنَّها تعرف أنَّه زوجها حسين، لظنّت أنَّه ولد صغير حردان عتبًا على أمّه، أو لأنَّ أحدًا أكبر منه ضربه وهو عاجز عن ردعه.

ما لك يا حسين، ما عليك شرّ يا زلمة!

رفع رأسه، فرأت في عينيه حزنًا ثقيلًا:

هل مات أحد من الأقارب؟

أوشك أن يردّ عليها: يا ريت، لكنَّه شكا لها وضعه المحرج:

يريدونني أن أزمِّر على الأرغول في عرس زينب ومحمود، وأنا حلفت يمينًا أن لا أفعل بعد تلك الحادثة في بيت جبرين.

قالت له مستخفَّة:

فكّرت فيه شيء محرز يا زلمة. ما دمت حلفت استشر الشيخ خميس، وهو سيفتي لك.

وأضافت:

زينب بنت أختك، وهي أختي.. وأنا أحبّ أن تزمِّر لها في عرسها. لا تكسر بخاطرها...

فضّة لا تحبّ سارة، بديلتها، أم زينب، التي زوّجها حسين لوالدها محمّد صالح. هي تحبّ زينب، رغم أنَّها أختها من أبيها، وأمّها بديلتها، تحبّها كما لو أنَّها ابنتها، وزينب تحبّها، ومولعة بحكاياتها التي تقصّها عليها، وعلى ابنتها زكيَّة، وابنها عبد الفتاح.

لكزته في كتفه، فعاد ورفع رأسه، فانحنت على رأسه وباسته من فوق كوفيّته:

زينب تحبُّك، فلا تكسر بخاطرها.

ثمَّ ضحكت وهي تهزّه من كتفه، وهو يترنَّح حتى كاد أن ينكفئ على وجهه:

رحتم على بيت جبرين تدبكوا، وتغنّوا، وتثيروا بنات الناس، وتمعّنوا في العتابا على العروس، التي أجبرها أهلها على الزواج من عجوز طمعًا في أرضه...

ضحك حسين:

لعنة الله على أحمد الرقّاص، فهو غنّى:

عتبًا يا لحبيب للنذل أعطوكِ

هزّ رأسه، وضحك من كلّ قلبه..

فإذا بالتنهّدات ترتفع من النسوة والبنات بصوت سمعه الرجال، وواحدة تعلق: «يا خسارة للنذل أعطوكي يا زينة الصبايا».

نهض، فلم يزد عن وسطها سوى قليلًا، فأمسكت برأسه وضمَّته إلى صدرها، وهي تنحني عليه..

عندئذ انتفض والد العروس، وصرخ: أهل ذكرين البُرّد مثل ماء آبار بلدكم: انصرفوا، يلّا، بدناش تزمّروا وترقصوا في عرسنا، يلّا، بدناش نشوف وجوهكم الباردة بعد اليوم في عرس من أعراس بيت جبرين.

أنا وضعت أرغولي في جيبتي، ورددت عليه، ولم أفوِّتها له: واللَّه عمري ما بأزمرّ على أرغولي في عرس لأهل بيت جبرين، أو غير بيت جبرين.. يحرم عليّ الأرغول بعد اليوم.

وانسحبنا في منتصف الليل، وعدنا لذكرين ونحن مرّة نضحك، ومرّة نلعن والد العروس الذي زوَّج ابنته لعجوز طمعًا في أرضه.

سأل امرأته:

عمرك شفتي أحمد الرقّاص، شيخ دبيكة بلدنا وهو اللوّيح في الدبكة؟

ابتسمت:

آ.. شفته، وأخته هنية صاحبتي.

أحمد الرقّاص ارتجل كلامًا يسخر به من البيتجبريني الذي زوَّج ابنته لعريس عجوز طمعًا بأرضه:

مجوزها غصبًا عنها

يلعن أبو لحيته

وظلّ يردِّدها طيلة الطريق إلى ذكرين.

تساءل حسين:

من أين يأتي الرقّاص بالكلام؟! يستأهل البيتجبريني هكذا أغنية تبهدله، لأنَّه أهاننا بدلًا من أن يكرمنا.

تساءلت، وهي تحتضن كتفيه:

راح تروح لعرس زينب وتزمرّ فيه؟ بلاش يتقوّل عليك أهل البلد بأنَّك كسرت بخاطر بنت أختك.

ردَّ كما لو أنَّه مغلوب على أمره:

العمّ مرشد رجاني أن أزمّر في عرس زينب ومحمود، وأنا لا يمكن أن أكسفه.

تركها ودخل في البيت، ثمَّ عاد وفي يده أرغوله. أخذ يجرّب صوت الأرغول، منقِّلًا أصابعه على ثقوبه، ثمَّ سحب سحبة طويلة، وهو يتمايل كالدرويش الذي أخذته الحالة، فضحكتْ بلا صوت وهي تتابعه، مستذكرة المثل: لا تقل للمغنِّي غنِّ حتّى يغنِّي وحده.. وهذا أنت يا حسين.. يا زمّار ذكرين. معهم حقّ الناس يحضروا من

القرى المجاورة ليأخذوك لأعراسهم. وأخذت فضّة تمايل رأسها، بينما عيناه تراقبانها، وفيهما تلتمع سعادة مع تصاعد الأنغام.

١٠

رمى المنجل بعيدًا، وسمع صوت سقوطه بين سنابل القمح، فنصبت زينب قامتها، ووضعت يدها على خصرها حتى تخفِّف الألم في فقرات ظهرها.

تأمَّلته، وقد اكتسى وجهها بمزيج حزن وغضب:

من أين سنأكل إذا لم نحصد زرعنا؟ أم تريد أن تتسوَّل من عمّك مرشد؟ يا شماتة مليحة وأمّك بنا!

لم يردّ عليها ولو بكلمة، فازداد غضبها.

سيذهب نصف المحصول للحصّادين، إذا ما استأجرناهم، ولن يبقى لنا ما يقوتنا حتَّى الموسم القادم. من أين سنشتري ملابس، واحتياجاتنا، أم تريدني أن أعود لبيت أبي ليطعمني؟

غرس كوعه في الأرض، وأسند رأسه إلى ساق شجرة الزيتون، وأخذ يمسح وجهه وعنقه بطرف كوفيَّته المسدلة على رأسه بدون عقال يثبِّتها.

تساءل:

أنتِ لم تُحْضري عسلية الماء، وأنا ظامئ، وحلقي ناشف، وجوفي ساخن مثل النار.

أبعدت سنابل القمح عن أقدامها، محاذرة أن تدوسها وهي تتَّجه غاضبة إليه. وقفت فوق رأسه، ورمت منجلها على الأرض، ثمَّ قرفصت لصق رأسه:

تريد الحقّ يا محمود: أنت بدّك خبز مخبوز وماء في الكوز! أنت أركنت دائمًا على عمّك مرشد، ولم تزرع أو تحصد. لماذا تزوَّجت يا محمود ما دمت لا تعتمد على نفسك؟!

ابتسم وهو يتأمَّل وجهها الغاضب، وتهيّؤها للبكاء قهرًا:

بصراحة: كنت معتمدًا عليكِ أن تزرعي وتحصدي! ألم تخبرك أمّك أنَّني لا أصلح لهذه الأعمال؟!

أرخت جسدها على التراب، ونهنهت وهي تواري وجهها بين يديها، فزحف وجذبها إليه، وأخذ يقبِّل يديها، ورأسها، ووجهها، وحتى كمّيْ ثوب الشغل الخفيف الذي ترتديه.

واللَّه! لا أحبّ أن أراكِ زعلانة. أنا فعلًا لا أحبّ الشغل في الأرض. لم أعتد على الشغل في الأرض.

بنظرة تائهة، وبفم بلَّلته الدموع، سألته:

كيف نعيش؟ قبل الزواج كانت أمّك تدلِّلك، فأنت وحيدها، وكان عمّك.. أبوك مرشد يشتغل عنك وعن ابنه عبد الرحمن. هو يعين ابنه، فهو مجبور به، لأنَّه ابنه! ولكن أنت: لماذا يعينك بعد أن تزوَّجت، وصارت لك عائلة، وعندك أرضك؟ لك أرض، فلتفلحها، ولك قطعة أرض ملاصقة لكرمه فلنزرعها تينًا وعنبًا، أم تريدني أنا أن آخذ دور الرجل؟

ابتسم، وهو يتأمَّل وجهها وعينيها اللتين أذبلتهما الدموع ووهج شمس حزيران، فشعر بأنَّه سبب ذبول عينيها، وحزنها، وغضبها. أراد أن يداعبها ليخفِّف حزنها وغضبها:

أنت تأخذين دور الرجل في الفراش. ألا تفعلين ذلك أحيانًا؟!

حفنت من التراب قبضة ورشّته بها، فدارى وجهه بسرعة، وزحف إليها وجذبها من ركبتها:

تعالي نجرّب تحت الزيتون، وبين سنابل القمح التي ستدارينا عن العيون.

برمت وجهها عنه:

زلمة لا فائدة منك سوى.. سوى...

ضحك وهو يزحف إليها، ويقرصها في فخذها:

سوى أنَّني أحبّك أكثر من كلّ الدنيا، وما فيها. العطش يجرح حنجرتي يا زينب. هيا نذهب إلى العمّ عبد القادر عزيزة، فعنده ماء بارد. دائمًا عنده كلّ شيء.

نهضت، ومشت خلفه.

رآهما العمّ عبد القادر مقبليْن، فراقبهما، وإذ اقتربا منه رأيا أنَّه قطّب وجهه، وبدا كأنَّه لا يرحِّب بهما.

طرح محمود السلام، فردَّ الرجل من طرف فمه بشيء من النفور.

يا عمّ عبد القادر: أنا وزينب نسينا أن نحضر معنا ماء، وعطشنا، ونريد أن نشرب من عندك.

تساءل الرجل، وهو يبرم كوفيَّته الملفوفة حول رأسه، ويرفع كرّاز الماء بين يديه، ويدوِّره تحت نظريهما، وقد رشح الماء على فخاره الأبيض والأحمر:

شايف يا محمود، أنت وزينب، هذا الكرّاز؟ ماؤه بارد يردّ الروح. أنا اشتريته من الخليل. أضع فيه الماء وأتركه في الظلّ، فيصير مثل الثلج.

أحنى الكرّاز، فسال الماء على التراب، وهما يتابعان متلهِّفين أن يمدّ يده بالكرّاز لهما ليشربا.

لمّا فرغ الكرّاز من الماء، أعاد وضعه في الظلّ، وهما يتابعانه بدهشة وتوتر:

لو شربتما هذه المرّة من عندي، فستتعوَّدان، وستقولان لنفسيكما: عمّنا عبد القادر سيسقينا من مائه البارد، وهكذا ستتعوَّدان على الهمالة. موتا من العطش، أو عودا لبيتكما واشربا وارتاحا، فالحصّاد الذي لا يُحضر معه ماءه ليس حصَّادًا، ويستحقّ الموت عطشًا، ولا يشفق عليه عمّكم عبد القادر.

عندما استدار محمود كالمنوَّم، لحقه صوته:

يسمُّونني عبد القادر عزيزة، نسبة لأمّي عزيزة رحمها الله، التي علَّمتني بعد وفاة أبي أن أعتمد دائمًا على نفسي، وأن لا أحتاج شيئًا من أحد حتّى ما يذلّني!

تابعهما بنظره مظلَّلًا عينيه براحة يده اليسرى، وفي يمناه منجله، وهما يبتعدان بين حقول القمح الأصفر المتماوج بنسمات خفيفة.

هزّ رأسه: يحسبونني بخيلًا، سامحهم الله.. أأكون كريمًا لو عوَّدتهم على التواكل؟ والدك سلمان يا محمود كان وجيهًا لعائلتنا، لم يعتد الشغل في الأرض، فله أخ يسنده، عمّك مرشد، وأنت من لك؟ أنت صرت زوجًا ولك عائلة، فعلى من ستعتمد في حياتك أنت وزوجتك الشابّة؟!

هذا درس من عمِّك عبد القادر، ابن عزيزة التي علَّمته الشطارة، والاعتماد على نفسه.. الله يرحمك يا يمّا!

نصحه عمّه مرشد وهو يبتسم، بعد أن جلسا تحت التينة الخضاريَّة في الكرم:

يا محمود.. استعن بعلي دعدرة ليحرث لك أرضك ويزرعها ويحصد محصولك. يعني: اتّفق معه أن يكون مرابعًا. أنت تعرف: منه جهده، ومنك البذار، وحيوانات الحراثة، وعليه الحصاد.. ويأخذ ربع المحصول.

قال محمود:

فكّرت يابا مرشد بخال زينب.

هزّ رأسه مستنكرًا:

يا بنيّ، هو لا يستطيع، فهو مرابع معي، في أرضي، وهو بالكاد يقوم بالحمل الذي على ظهره، وأنا كبرت، وما عدت قادرًا على بذل الجهد كما في أيّام زمان.

صفن محمود، فأخرجه عمّه مرشد من صمته، وحالة الحزن التي تلبَّسته:

اسمع يا محمود كلامي: أنصحك بعلي دعدرة، فهو رجل كويّس، وأمين، وشغيّل.

ضحك العمّ مرشد، وأضاف:

ومش مثلك أنت وعبد الرحمن، فأنتما قضيتما العمر بلا شغل. يلّا: إن شاء اللَّه يمتدّ العمر ونخدمكم جميعًا.

تساءل محمود:

أليس مرتبطًا مع أحد يابا مرشد؟

تناول مرشد إبريق الماء ورفعه عاليًا، فسال الماء من فم الإبريق في الفراغ إلى فمه، وفاض على صدره، وبعد أن ارتوى، مسح فمه:

الحمد للَّه. علي اختلف العام الماضي مع عبد اللَّه الحرح، وأقسم أن لا يرابع معه، واتّهمه بالطمع، والبخل، وخربت الأمور بينهما. اذهب، وقل له: أبوي مرشد يسلِّم عليك.. واتَّفق معه، فهو لن يكسفك، لأنَّه يحترم ذكرى سلمان، ولن يزعلني منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما توقَّع، رأى عددًا من الرجال يجلسون على الأرض بجوار دكّان عمه محمّد صالح، يلعبون السيجة، فتبيَّن ملامح علي دعدرة برأسه الكبير العاري، فهو يتحمَّس عندما يلعب السيجة، وغالبًا يتغلّب على منافسيه.

طرح السلام، فردُّوا عليه وعيونهم مغروسة تتأمَّل حجارتهم الصغيرة، وبعر الماعز، وهي تتقابل، ويأكل بعضها بعضًا، ويقفزون بها من فوق بعضها متصايحين: كلبي أكل كلبك...

صرخ علي دعدرة:

مات كلبك يا غشيم.

انحنى محمود وقبَّل يد محمّد صالح، الذي سحب مبسم النرجيلة من فمه، ونفَّث الدخّان عاليًا، ثمَّ جذب محمود من عنقه وباس جبينه.

أشار له أن يجلس بجواره، فهمس له:

لي شغلة مع علي دعدرة يا عمّ.

غرس مبسم الأرجيلة في فمه، وأغمض عينيه قليلًا، وراقب انحناء محمود على رأس دعدرة، وهمسه له، ثمَّ نهوض علي وانتحاء محمود به بعيدًا عن الجالسين.

همس محمود:

يا عمّ علي.. يسلِّم عليك أبوي مرشد.

سلَّمك الله وسلَّمه...

أنا أحتاج لك في العناية بأرضي...

توقَّف محمود عن الكلام، وتأمَّل وجه الرجل، ورأسه الكبير، وبنيته القويَّة رغم انتشار الشيب في شعر رأسه، وأضاف:

أريد يا عمّ علي أن نتَّفق معًا على...

احتار كيف يوضِّح الأمر لعلي، دون أن يجرح مشاعره، فالرجل معتدّ بنفسه، وهو اشتغل لدى عدَّة رجال من أهل البلد مرابعًا. صحيح أنَّه فقير، ولكنَّه يعيش مستورًا بعرق جبينه، وهو كريم النفس، لا يعتدي على أحد، ولا أحد يعتدي عليه، يعني كما يُقال: هو في حاله.

يا عمّ علي: أريد أن أتَّفق معك على خدمة الأرض.

تنهَّد علي، وتأمَّل وجه الشاب محمود، ابن سلمان، فرأى شبهًا كبيرًا بين وجهه ووجه والده:

أنت، كما أعرف، لا بهائم للحراثة عندك.. صحّ؟

أجاب محمود:

صحّ.

أضاف علي:

فإن شئت أن أجلب بهائم للحراثة، وأتدبَّر البذار، وأتحمَّل الحصاد، ودراسة المحصول، فيا قرابة سآخذ نصف المحصول.

قال محمود:

البذار موجود...

إذًا: ثلث المحصول لي، والثلثان لك.

ابتسم محمود ومدّ يده، وصافح يد علي التي امتدَّت، وهزَّها، ولكنَّه شعر كأنَّ قبضة الرجل تكاد تطحن عظامه، ولكنَّه تحمَّل الوجع، وهو يشعر بأنَّ أصابعه هُرست والتصقت ببعضها بعضًا.

قال علي:

اتّكلنا على الله. سأبدأ مع بدء موسم حرث الأرض. سلِّم على العمّ مرشد، وقل له: خاطره غالي عندي، وسلمان قيمته كبيرة عندي وعند غيري.

أوشك محمود أن يغادر المكان، لكنّه حين التفت خلفه رأى عمّه محمّد صالح يتابعه بنظره، فاتَّجه إليه، وانحنى، وهمس في أذنه بما اتّفق مع علي عليه، بينما أخذ عمّه يهزّ رأسه موافقًا، وصوت الأرجيلة يكركر.

همس عمّه محمّد في أذنه:

كويِّس.. علي شغيّل، وهو سيقوم بكلّ شيء، وأنت يا نسيبي مش بوارد الشغل.

عندما همّ محمود أن ينصرف، أشار له، فانحنى:

هات زينب وتعالوا اسهروا عندنا.

ثمَّ نهض، ودخل دكّانه، وخرج وناول محمودًا صرتين، واحدة فيها حامض حلو وحلقوم، وواحدة فيها تمر.

لزينب.. فهي تحبّ الحلو من صغرها.

احتارت الحاجّة دلال وهي تتلقَّف المولود براحتيها، وهو لا يبكي. قلّبته، وتأمَّلت ما بين فخذيه، فازداد حزنها: ولد.. ولد.. ولكنَّه ميِّت!

ماذا تقول لزينب التي انتظرت أن تنجب ولدًا تُفرح به قلب محمود، وتكيد به حماتها فاطمة، وسلفتها مليحة؟!

في الخارج، لصق الباب ينتظر محمود ملهوفًا، وزينب ترفع رأسها رغم تعبها، وما عانته من آلام المخاض، وبصوت واهن:

بشّريني يمّا دلال.. لأيّ شيء أنت ساكتة يمّا دلال؟! هل الولد ناقص خلقة؟!

المولود بين يدي الحاجّة، وفي عينيها حيرة أخافت زينب:

قولي لي يمّا دلال.. اللَّه يخليّكي.. طمّني بالي.

هذه أوَّل مرَّة منذ أربعين سنة ترى فيها الحاجّة دلال مولودًا يخرج ميِّتًا من رحم أمّه! كانت تظنّ أنَّ ضعف حركة المولود في بطن زينب عاديّة، فكثيرًا ما ولد أولاد وبنات بعد أن ضعفت حركتهم في بطون أمّهاتهم، وخرجوا أسوياء كامليّ الخلق، وأسعدوا قلوب أمّهاتهم وآبائهم.

صاحت زينب وعرقها يسيل على عنقها، ويبلِّل صدرها، ويغرق وجهها:

دخيل اللَّه.. خبّريني يمّا دلال.

حضرت سارة ومعها عبد اللَّه، رفعت يدها محيّية زوج ابنتها، ودفعت باب البيت، فالتقى نظرها بنظر الحاجّة دلال التي كانت تحمل الطفل بين يديها:

خلّيني أشوفه يا حاجّة، فرِّحيني بالولد.. ولّا بنت يا حاجّة؟ بنت بنت.. ومالها البنت.. كلّ الذي من أللَّه خير.

تردَّدت الحاجّة دلال في مدّ يديها بالطفل الميِّت لسارة، وغمزتها:

إرادة اللَّه فوق كلّ شيء. زينب صبيَّة، و.. ربّنا سيعوِّضها.

وضعت سارة يدها على فمها كاتمة صرخة، وشلفت الطفل من بين يدي الحاجّة دلال، وهزّته فلم يستجب. ألصقت أذنها بقطعة اللَّحم العارية، قلّبتها بين يديها، وانفجرت بالنواح وهي ترى خلقته المكتملة، وهو لا يبكي كالأطفال عند ولادتهم، ولا يتنفَّس.

أدركت زينب ما حدث:

الولد ميِّت يمّا؟ ميّت يا حاجّة دلال؟ من شهرين وهو لا يتحرَّك. كنت أنتظره وهو ميِّت يمّا.

رأسها يتمرَّغ على الوسائد التي يستند عليها، ويداها تلطمان وجهها.

خرجت الحاجّة دلال، وأخبرت محمودًا، الذي بدا متوتِّرًا غير مدرك لما يجري في الداخل:

أنت رجل وجدع، عليك أن تهدِّئ زينب. ربّنا أعطى ربّنا أخذ يا ولدي. أعطاك ولدًا وأخذه. الولد خرج ميِّتًا! أنت وزينب شباب، وستنجبون أولادًا وبناتًا. أدخل وطيِّب

خاطر امرأتك، فالحزن ربّما يقطع خلفها يا محمود، يا حبيبي.

وجم وهو يسمع كلام الحاجّة دلال، فشدَّته من ياقة قمبازه:

أدخل وطيَّب خاطر امرأتك حتى لا يحدث لها سوء يا محمود. نشِّف دموعك يمّا يا حبيبي.. يلّا.

دخل، فلحق به عبد الله. انحنى محمود وباس خد زينب، وتشمَّم رائحتها، وأخذ يمسح العرق عن وجهها وصدرها، ويربِّت على رأسها.

قالت الحاجّة دلال:

لازم تسمُّوا الولد، لأنَّه حرام أن يدفن بدون اسم.. جعله الله طيرًا من طيور الجنّة.

قال محمود:

مصطفى. نسمِّيه مصطفى يا أمّي دلال.

خطّان من الدموع يسيلان محاذيين أنف زينب:

كنت بدِّي أجيب لك رشاد.. حتى تصير أبو رشاد.. وأنا أمّ رشاد.

أرادت الحاجّة دلال أن تغيِّر جوّ الحزن بشيء من المرح:

رشاد!.. من أين جئتم لنا بهذا الإسم؟ قال رشاد قال! لا يوجد أحد في ذكرين اسمه رشاد.

قعد محمود عند رأس زينب:

رشاد اسم غير موجود في عائلتنا يمّا دلال، ولا في كلّ ذكرين. سمعته في الخليل، وفي بيت جبرين.. واحد من عائلة العزّة سمّى ابنه بهذا الإسم، فقلت لنفسي: هو اسم حلو.. وغريب، فلماذا لا يكون لي إبن بهذا الإسم؟!

وهي تشمل زينب بنظرة حانية رؤوم، قالت الحاجّة دلال:

السنة الجاية مثل هذه الأيّام، سيكون عندكم رشاد. يلّا شدّوا همّتكم، والعبوا لعبة العريس والعروس. بعدكم شباب، وفي أوَّل العمر.

بسطت سارة راحتيها:

ربّنا يسمع منك يا حاجّة دلال.

وضعت دلال الولد الميِّت على الفراش، ولفَّته بقطعة قماش، وقلَّبت راحتيها أمام عينيّ زينب:

بهاتين اليدين سأستقبل الولد رشاد. في مثل هذه الأيّام، أو قبلها، سيحضر إن شاء الله.

ولسارة:

يلّا يا أمّ عبد الله: إطبخي لِبِنْتك، وشرّبيها مرقة دجاجة حتى تدفئ بطنها، وخلّي محمود وعبد الله يروحوا يدفنوا مصطفى.

حمَّمت الميِّت الصغير، ولفّت جسده كاملًا، وناولته لوالده، الذي احتضنه، وغادر وخلفه عبد الله، وهو يتساءل بحيرة: أين سأدفنه؟ ووجد نفسه يردِّد: بجوار قبر

والدي.. قرب جدّه سلمان.. أي والله.. سأدسّه بجواره.

أمسك قرقر برسن العجل، وهذا لقبه وليس اسمه، وما إن خرج به من بوّابة بيته حتى أوقفه قليلًا طاويًا رسنه، مقتربًا من رأسه، متحسِّسًا عنقه، ورفع صوته:

لحم.. علينا يا لحم. لحم عجول عالمفتول.. عاللّحم يا أهل ذكرين.

واندفع، فخرج الأولاد من بيوتهم، وتجمَّعوا خلفه متصايحين، وهو مبسوط من جَلَبتهم.

الذي معه يلزمه، والذي ما معه لا يلزمه. البيع نقدًا يا أهل ذكرين.

يهوي قرقر على ساقه اليمنى وكأنَّه على وشك السقوط، فرِجْله اليمنى أقصر من اليسرى، وهو لحَّام منذ عشرة أعوام، ورث مهنته عن والده، ابن عمّ محمّد صالح، ومحمّد صالح هو الذي لقبه ب(قرقر) لأنَّه ضئيل الحجم، قصير القامة، وأعرج عرجًا بليغًا.

يتوقَّف لاهثًا، ثمَّ يقترب من العجل الأسود، ويمرِّر أصابعه على البقعة البيضاء على جبينه، ويصيح:

أبو نجمة بيضا يا أهل ذكرين.. طاح اللّحم طاح، اتزفروا يا أهل ذكرين. الذي معه يلزمه.. والذي ما معه بلاش يشتري لحم.. يكفّيه العدس.

في الساحة توقَّف، وأخذ يدور حول العجل رابتًا على ظهره:

واللَّه! خسارة تتذبح يا أبو نجمة بيضا.. عريس.. عريس يا ناس.

صاح عليه عمّه محمّد صالح، وهو يلوِّح بنربيش شيشته:

تعال يا قرقر.

التفت إلى عمّه، وتجاهل نداءه، فهو لا يحبّ أن ينادى عليه بهذا اللّقب الذي ينفر منه، فاسمه شفيق، ومناداته بقرقر تشجِّع آخرين على مناداته به، والسخريّة منه.

رفع محمّد صالح صوته آمرًا:

ولك قرقر.. تعال.

لم يستجب قرقر، فوقف محمّد صالح وهو يرتجف من الغضب:

قرقر: تعال أوزن رطلين لحم لعمّك أبو صالح.

نقدي يا عمّ.

على البيدر يا قرقر. اطعم أهل ذكرين لحمًا، وعلى البيدر يسدِّدون.

لأ يا عمّ: الذي ما معوش بيلزموش.

كسفه قرقر أمام أهل ذكرين، وأشعره بعدم الاحترام، قلّل من قدره وقيمته، فارتجف محمّد صالح، وارتفع صوته مدويًّا مناديًا ابنه البكر:

صالح.. يا صالح.

ردَّ صالح على والده، وعندما وقف تحت نظره، رأى والده ينتصب بقامته على المصطبة، مطلًّا على الساحة بهيئة مهيبة، فرفع رأسه وأصغى لما سيطلبه والده

منه:

صالح: اذهب واحضر ثورنا.. واذبحه، واطعم أهل ذكرين لحمًا، ولا تأخذ من أحد مصاري، فاللّحم يسدَّد ثمنه قمحًا على البيدر.

بهت صالح، ووقف حائرًا، ثمَّ قال بصوت حرص أن لا يسمعه الناس الذين تجمَّعوا في الساحة:

يابا: على ماذا سنحرث أرضنا؟!

ربّنا بيرزقنا يا صالح. يلّا برضاي عليك. واللَّه غير تذبح الثور يا صالح وتطعم أهل ذكرين. عليَّ الطلاق من أم عبد اللَّه امرأة والدك سارة غير تذبح ثورنا، ونطعم لحمه لأهل ذكرين. قرقر كسفني، ويريد أن يذل أهل البلد.. فشرْ!

غاب صالح قليلًا، وعاد جارًّا الثور وراءه، فصاح محمّد صالح بصوت أراد أن يسمعه أهل ذكرين المتجمِّعين في الساحة:

رخّص السعر عن سعر قرقر يا صالح.

قرقر دهش مما يجري، وتيقَّن أنَّ أحدًا لن يشتري منه ، فاقتاد عجله واتَّجه إلى رعنا، ولكنَّه في منتصف الطريق قفل عائدًا، وقرَّر أن يتوجَّه في الفجر لبيع العجل في الفالوجي، فذكرين لن تأكل لحمًا قبل شهر، وهو لا يريد أن يبقي العجل عنده، يطعمه ويعتني به.. وأهالي رعنا لن يدفعوا له مصاري، وسيطلبون منه أن يصبر عليهم حتى البيدر. رفع صوته وهو يتحسَّس رقبة العجل، ويتقافز بجواره: ذبحني عمّي أبو صالح، وأنقذك أنت من الذبح.

صاح في وجه العجل:

مبسوط من عملة محمّد صالح الصوص يا بهيم؟!

ارتفع صوت العجل بجعير عال، وأخذ يركض، وقرقر يركض بمحاذاته لاهثًا، شادًّا الرسن ليخفِّف من ركض العجل الذي بهر أنفاسه وهو يحاول مجاراته.

أيْوه.. جرجر قرقر وراك.. ما أنت فرحان، فلن أذبحك. ماذا فعلت بي يا عمّ؟! مسخرتني بتلقيبي قرقر، حتى أنسيت أهل ذكرين بأنَّ اسمي شفيق، وها أنت تضيّع رزقتي، وتبهدلني!

جبد الرسن، فأخذ العجل يتلوَّى، ويسحب قرقر، وقرقر ارتمى على الأرض، وهو يصيح: توقَّف يا ابن الحرام عن جرجرتي.

توقَّف العجل فجأة، فنهض قرقر، وأخذ يربِّت على رقبة العجل وهو يبكي: حتى أنت بهدلتني، مع إنَّني لن أذبحك، وسأبيعك في الفالوجي ليذبحك غيري.. يا بهيم يا ابن الحرام!

لم يطل الوقت حتى بدأوا يخرجون من الكبّانيَّة، ويتمشّون جماعات حولها. ومرَّة بعد مرَّة وسّعوا من تجوالهم، وتنبَّه لهم الرعاة وهم يقتحمون المغاور والكهوف وأجمات الأشجار البرّيّة، ويتأمَّلون الصخور، وأحيانًا يرسمون عليها خطوطًا متعرِّجة مريبة.

ولكن الذي حدث، وأدهش أهالي بيت جبرين، والعابرين من القرويِّين، هو هذه الآلات الكبيرة التي بدأت تشقّ الأرض بمحاريث هائلة، تغوص عميقًا في الأرض وتقلبها قلبًا.

تراكض من سمعوا بالخبر من بيت جبرين، ثمَّ من القرى القريبة، وأخذوا يتقدَّمون ببطء، وهم يتمتمون، ويهمهمون، منبهرين بما يرون، ومذهولين من تجرّؤ هؤلاء الغرباء على حراثة أرض ليست لهم.

نساؤهم خرجن من داخل الكبّانيَّة بسراويل قصيرة، وبرؤوس عارية، يتطاير شعرهنّ وهنّ لا يأبهنّ لنظرات القرويِّين، ويتضاحكن من دهشتهم وعيونهم المفنجرة.

تراكض بعض الرعاة إلى بيت جبرين، وتوزَّعوا على بيوت المخاتير، الذين أرادوا التأكُّد ممَّا يسمعون، واستعاد الفتيان اللّاهثون المبهورون رواية ما رأوا عدَّة مرّات، ثمَّ اتَّجهوا إلى بيت المختار ياسين أبو سلامة الذي استقبلهم مكفهرّ الوجه:

يتصرَّفون وكأنَّ الأرض أرضهم!

قالها، قبل أن يمدّ أبناؤه الفراش لضيوفه المخاتير والوجهاء.

جلسوا صامتين بانتظار سماع ما يشور به عليهم:

دفع بحطّته وعقاله عن جبينه، وهزّ رأسه كأنَّما يطرد النبأ السيِّئ الذي يبشِّر بأيّام صعبة:

أحضرهم الإنكليز، وقالوا: هم ضيوف، تحمَّلوهم، فهم سيعودون من حيث أتوا...

مرَّ بنظره على الوجوه المكفهرَّة:

اليوم بدأوا يحرثون الأرض.. أرضنا، أرضنا المشاع، أرض مراعينا، وكأنَّه لا أصحاب لها، وغدًا: أين سيحرثون؟!

ارتفع صوت أحد الشباب:

لماذا لا نهجم عليهم، ونطردهم؟!

ردَّ عليه أحد المخاتير:

أسكت يا ولد. عندما يتكلَّم الكبار يسكت الصغار.. أيْوه؟

استأنف المختار أبو فارس كلامه:

هؤلاء أحضرهم الإنكليز، ولن يرحلوا بالتي هي أحسن.

ضرب على جبينه:

ضيوف! قال ضيوف! شو هالضيوف الذين لا نعرفهم، ولا يعرفوننا؟ لماذا لم يأخذ الإنكليز ضيوفهم عندهم في بلادهم؟! ضيوف الإنكليز على حسابنا ضيافتهم يا ناس؟!

تدفَّق كثيرون على بيت المختار أبو فارس. دخلوا من البوّابة، وتزاحموا على الباب، مرهفين آذانهم لالتقاط كلام المخاتير والوجهاء، وعندما حضر الذيب، تباعدوا وأفسحوا له، فمرَّ بينهم، ودخل على المخاتير، وطرح السلام، وجلس قبالتهم مطبق الفم، يتنفَّس من أنفه، ويتنهَّد بين الفينة والفينة، وينقل نظره بين وجوه المخاتير والوجهاء.

قال الذيب، عندما دعوه للكلام:

أنتم يا مخاتير ووجهاء البلد تعرفون أنَّني كنت في الثورة، وأنَّني تنقَّلت في كلّ فلسطين من شمالها لجنوبها، ومن جبال أريحا للبحر، وعبرت للأردن والشام وبيروت.. ومن غزّة لمصر...

تريَّث ليرى وقع كلامه، فران الصمت، وظلَّت الأنظار متَّجهة إليه، فعاد ليكمل كلامه:

هؤلاء ليسوا ضيوفًا. هؤلاء يهود، يدّعون أنَّ فلسطين أرض أجدادهم، وأنَّهم يعودون إليها، وسيطردوننا منها! لهذا ثرنا عليهم وعلى الإنكليز الذين أحضروهم، وسهّلوا لهم بناء مستعمرات.. مثل هذه الكبانيَّة. هؤلاء حضروا ولن يغادروا، وسيتوسَّعون، إلّا إذا...

ارتفع صوت عابرًا الباب:

لازم نهجم عليهم يا ذيب.

تساءل المختار عبد الهادي الهرش، وهو يحكّ بأصابعه تحت كوفيَّته، كأنَّه يستخرج فكرة:

رأيي أن نرسل لهم من يخبرهم بأنَّهم ضيوف، وأنَّه لا يحقّ لهم حرث أرضنا، والضيافة انتهت..

ضحك الذيب، وهو يحدِّق في وجه المختار عبد الهادي:

جرِّب يا مختار.. رووح لعندهم، فأنت رجل عاقل، وأقنعهم بكلامك الطيِّب. قل لهم بالحسنى: أهل بيت جبرين لا يريدونكم على أرضهم!

دفع شاب مبهور الأنفاس من يقفون على الباب، وارتفع صوته:

الرعيان، وبعض الشباب اشتبكوا مع.. مع...

وكأنَّه يفتش عن الكلمة المناسبة، ولا يجدها، فأعانه الذيب:

مع اليهود...

هزّ رأسه، وهو يعيد وضع طاقيَّته على رأسه، ويجذبها حتى تصل إلى أذنيه:

أيْوه.. مع اليهود.

سأله الذيب:

وماذا فعل اليهود؟

طخّوا في الهوا.. ف.. شرد الرعاة والشباب حتى لا يصيبهم الرصاص.

ران الصمت، فقطعه الذيب:

اليوم طخوّا في الهوا.. وبكره في صدورنا يا ناس.

نهض، وفوق رؤوس المخاتير والوجهاء ارتفع صوته:

الخطر وصل لعندنا، والأيّام الجاية فيها دم وموت.. اللَّه يرحمك يا شهيد سرحان...

تمتم المخاتير والوجهاء:

اللَّه يستر.. اللَّه يستر...

ساد شعور بالعجز والحيرة، فاقترح المختار أبوفارس:

سأطلب من ابن أخي أن يخبر الهيئة العربيَّة العليا في القدس، وسننتظر تعليماتها، فلا يجوز أن نتصرَّف وحدنا.

وجدوا في اقتراح المختار أبي فارس مخرجًا، وإن أثقل ما يحدث على صدورهم، وزرع القلق في نفوسهم، فتفرَّقوا واجمين محزونين.

حضر بنَّاء من الخليل بعد أن حدَّد موقع المدرسة في مدخل القرية. ابتدأ البنَّاء برفع السور، ثمَّ برفع جدران غرفتين فسيحتين من الحجارة الدبش، وهي بأغلبيَّتها مدوّرة، ولا تأخذ جهدًا من البناء في تهيئتها، وقد جُلبت من التلال المجاورة على ظهور البهائم.

تركت بين الأسوار مساحة تكفي ليتعلَّم فيها الأولاد الزراعة، فانشغل أهالي ذكرين رجالًا ونساء ببناء غرفتي المدرسة، والسور الذي ارتفع حتى حزام الرجل الوافي الطول.

كان البنّاء قد أحضره معه حجَّارا من الخليل لتهيئة الحجارة، وتشذيبها، في حين انهمك أهل ذكرين بمزج التراب بالتبن والماء لتثبيت الحجارة بالطين، ورفعها في مداميك تعلو مع غياب شمس كلّ يوم.

النسوة الرائحات الغاديات إلى الحقول، كنَّ يراقبن من فوق السور ارتفاع غرفتي المدرسة، ويتمنَّين لو أنَّ غرف بيوتهن مبنيّة مثلها، فهي ألطف من غرف بيوتهن الكبيرة ذات الأقواس، والمعتَّمة حتى في النهار، والتي بالكاد تظهر لهن الأسرجة عند إشعالها شيئًا يبحثن عنه في عتمتها.

قدَّم أهالي القرية العون للبنّاء بنقل الماء على ظهور بهائمهم، ووفَّروا لهم وجبات الطعام، وعندما فرغوا من البناء تمامًا، وتجلّت المدرسة كالعروس بسورها وغرفتيها، وبالمساحة المهيَّأة للزراعة، والبوابة، أولم الذكارنة للبنَّاء ورفيقه في بيت المختار أبو إسماعيل، وأوصلوهم إلى بيت جبرين، لينتقلوا من هناك إلى الخليل.

مدرسة لذكرين!

يتأمَّل الذكارنة البناء، ويتخيلون أولادهم في الغرفتين، وهو ما سيغنيهم عن إرسالهم إلى بيت جبرين وغيرها، ويشجِّعهم على تعليم الأولاد فكّ الحرف، وقراءة القرآن، وتعلُّم الحساب.. أمّا الزراعة، فالأولاد يتعلَّمونها من أهلهم في حقولهم.

تمنَّى محمود لو أنَّه صغير السنّ ليتعلَّم في المدرسة عندما يحضر الأستاذ الذي سترسله الحكومة، كما أخبر المختار أهالي البلد.

توقَّف محمود عند بوابة المدرسة، وأرسل نظره إلى الداخل، وتخيّل الأولاد وهم يتعلَّمون القراءة والكتابة، مثل أولاد المدن، فتمنَّى أن يرى ابنًا له وهو يتعلّم ويكتب ويقرأ.

مضى بين الكروم، فابتهج بالخضرة الممتدَّة حول القرية، وأرهف سمعه مستمتعًا بهديل الحمام، وفوق رأسه مرقت عصافير الدوري مرفرفة مزقزقة، وكأنَّها تمازح بعضها بعضًا، ثمَّ هبطت على أغصان الزيتون.

عاد يتأمَّل المدرسة التي جعلت مدخل ذكرين أجمل، وقرَّر أنَّه عندما يرزق برشاد، ويعوِّضه عن أخيه الذي ولد ميِّتا، ويكبر، فسيعلِّمه في مدرسة البلد، وبعدئذ سيرسله ليكمِّل تعليمه حتى الصفّ السّابع في القدس، و.. يصير أستاذًا.. من يدري؟!.

تساءل محمود: لماذا لا نبني بيوتنا مثل بناء المدرسة؟ غرف لها نوافذ واسعة، بدون أقواس، وبدلاً من الغرفة الكبيرة، نبني غرفًا متجاورة كغرفتيْ المدرسة، الأبناء في غرفة.. أو أكثر.. والأب والأمّ في غرفة مثل بيوت الناس في المدن!

آباؤنا كانوا ينامون في بيوتهم الواسعة مع الجمل، والبقرة، والثور، خوفًا عليها من السرقة! نحن ما عدنا نطيق هذه الحياة بعد ما شفنا كيف يعيش الناس في الخليل، والقدس، فهل سيرضى أولادنا بهذه الحياة إذا تعلَّموا في المدرسة؟!

آخ.. لو أبني غرفتين في قطعة الأرض المجاورة لكرْم عمّي مرشد، والقريبة للمدرسة!

من يدري! ابتسم، ومضى بين الكروم، متأمِّلًا حركة الحياة في الحقول، والكروم، واتّساع السماء وزرقتها الرائقة.

أخذت فاطمة في الارتجاف وهي تسحب ذوابة من كمّها:

المصاري اختفت يا ذوابة.

تفاجأت ذوابة:

كيف اختفت يا فاطمة؟!

اندفعت فاطمة إلى الفراش، ودسَّت يدها في طيّاته السفلى، وتحسَّسته بعصبيَّة، وبصوت يكاد يختنق:

كنت أوفّر لأذهب للحجّ يا ذوابة!

أعرف يا أختي أعرف، تعالي ننزل الفراش.

أهالتا الفراش المرصوص فوق بعضه، وأغلبه فرشات وألحفة محشوَّة بالصوف، تستعمل في الشتاء اتِّقاء للبرد الشديد.

تنفض ذوابة اللّحف وتكوِّمها جانبًا، وتقلِّب الفرشات، وحتى الوسائد تدوِّرها بين يديها، وكأنَّما صرّة المصاري التصقت بها.

تقول فاطمة متفجِّعة قانطة:

راحت المصاري يا ذوابة.

وضعت ذوابة يديها على خصرها، وقد يئست، وتساءلت:

من سيسرقها يا فاطمة؟

لاذت فاطمة بالصمت، ووجهها يقطِّر حزنًا وغضبًا، وبدنها يرتجف. تركت ذوابة الفراش كما هو، وهمَّت أن تخرج ، فإذا بعبد الرحمن ومليحة يظهران في الباب. سأل عبد الرحمن أمّه متفاجئًا:

لماذا تتكتين الفراش يمّا؟!

بصوت واهن:

مصاري خالتك!.

احتارت في اختيار كلمة مناسبة، لا توحي باتّهام أحد، فأضافت:

اختفت.. وكأنَّ أرضًا انشقَّت وابتلعتها!

ركَّزت فاطمة نظرها عليه وعلى زوجته، وكأنَّها تتَّهمها. انتفض عبد الرحمن:

واللَّه أنا ومليحة لا نعرف إن كان يوجد مصاري لخالتي! ولكن، يعني، أقول: اسألي يا خالة فاطمة ابنك.. آ.

مليحة لم تنطق بكلمة، وبدت غير متفاجئة، تنقل نظرها بين وجهيْ المرأتين فاطمة وذوابة، وتشيح نظرها عن عبد الرحمن.

لم تفصح فاطمة عمَّا تفكِّر به، لكنَّها، وهي تتأمَّل عبد الرحمن ومليحة قالت في نفسها: أنت يا عبد الرحمن ومليحة سرقتما المصاري. محمود لا يدخل هذا البيت،

وزينب دخلته مرَّات قليلة، ولكنّها ما عادت تدخله منذ زعلت منها. وأنا خبَّأت المصاري عند أمِّك لأنَّها لا تغادر البيت.

رمقت ذوابة مليحة بنظرة متفحِّصة:

يا حبيبتي يا مليحة دوّري معنا، يمكن تلقي المصاري، أو يمكن اختفت الخرقة الملفوفة بها في صندوق ملابسك دون أن تنتبهي!

صاح عبد الرحمن:

لأ: مليحة لم تر شيئًا، ولا تمدّ يدها إلى شيء.

توجَّه إلى زوجته:

افتحي صندوقك، وافردي ثيابك قدّام أمّي وخالتي.

قالت فاطمة في نفسها: وهل كنتما ستخبِّئان المصاري في الصندوق؟! قلبي يحدِّثني بأنَّكما سرقتما المصاري، وستحرماننني من الحجّ.

انحنت مليحة على الصندوق وفتحته، ونبشت أثوابها أمام نظر المرأتين حتى فرغ الصندوق تمامًا، فعادت تنفض أثوابها، وترميها في الصندوق.

صرخ عبد الرحمن:

أنا ومحمود لازم نروح للفالوجي، ونحلف في المقام، وخاصّة محمود.. هو الذي يجب أن يحلف بأنَّه بريء.

ضربت فاطمة كفًّا بكفّ، وكادت تسقط من شدَّة خوفها على ابنها:

محمود.. وحيدي.. يحلف في سيِّدنا الفالوجي؟! تريده أن يحلف يا عبد الرحمن، ويلحق به أذى من سيِّدنا الفالوجي؟

صاح من جديد:

إن كان بريئًا يمَّا فاطمة، فلن يؤذيه سيِّدنا أحمد الفالوجي.

فوجئوا بصوت محمود قبل ظهوره وهو يقف في الباب:

تريدني أن أحلف في مقام سيِّدنا الفالوجي؟ أنا سأحلف.. فأنا بريء، ولا أدخل في بيت أبي مرشد وأمّي ذوابة، ولماذا أدخل؟ وزينب لم تدخل هذا البيت منذ زعلت منها أمّي، ولكن: والله العظيم، وقسمًا بسيِّدنا الفالوجي أنَّك ومليحة سرقتم مصاري أمّي.

استدار، وابتعد، وحين رفع نظره رأى زينب تقف ونصف جسمها العلْويّ يظهر من وراء البوابة التي تفصل بين الدارين، وحين وصلها، ضحكت من أنفها:

يريدك عبد الرحمن أن تحلف؟ وحياة رأس محمّد صالح أنَّها لم تفتهما، وأنَّ المصاري...

استدار محمود وصرخ:

في الفجر، استعدَّ يا عبد الرحمن حتى نذهب إلى الفالوجي. سأخبر حسن ابن عمّنا، وأخي أحمد، أن يحضرا معنا، ليشهدا، وأنا أول من سيحلف، ثمَّ تحلف أنت. إن لم

تحضر، ونلتقي صباحًا في الفالوجي، فأنت السارق يا عبد الرحمن!

صاحت ذوابة:

لأ.. ربّنا سيعوِّض المصاري، لكن لا تذهبا للفالوجي. لا نريد فضيحة، ومصيبة تقع على رؤوسنا من سيِّدنا أحمد الفالوجي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من صلاة الفجر، سروا معًا: محمود وشقيقه أحمد وحسن ابن عمّهم، جار محمود وصاحبه.

تساءل أحمد، موجِّهًا كلامه لشقيقه محمود:

ألا يمكن أن نحلّها دون حلفان يا أخي؟ فلنخبر عمّي مرشد...

ومحمود يندفع كأنَّه في سباق، وصوت لهاثه يتصاعد:

سيكذب على أبي مرشد.

قال حسن:

واللَّه! أشعر كأنَّني ذاهب إلى جنازة. أنا حزين أن تصل الأمور إلى حدّ الحلفان في سيِّدنا الفالوجي.

كروم ذكرين خلفهم، والفجر تتَّسع خيوطه البيضاء، وبداية خيوط الشمس تتصاعد من وراء التلال، ومجموعات من الناس، من القرى المجاورة، تسير متَّجهة إلى الفالوجي، منها من له حاجة في السوق، ومنها من سيزور الضريح ليتبرَّك به.

تساءل أحمد:

ولكن يا أخي يا محمود: ماذا لو لم يحضر عبد الرحمن؟

بصوت مرتجف، وتنفُّسه صار لهاثًا عاليًا:

سأحلف أمامكما، وتكونان شاهدين، ونحكي ما جرى لأبي مرشد، ولأمّي وخالتي.. وتلبسه السرقة لأنَّه هرب.

لاحت قبة الضريح قبالتهما، فغذّوا السير متوجِّهين صوبها، وتوقفوا في مدخل المقام، وفجأة، قفز محمود والتصق بالضريح، وصاح مغضبًا ومقهورًا:

وحياتك يا سيِّدي أحمد يا فالوجي ما سرقت مصاري أمّي فاطمة، ولا علم لي بها، ولا أين كانت تخبِّئها، ولا زوجتي تعلم بها، ولا مدّت يدها وأخذتها.

استدار وتأمَّل وجهيْ أحمد وحسن المقطَّبين المحزونين القلقين:

وحياتك يا سيِّدي أحمد يا فالوجي أنَّ عبد الرحمن قد سرق المصاري.

احتضنه أحمد وحسن وهم ينشجون جميعًا أمام الضريح، ثمَّ مضوْا خارجًا، فاندفع إليهم أطفال فوالجة، ومعهم أباريق فخارية ترشح ماء باردًا، وهم يتصايحون: بتعريفة.. بتعريفة الإبريق. إشرب الماء البارد بتعريفة يا عمّ.. أتبارك بماء سيِّدنا الفالوجي يا عمّ.

أخرج حسن تعريفة من جيبه ووضعها في يد أحد الأولاد، وتناول الإبريق وقدّمه لمحمود:

اشرب. برِّد قلبك يا ابن العمّ.. يا صاحبي وأخي. واللَّه إنَّك بريء، ونحن نعرف أنَّك بريء.

رفع الإبريق وجعل فمه مائلًا، ودلق الماء في فمه المفتوح، ففاض الماء على صدره، وبلَّل قمبازه. ناول الإبريق لأحمد الذي شرب حتى ارتوى، ثمَّ ناوله لحسن فشرب، وقال لمحمود:

أفرد يديك...

صب حسن الماء في راحتي محمود، الذي بلَّل وجهه بالماء البارد، وتنفَّس بعمق، كأنَّه يخرج من قاع معتم خانق، وتنهَّد بقهر:

آآآآه...

قال أحمد:

عبد الرحمن.. لن يحضر يا أخي.

وإذ هم يتجوَّلون متأمِّلين السوق، وتدفّق الناس، بوغتوا بالعمّ مرشد، وهو يندفع إلى المقام. ناداه أحمد:

يا عمّ مرشد.. نحن هنا.

اقترب منهم، وهو يصرخ في وجوههم:

سوّد اللَّه وجوهكم!.. كيف تسمحون لمحمود أن يأتي للفالوجي؟!

أمسك بمحمود من ذراعه، وهو يتساءل مستنكرًا:

هل حلفت يا محمود؟!

أشار محمود إلى أحمد وحسن، فقالا معًا:

حلف يا عمّ مرشد.

أضاف أحمد:

وأمسك بقماش الضريح وحلف أنَّه بريء، وأنَّ عبد الرحمن هو من...

لم يكمِّل أحمد كلامه حتى لا يغضب عمّه مرشد.

آخ.. آخ... لم تخبرني فاطمة وذوابة.. أخبرتني مليحة، فتركت أشغالي، ولحقت بكم عساي أردّكم قبل وصولكم للفالوجي.

لفَّ ذراعه حول كتف محمود:

أنت يابا بريء، وأنا أحلف أنَّك بريء.

ناول أحمد خمسة قروش:

اشترِ لنا خبزًا وحلاوة لنفطر، وهات لنا إبريق ماء بارد، ولنعد إلى ذكرين قبل أن تحمى الشمس، يلّا يا أحمد يابا. واكتموا الأمر، ومن يسألكم أخبروه بأنَّنا حضرنا لزيارة سيِّدنا أحمد الفالوجي لنوفي نذرًا علينا.

قعدوا بجوار حائط المسجد صامتينٍ بانتظار أحمد. كان مرشد يرفع رأسه وينقل نظره على وجوه الناس، ويضرب كفًا بكفّ، ويتمتم بكلام لا يسمعه محمود وحسن، لكنَّهما يعرفان ما يفكِّر به، وما يقوله، دون أن يسمعاه، فهو لايرضى بما جرى، وهو يخشى أن تفسد العلاقة بين أبناء العمّ الذين تربُّوا في بيت واحد كأخوة، وهو يستذكر أخوّته مع سلمان، وهو يتمتم: أهكذا تكون الأخوّة؟! لم يفرِّقنا شيء يا سلمان، وهؤلاء يتفرَّقون من أوَّل مشوارهم في الدنيا!

عاد أحمد، فمضغوا طعامهم بدون نفس، وظلّ العمّ مرشد يمسك بكسرة خبز، يهمّ أن يقسمها، ولكنَّه يموِّج رأسه، وفي عينيه دموع وحسرة.

أَمَرهم:

هيا بنا.. الشمس حميت، وأمامنا مشوار.. يلّا.

وانطلقوا مسرعين صامتين تحت شمس ارتفعت في السماء، تصبّ على رؤوسهم حرارتها.

ينحني محمود على سور المدرسة، ويصغي لكلام الأستاذ، والأولاد يردِّدون خلفه كلامه.

من شبّاك الغرفة يراه وهو يدير ظهره ويكتب شيئًا على اللّوح، ثمَّ يستدير، ويرفع صوته، فيردِّد الأولاد خلفه ما يقول.

كلَّما مرّ بمحاذاة المدرسة يتوقَّف، ويتأمَّل ما يفعله الأستاذ والأولاد. بعض الأولاد يلعبون خارج الغرفتين، وبعضهم يجلسون، وينهمكون في الكتابة.

تصايح الأولاد، واندفعوا خارجين من غرفة الدرس.

توجَّه الأستاذ صوبه، فشعر محمود بالحرج ظنًّا منه أنَّ الأستاذ متضايق من وقوفه على السور، ومراقبته له وهو يعلِّم الأولاد.

ابتسم الأستاذ له، وهو يمدّ يده من فوق السور:

أنا الأستاذ علي، من زكريا، جاركم يعني، فقريتكم ذكرين، أو زكرين، وقريتنا زكريا.. الفرق طفيف بين اسمي قريتينا.

لم يعرف محمود ماذا يقول، ولكنَّه ارتاح لاهتمام الأستاذ به:

نفسك تتعلَّم يا...

محمود يا أستاذ...

أشار له الأستاذ أن ينتظره. التفّ وفتح باب المدرسة، واتَّجه إلى محمود، ومدّ له يده من جديد مصافحًا، وهزّ يده:

أنت تتمنَّى لو أنَّك تعلَّمت، أليس كذلك يا محمود؟

هزّ محمود رأسه:

كأنَّك في عقلي يا أستاذ.

أضاءت ابتسامة واسعة وجه الأستاذ:

علي.. اسمي علي يا محمود. يلّا نتمشى حول زكرين يا محمود، فالأولاد يتعبونني، وأنا الأستاذ الوحيد، وعددهم كثير. غير معقول كلّ هذا على أستاذ واحد. كيف سأعلِّمهم الحساب، والقراءة، وقراءة القرآن؟! مش معقول هذا. أهل ذكرين فقراء، فمن أين لهم أن يحضروا أستاذًا على نفقتهم؟! حكومة الانتداب تنهب بلادنا، ولا تقدِّم لنا شيئًا يا محمود.

صمت، وضرب حصاة بمقدّم حذائه، ثمَّ لحق بها وضربها من جديد:

أترى يا محمود كيف فعلت بالحصاة؟ بريطانيا المجرمة تفعل بنا هذا، إنَّنا بالنسبة لها حصاة تلعب بها، وبمصيرها.

ودّ محمود لو يخبره بأنَّه شارك في الثورة، وكان من رجال أبو زياد الشلف، ولكنَّه تردَّد خجلًا وحذرًا. ثمَّ: ماذا لو سأله إن كان قتل جنديًّا إنكليزيًّا في المعارك،

واستولى على بارودته، فبماذا يجيب؟ أيقول له بأنّه أخذ ستّ رصاصات من بارودته اليونانيَّة الهاملة؟!. لاذ بالصمت، فباغته الأستاذ علي بالسؤال:

هل عمرك دخلت السينما يا محمود؟

السينما!. ما هي السينما يا أستاذ علي؟!

ضحك الأستاذ علي، وهو يضع يده على كتفه كما لو أنَّه صاحبه:

يوم الخميس القادم، نذهب معًا إلى يافا وندخل السينما، ونتفرَّج على فيلم لمحمّد عبد الوهاب، وننام في الفندق، وسأعرفك بناس محترمين.. ها، ماذا قلت؟

تمام، موافق.

استدار الأستاذ علي، فتبعه محمود، ومضيا صامتين، حتى بلغا مدخل المدرسة، لتستقبلهما جلبة الأولاد، مدّ الأستاذ علي يده لمحمود، وضغط عليها كأنَّه صديق قديم، فسرَّ محمود لمعاملة الأستاذ له، وقفل عائدًا إلى البيت سعيدًا بيومه، فأستاذ المدرسة بات صديقًا له، بدليل أنَّه يدعوه لمرافقته إلى يافا، ومعًا سيدخلان السينما، ويتفرَّجان على فيلم، ووجد نفسه يتساءل: ما هي السينما، وما هو الفيلم؟! لقد سمعت عن السينما، ولكنَّني لم أدخل وأتفرَّج عليها...

تمشى ببطء بمحاذاة سور المدرسة، وعندما بلغ نهاية السور، استدار، وسرح في تأمُّل الكروم والحقول المزروعة قمحًا وشعيرًا، وأرهف سمعه لهديل الحمام البرّي، وأطلَّ من فوق السور متابعًا صخب الأولاد، متسائلًا: أيّ مستقبل ينتظركم؟ هل ستكبرون وتتعلّمون هنا في قريتكم، ومن منكم سيشِّجعه أهله على متابعة تعلُّمه في القدس، أم ستكتفون بفكّ الحروف، وتنضمُّون لآبائكم في العيش من الكدح في الأرض، والعيش ممَّا تنتج، وتتزوَّجون، وتهرمون مبكرًا من شقاء حياتكم؟!

سمع صوت محمود يناديه، فالتفت، وهو يتساءل: لو كانت مع محمود ساعة لحضر في تمام الوقت الذي اتَّفق معه عليه بالأمس. ومع ذلك، فقد حضر غير متأخِّر سوى دقائق قليلة. أعاد ساعته إلى جيبه، ومدّ يده مصافحًا محمودًا الذي بدا فرحًا بهذه الصداقة مع الأستاذ، ومتلهِّفًا على سماعه، فهو يفتح مخّه على أمور لم يفكِّر بها من قبل.

أنا أحبّ منظر حقول القمح، وهو أخضر على امتداد النظر. هيَّا بنا نتمشَّى إلى حقل عمّك مرشد.

لم يتنبه إلى أنَّ محمود يحمل صرّة، ولكنَّه حين رآها عرف أنَّ محمودًا أحضر خبزًا وشيئًا معه.

رفع محمود الصرّة مبتهجًا:

أمس، أخبرتني بأنَّك تحبّ تناول الطعام في البرّيّة، بين الزرع، واليوم أحضرت خبزًا وبيضًا وحبّات بطاطا مشويّة...

أحسنت يا رفيق محمود...

هذه أوَّل مرَّة يناديه فيها: يا رفيق، ولذا سرّ جدًّا، وإن لم يفهم تمامًا معناها، لكنَّها قريبة من صديق، وهذا يعني له أنَّه والأستاذ باتا صديقين، وهو ما يشعره بالرضى.

نادى الأستاذ على أحمد، فاندفع من بين الأولاد، ووقف أمام أستاذه، فأمره:

املأ إبريق الماء من الجرّة وأحضره.. يلّا يا شاطر.

التفت إلى محمود:

هذا الولد شاطر.. إن علَّمتموه سيكون له مستقبل.

هو ابن عبد الرحمن ابن عمّي مرشد.

قال الأستاذ علي:

أعرف ذلك من اسمه وكنيته.

مرَّر الأستاذ نظره على حقول القمح المترامية أمامه، ثمَّ رفع يده اليمنى، وأشار إلى الحقول الخضراء:

أترى يا رفيق محمود هذه الحقول، وسنابل القمح الخضراء؟

لم يفهم محمود قصد الأستاذ، ولكنَّه هزّ رأسه، كأنَّما يقول: أنا أرى.

تنهَّد الأستاذ بحسرة:

لا أدري إن كانت ستنضج وتحصد، فاليهود مسلحون، ومعهم الإنكليز، ونحن يا رفيق ضعفاء، وشعبنا يجهل ما يدبّر له، والحرب قادمة لا محالة.

توقَّف عن الكلام، ولم يتابع، فتمنَّى محمود لو يشرح له أكثر.

استدار الأستاذ، وأمسك بذراع محمود:

أنت شاركت في الثورة، ورأيت كيف أُنهيت الثورة بأمر من الملوك والحكّام العرب: عودوا إلى بيوتكم، وثقوا ببريطانيا الصديقة. أليس هذا ما أمركم به قادتكم؟ استشهد كثيرون، وجرح كثيرون، ولم تتحقَّق أهداف الثورة!. أوقف الحكّام ثورة شعبنا خدمة لبريطانيا يا محمود، وبريطانيا لم توقف تسريب اليهود إلى فلسطين.. أترى يا محمود؟! بريطانيا أعطت وعودًا كاذبة، وهي منخرطة في حرب مع ألمانيا، وهي أرادت يا محمود أن تتوقَّف ثورة شعب فلسطين لتتفرَّغ جيوشها لمحاربة ألمانيا، وهي لن تعطينا شيئًا. فعلت هذا من قبل مع الثورة العربيَّة الكبرى. هل سمعت بالثورة العربيَّة الكبرى يا محمود؟!

حرَّك رأسه إلى الأعلى، فواصل الأستاذ علي:

أعرف أنَّك لم تسمع بها، وكثيرون من شعبنا لم يسمعوا بها، فكيف نتعلَّم من دروسها؟ بريطانيا خدعت الشريف حسين، وتقاسمت بلاد العرب مع فرنسا. فمن فضح المؤامرة؟ الاتّحاد السوفيّيتي يا محمود.

شعر الأستاذ أنَّه يثقل على عقل محمود، فخلع كوفيَّته، وطلب منه الجلوس بجوار مارس قمح الشيخ مرشد، وشرعا في تناول إفطارهما. نهض الأستاذ، وأخذ يتنقَّل بين القمح بحذر حتى لا يدوس على السنابل الطريّة باحثًا عن الأعشاب التي اعتاد أكلها مع الخبز، أو بدونه، وبخاصة: الحويرنة، فهو يحبّ لذعتها الحرّيفة، وودّ وهو ينتزعها لو يتوافر لبن مخيض، فلا أطيب من طعمها مع اللّبن المخيض وخبز الطابون.

عندما جلس، سأله محمود:

ماذا كان على قيادة الثورة أن تفعل يا أستاذ؟

واصل مضغ ما في فمه، ثمَّ شرب من إبريق الفخار، ومسح فمه:

أن لا يوقفوا الثورة.. إلّا بتحقيق المطالب الفلسطينيَّة يا محمود!

ثمَّ دسّ لقمة في فمه مع قضمة من بيضة، ولفَّ عرق حويرنة على لقمة دسَّها في فمه، وانهمك في المضغ.

لفَّ محمود ما تبقى، ونهضا، ومضيا صامتين، إلى أن بلغا باب المدرسة، وقبل أن يفترقا، سأله الأستاذ:

هل سأراك غدًا؟

ردَّ محمود ووجهه يتهلَّل:

أودّ لو أبقى معك طيلة اليوم يا...

رفيق...

يا رفيق...

وهو يبتعد، تأمَّله الأستاذ، وتساءل: هل ستكون أوَّل رفيق شيوعي يا محمود في ذكرين؟ وهل ستؤمن بوعي، ويتفتَّح عقلك، أنت الأمي البسيط، ونكسب مناضلًا صلبًا؟ من شارك في الثورة، وامتلك بندقية يونانيَّة متواضعة، وقاتل في معارك جبل الخليل، واندفع وعمره أقلّ من عشرين عامًا لينضمّ للثورة، يملك حماسة ووطنيَّة تؤهِّله أن يكون مناضلًا واعيًا.. لا شكّ في هذا. سنرى ما تخبِّئه الأيّام يا رفيق محمود!

وقف الأستاذ علي خارج باب المدرسة بانتظار محمود.

أقبل محمود مسرعًا، وعندما وصل قابله الأستاذ علي بضحكة:

لو كان معك ساعة لعرفت الوقت يا محمود.

أخرج الساعة من جيب جاكتته، وتأمَّلها، ورفعها تحت عينيْ محمود:

أنظر: إنَّها الحادية عشرة والربع.

تساءل محمود بدهشة، وهو يحدِّق في الساعة، وما فيها من أشياء لا يفهمها:

كيف عرفت أنَّها ال...؟

سأشرح لك الأمر على مهل، أكثر من مرَّة لتتعرَّف على الوقت، ولا يبقى عليك سوى شراء ساعة.

تساءل الأستاذ علي:

ما رأيك أن نتَّجه إلى تلك التلَّة، ثمَّ ندور حولها، ونعود إلى المدرسة، فالأولاد يجب أن لا يُتركوا وحدهم لفترة طويلة.

أشار محمود إلى سفح التلَّة:

ذلك الرجل هناك هو عمّي مرشد، وأنا لا أحبّ أن يراني، خاصّة وهو يعمل، فأنا أخجل منه، فهو يقوم بكلّ أعباء الأرض، وأنا وعبد الرحمن ابن عمّي مرشد اعتدنا أن لا نفعل شيئًا.

توجَّها شرقًا صامتين، وفجأة توقَّف الأستاذ، وقال ضاحكًا:

أنت وابن عمّك تعيشان عالة على عمّك، يعني تأكلان ولا تنتجان!

شعر محمود بالحرج.

واصل الأستاذ خليل:

الاستعمار يأكل خيرات الشعوب ولا يعمل.. بل يعمل: يغرقها في التخلُّف يا محمود. أنت وابن عمّك عالة على عمّك مرشد، أمّا الاستعمار فهو عالة على الشعوب، وهذا هو حال بريطانيا المجرمة.

الأستاذ علي يحكي، ومحمود يحاول أن يفهم كلّ كلمة، وما لا يفهمه يتمنَّى لو يعيده الأستاذ من جديد، ولكنَّه لا يعرف كيف يسأله مستفسرًا عمّا استغلق على عقله.

ضبط محمود خطاه على خطى الأستاذ الذي يمشي ببطء. يسمع صوت الأستاذ ولا يستبين كلماته، وبغتة استدار الأستاذ علي وتساءل، وهو يمسك محمودًا من كتفه:

هل تعرف العلاقة بين بريطانيا المجرمة والحركة الصهيونيَّة يا محمود؟!

أفلت كتف محمود ونظر في عينيه:

يا محمود: نحن في عصبة التحرُّر الوطنيّ، نناضل ضدّ الاستعمار البريطاني المتحالف مع الصهيونيَّة.

ابتسم في وجه محمود، وربَّت على كتفه، وهو يقف وجهًا لوجه معه، وقال له ببطء، وكأنَّه يغرس كلّ كلمة في رأسه:

هذا هو دورنا: تنظيم شعبنا، وتوحيده، والتصدِّي لأعدائنا: بريطانيا والصهاينة.. والقوى الرجعيَّة.

لم يفهم محمود الأمر، ولكنَّه أظهر للأستاذ وكأنَّه يفهم، وإن ظلّ واجمًا، وعلى وجهه علامات الدهشة والحيرة، والرغبة في الفهم.

توقَّف الأستاذ عند بوّابة المدرسة، ومدّ يده لمحمود، وصافحه بحرارة:

هل ستحضر غدًا، في مثل هذا الوقت؟ لا بدّ أن تعرف الزمن، ولذا يجب أن تمتلك ساعة. آه يا محمود: مشكلتنا أن شعبنا لا يعرف الوقت، وهو خارج الزمن منذ حكم الأتراك، وفي زمن انتداب بريطانيا على فلسطين. الزمن يا محمود! الزمن يمضي ونحن نجهل ما يدبّر لنا!

وقبل أن يمضي أخبره:

قريبك أحمد ولد شاطر.

آ.. أحمد ابن عبد الرحمن، والده ابن عمّي وابن خالتي، وأنا ووالده مثل الأخوة.. تربَّينا في بيت واحد.

ربَّت على كتفه:

شجِّع أهل البلد على تعليم أبنائهم، أن يرسلوا أولادهم للمدرسة ليتعلَّموا. فالجهل.. الجهل هو عدوّنا يا محمود. نلتقي غدًا.

دخل الأستاذ علي فناء المدرسة، فالتفَّ الأولاد حوله، بينما مضى محمود دون أن يحدِّد إلى أين يتَّجه، فهو ما إن يودِّع الأستاذ خليل حتى يغرق في التفكير والتساؤل عن كلّ ما يقوله له.

أربعون يومًا، لم تجئها فيها العادة الشهريَّة. انتظرت شهرًا آخر فلم تجئها. لم تطق الانتظار فتوجَّهت إلى بيت الحاجّة دلال، وأخبرتها بما حدث معها.

مدَّدتها الحاجّة دلال، ومرَّرت يدها على بطنها، وتحسَّست رحمها، ثمَّ أمرتها بلهجة مرحة:

قومي يا امرأة.. أنت حامل. والله أعلم أنَّك دخلت الشهر الثاني.

أمسكت زينب بيدها وباستها، ووضعتها على جبينها:

طمَّنت قلبي يمَّا دلال.. الله يطمِّن قلبك.

ضحكت الحاجّة:

بيدي هاتين استقبلت زوجك، وها أنا أستقبل أبناءه. لهذا يا بنت: كلّ أهل ذكرين ينادونني يمَّا، ما عدا كام عجوز ولدوا علي راحتيْ المرحومة والدتي، فأنا أختهم، يعني: أنا إما أمّهم أو أختهم في ذكرين. يلّا روحي على بيتك، وديري بالك على نفسك. لا تحملي أيّ شيء ثقيل.. ربّنا سيعوِّضك عن الولد الذي نزل ميِّتًا. ربّنا كريم يا زينب، لا ينسى أحدًا من فضله.

حملت زينب نفسها، وهي تكاد تطير من فرحتها، ولكنَّ القلق دهم نفسها: ماذا لو ولد ميِّتًا.. هذا الذي في بطني؟ لا.. الله لا يقدَّر، ولا يسمح.. والله سأموِّت نفسي لو حصل هذا مرَّة ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت بحركة ما في داخلها. ما في بطنها ضربة قوِّيَّة أيقظتها من النوم. ضرب مرَّة أخرى وهو ينتقل من جهة إلى جهة، فأمسكت بيد محمود ومرَّرتها على بطنها، ففتح عينيه:

إنَّه يتحرَّك يا زينب.. يتحرَّك.. ولد يا زينب.. إن شاء الله.. ولد.. رشاد.. رشاد يا زينب.

قعد، ودفع اللّحاف بعيدًا، واحتضن رأسها، فدعت الله أن لا يكسر بخاطرهما، ويرزقهما برشاد.

ما عادت زينب تحمل شيئًا ثقيلًا، ولكنَّها تحمل جرّتها وتتَّجه إلى الآبار، تملأها وهي تظهر بطنها، وتردّ بابتسامة على رفيقاتها اللواتي يهنِّئنها بحبلها، وبأنَّ الله سيعوِّضها عن الذي فقدته.

تمشي ببطء عائدة والجرّة ممتلئة على رأسها، وهي تنقل أقدامها بحذر.

في البيت، ينتظرها محمود في مدخل الزقاق، يمسك بالجرّة وينزلها عن رأسها، ولولا الحياء والحرج من أهل البلد لحمل هو الجرّة على كتفه، وملأها من الآبار حتى لا تتعب زينب، أو تتعرَّض لمكروه.

لم يكن محمود يطلب منها شيئًا، وأمّها صارت تكثر من تردُّدها عليهم، وتساعد ابنتها في تسخين الماء وغسل الملابس، بينما زينب تعدُّ الطعام، وهو ما لا يرهقها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الليلة الحّارة من ليالي حزيران، شعرت زينب بآلام المخاض، وكان محمود ينام بجوارها، فلكزته في خاصرته، فهبَّ من نومه:

قم يا محمود.. اذهب وأحضر الحاجّة دلال.. أنا أتوجَّع يا محمود.. بسرعة يا زلمة.

ارتدى ملابسه بسرعة، وفي غبش الفجر أسرع إلى بيت الحاجّة دلال المعتادة على طرْق بوابة بيتها، في أيّ وقت من الليل والنهار.

قالت له، بعد أن باس يدها:

يلّا يا ولدي.. أنا جاهزة.

ردَّت البوّابة خلفها، وجارته في سرعة مشيه، رغم أنَّها تخطّت السبعين.

سمعا صوت زينب وهي تستغيث، فدفعت الباب:

جئتك يا ابنتي.. يا أم رشاد.

ولمحمود:

سخِّن شويّة ماء يمّا.

أضرم النار، ووضع طنجرة على الحجارة، وناول الحاجّة وعاء الغسيل.

عندما سمع صوت بكاء نحيل بهت، ثمَّ ركض إلى البوّابة، وعاد إلى الباب حيث زينب والدّاية، ومدَّ رأسه من الباب مصغيًا لبكاء المولود، لم يستطع الانتظار، فرفع صوته:

بشّريني يا أمّي دلال.. بشّريني.

ولد يا محمود ولد. جاءك رشاد. مبروك يا زينب يا أمّ رشاد.

بصوت متعب فرح:

رحْ يا محمود نادِ أمّي. خليها تيجي تفرح معنا بالولد...

الشمس تضيء كلّ شيء، وأهل ذكرين يتحرَّكون في الشوارع والأزقّة، وأصوات الأولاد اللاعبين تتعالى. ودّ لو يخبر كلّ من يمرّ بهم: صار لي ولد. جاءني رشاد يا أهل ذكرين.

حماته تسأله لتتأكَّد:

ولد يا محمود.. وبخير وعافية يمّا؟

سابقته في المشي، وحين بلغت البوّابة الخارجيَّة لدار محمود أطلقت زغرودة عالية وطويلة، ولم تكفّ عن إطلاق الزغاريد متَّجهة بفمها ووجهها باتّجاه دار مرشد، حيث تقيم فاطمة أمّ محمود.

نقر على ركبته، وكان محمود مستغرقًا في التفكير، وسأله:

أنت سارح يا أبو رشاد!.

ثنى كوفيَّته فوق عقاله، وكشف أذنه، ليسمع صوت الأستاذ الخافت، وردَّ على تساؤله بصوت خافت مثل صوته:

آ.. واللَّه سارح يا أستاذ، فأنت تجعلني أتساءل كثيرًا منذ عرفتك، مع إنَّك تقريبًا بعمري، ولكنَّك متعلِّم و.. في..

هنا أخفض صوته حتى كاد لا يسمع:

في العصبة...

ضحك الأستاذ علي، وهمس في أذنه بعد أن قرّب فمه:

صرت مثل أعضاء العصبة، كأنَّك شيوعي، تتكلَّم بحذر.

صمت، وقد أخذت سيارة الباص تنعطف في نزول باب الواد:

ها نحن في باب الواد، وبعدئذ نصل يافا، ونلتقي برفاقنا لنشاركهم احتفالًا لدعم الاتّحاد السوفييتي، ورفع الصوت ضدّ النازيّة والفاشيّة.

أخبره الأستاذ بأنَّه سيصطحبه إلى يافا ليفرجيه على السينما، ولكن ها هو يخبره بأنَّه سيشارك في احتفال، نسي اسمه، فمال على أذن الأستاذ، وسأله:

احتفال ماذا؟

ضحك الأستاذ، وربَّت على ركبة أبي رشاد:

دعم صمود رفاقنا في الاتّحاد السوفييتي في وجه الهتلريَّة.. يا رفيق! قال له: يا رفيق، واتَّسعت ابتسامته، وتألَّق ضوء عينيه، وكأنَّ ضوء النهار المتدفِّق من الشّبّاك قد انعكس عليهما.

صمتا، بينما الباص يندفع، والبحر يمتدّ وعلى سطحه تنعكس أشعّة شمس حارة، وهواء ساخن يندفع عبر الشبّاك حتى كاد يطير كوفيَّة محمود وعقاله عن رأسه، فوضع راحته عليهما ليثبتها حتى لا يطيرا عن رأسه، فمال الأستاذ ونصحه:

اخلعهما عن رأسك، وعند نزولنا تغطي رأسك بهما.

تردَّد محمود، ولكنَّه رفعهما عن رأسه ووضعهما في حضنه، وأخرج محرمة قماشيَّة من جيب جاكتته ومسح عرقه.

استقرّ الباص في سيره على الإسفلت، محاذيًا البحر الهادئ الساكن السطح.

الأستاذ علي يعرف أنَّ كلّ شيء يدهش محمودًا، وهذا ما يقرّبه منه، ويدفعه للرهان عليه بأنَّه سيكون رفيقًا يعرف لماذا هو في العصبة، فهو دائم التساؤل، متلهِّف على معرفة كلّ شيء جديد يباغته به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع محمود كوفيَّته وعقاله على رأسه، وأسرع في مشيته بجوار الأستاذ الذي اندفع متَّجهًا إلى البحر.

ترك الأستاذ قلب المدينة خلفه، وانتقل إلى الشاطئ الرمليّ، وهو يومئ لمحمود أن يلحق به، وعند مقهى معرّش، يجلس فيه ناس كثيرون، وقف الأستاذ علي، وارتفع صوته مع يده الملوِّحة والتي مرَّرها فوق رؤوس الحضور:

مرحبًا أيُّها الرفاق، والتهاني بصمود رفاقنا في الاتّحاد السوفييتي، بقيادة رفيقنا ستالين، على النازيّة والفاشيّة. جئناكم من قرى قضاء الخليل، من زكريا وزكرين...

ارتفع التصفيق، ووقف بعض الحضور، وتواترت كلمة رفيق من فم إلى فم، من أفواه تغطيها شوارب كثيفة، بينما الأستاذ علي يشير إلى أبي رشاد:

صديق العصبة الفلّاح الذكي محمود أبو رشاد.. من زكرين.. أو كما يلفظ اسمها أهلها وجيرانها: ذكرين.

احتضنه رجل طويل القامة بشارب ثخين كبقية الحضور، وعرّفه بنفسه:

أنا الدكتور جمال. عيادتي في منتصف يافا، إن احتجت تعال عندي، ولأنَّك فلاّح فلن أتقاضى منك أجرة. أهلًا بالفلّاح صديقًا للعصبة، ورفيقًا في آتيات الأيام...

ثمَّ أمسك بيد الأستاذ علي:

أقترح أن نلتقي هنا على الغداء غدًا، فمطعم رفيقنا هلال يقدِّم ألذّ سمك.. يلّا: دعنا نكرِّم رفيقنا الفلّاح.

يا رفيق: لا بدّ من أن نغادر يافا صباحًا، وأمامنا مشوار طويل إلى القدس والخليل وبيت جبرين، ثمَّ مشيا على الأقدام إلى ذكرين...

إذًا، نسهر ونتعشَّى هنا بعد انفضاض الاحتفال. سأذهب (شويّة) إلى البيت، وأعود لنلتقي هنا بعد المغرب. إن سبقتموني انتظروني، وأنت تعرف رفيقنا هلال ومن يعملون في مطعمه!

نهض شخص كثيف الشوارب، وبدا يهزج بكلام مثل الغناء، بينما الحضور يصفقون ويردُّون عليه، وهو لفرط حماسه أخذ يتحرَّك بين الطاولات، وعندما وصل إلى أبي رشاد، ارتفع صوته:

أهلًا برفيقنا الفلّاح

لاح فجر النصر لاح

رفاقنا في موسكو

حرّروها بالسلاح

اللَّه يعزّك يا ستالين

قائدنا الحرّ الأمين

خلفك نمضي بالملايين

لهزيمة النازيين

نهض أحدهم:

لنشرب نخب الرفيق راجح حدّاء العصبة.. الفلّاح.. وكلّ الفلاحين الحاضرين معنا في هذا اليوم الرائع..

ارتفع صوت شابّ بدا وقورًا رغم صغر سنّه، بشاربه الغليظ الذي يخفي شفتيه، وأعلن:

رفيقنا أبو خالد سيتحدَّث إليكم.

وقوفًا صفّقوا، وهتفوا، ورفعوا أكوابًا في أيديهم، فابتسم لهم أبو خالد، ثمَّ هزّ رأسه، وأشار لهم أن يجلسوا فجلسوا.

مال الأستاذ علي على أبي رشاد، وهمس في أذنه:

قائدنا.. ورفيقنا الكبير.. أصغ جيِّدًا، واحفظ كلّ كلمة، لتسألني وأجيبك عن كلّ ما فاتك استيعابه.

محمود ينقل نظره على الوجوه، ويبذل جهده لالتقاط كلّ كلمة، ولكنَّه يعجز عن فهم كثير من الكلمات. يتساءل: هؤلاء ليسوا أقارب، ولا هم من مدينة، أو قرية واحدة. وهم ليسوا حمولة، ومع ذلك فهم يبدون أكثر محبّة من الأقارب! أمر عجيب حقًّا!

مدَّ له أحدهم بكاسة، فتردَّد في تناولها، فشجَّعه الرفيق شائب شعر الرأس بابتسامة ظهرت في عينيه أكثر ممَّا ظهرت على شفتيه المغطاتين بالشعر الكثيف:

إشرب يا رفيق. إشرب يا زلمة، فنحن نحتفل بصمود رفاقنا في موسكو، وبدء الهجوم على برلين.

تنبَّه الأستاذ علي، فردَّ يد الرفيق:

رفيقنا لا يشرب، فهو فلّاح ومن قرية بالكاد تشرب القهوة المرّة، والشاي يقدِّمونه للمريض كعلاج، لا تحاول أن تفسده يا رفيق أبو وجيه.

ضحك أبو وجيه:

مسيره يتعلَّم الشرب، وعندها سيندم على الأيّام التي لم يكن يشرب فيها.

شعشعت الأنوار على الشاطئ، فالمقاهي بدأت تزدحم بالزبائن، والرفاق بعد انتهاء كلمة أبي خالد، وتصفيقهم وقوفًا، ورفعهم كؤوسهم، وإنشادهم معًا كلامًا لم يفهم منه محمود كلمة، بدأوا ينفضّون، وهم يتعانقون متمايلين على الرمال الممتدَّة بمحاذاة البحر.

تفاجأ أهالي ذكرين عندما رأوا أوتومبيل يقف على البيادر، ويهبط من داخله صالح محمّد صالح والأعمى أحمد ظاهر.

اقترب الأولاد حذرين، ولمّا أشار لهم صالح مبتسمًا اطمأنّوا، وحرَّكوا أقدامهم الحافية، ثمَّ جذبتهم ضحكة صالح المشجِّعة وأصابعه التي تدعوهم للاقتراب دون خوف، فأخذوا يدورون حول الأوتومبيل، ويتأمَّلونه بخشية وذهول، ثمَّ تجاسروا ومدُّوا أيديهم، وبأصابع مرتجفة لمسوا الحديد، وعوارض الخشب، وتأمَّلوا غرفة السائق، واحتاروا في أمر صالح والشيخ أحمد ظاهر، والشاب الذي كان ما يزال جالسًا في الغرفة الصغيرة التي هبط منها صالح والشيخ أحمد، وأمامه شيء مدوّر وضع رأسه عليه، وبدا كأنَّه ينام:

يا أولاد: روحوا قولوا لأهلكم بأنَّ عمَّكم صالح والشيخ أحمد ظاهر قد اشتريا سيّارة ليريحوهم، ويسهِّلوا لهم قضاء أشغالهم في الفالوجي، وبيت جبرين، وحتّى للخليل، ويمكن نوصِّلهم للقدس. يلّا طيروا خبروهم. يلّا يا شاطرين، وبعدين ارجعوا حتى نركِّبكم وندور فيكم حوالين ذكرين، و.. تنبسطوا..يلّا.

ضحك الشيخ أحمد ظاهر، ودفع اللَّفة الصفراء من فوق جبينه، ورفع وجهه عاليًا، وبدا كأنَّه يرى بأذنيه وهو يمطّ رقبته ويميلها، وضرب بعصاه على الأرض:

يلّا.. انبسطوا يا أهالي ذكرين. عندكم بابور طحين، وعندكم مدرسة، وألذّ ماء في كلّ قرى الخليل، و.. أوتومبيل، فلا ينقصكم شيء. احمدوا الله على نعمته، واشكروا أصحاب الفضل عليكم أيضًا: الشيخ أحمد ظاهر صاحب فكرة شراء الأوتومبيل، وشريكه صالح محمّد صالح!

تساءل صالح:

أين سينام الشوفير يا شيخ أحمد؟

والله يا أبو خليل احترت وأنا أفكِّر، ولم أهتد لحلّ. على كلّ: الدنيا صيف، فلينم في الأوتومبيل، وهو بهذا يحرسه من أولاد الحرام.

أدار رأسه صوب مدخل القرية:

أسمع أصواتًا؟

أصوات أهل البلد يا شيخ أحمد.. فالأولاد فزّعوا الناس.

أقبلت جماعات من الرجال، ولحقت بهم نساء، بدأ التوافد من كلّ أطراف القرية، وهم يلوِّحون بأيديهم قبل أن يصلوا، ووجوههم متهلِّلة:

مبروك يا شيخ.. مبروك يا أبو خليل.

برم الشيخ عمامته الصفراء حول رأسه، فالتمع جبينه الفسيح، ووجهه المسعّر للشمس، ولم يخفِ تشوّفه أمام المتحلِّقين حول الأوتومبيل، بينما كان صالح منهمكًا في معانقة الرجال، والردّ على تبريكاتهم.

قال الشيخ، وكأنَّه يخطب فيهم:

قلنا نريحكم يا ناس.. يا أهل بلدنا... ونكفيكم مشقة المشي والتعب لقضاء حوائجكم.

تحسَّس الشيخ بعصاه الأرض، ولوَّح بها أمامه، وخطا خطوات قليلة، فاصطدم رأس عصاه بالأوتومبيل، فمدّ يده متحسِّسًا، ومشى بمحاذاته إلى أن بلغ غرفة القيادة، وحين دخلت يده في نافذتها، فتح الباب، وصعد وجلس بجوار السائق، ولكزه في خاصرته:

درْ بنا على البيادر حتى يرى الناس أوتومبيلنا، ويشوفوا شطارتك.

دعك الشابّ وجهه وعينيه، ونفض رأسه، ثمَّ شغّل السيّارة، وكرج بها، وهو يجيل نظره حواليه حذرًا من الأولاد المتقافزين والراكضين.

تابع الرجال والنساء والأولاد الأوتومبيل وهو يلتفّ حول البيادر، وخلفه تتصاعد سحابة غبار تنعقد في الفضاء، ثمَّ ليتوقَّف غير بعيد عنهم، مديرًا وجهته إلى خارج القرية، وكأنَّما يوحي لهم بأنَّه جاهز للسفر.

منذ هذا اليوم الذي دخل فيه الأوتومبيل ذكرين، صار الذكارنة يؤرِّخون به: قبل الأوتومبيل بيوم.. بعد الأوتومبيل بشهر.. وهكذا!

تتأمَّل زينب ابنها رشاد، وهو يلعب في حوش الدار، وتمشي متثاقلة واضعة يدها على خصرها متنهِّدة مع كلّ خطوة: مش عارفه كيف هذا البطن سيعود كما كان، وسيخرج منه من ينفخني هكذا؟ أهذا بطن يا ربّي؟ هل فيه توم؟ أريد بنتا .. آ.. بنتًا تكون أختًا لرشاد، وسأسمِّيها معزوزة، لأنَّني أعزّها قبل ما أرى وجهها. سأمشِّطها وأكحِّلها كلّ يوم، وستكبر وتصير صبيّة تعينني في شغل البيت، وإذا كبرت و.. تزوَّجت؟ تتزوَّج.. بس واحد كويّس، شابّ مثل ال.. آخ.. آخ.

رحْ نادِ عمّتك نظيرة يا رشاد: قل لها تعالي لأمّي.

لكنَّ الولد وقف حائرًا، فهو بالكاد يتكلَّم، لكنَّه تحرَّك دون أن يعرف ماذا يفعل، فرفعت زينب صوتها منادية نظيرة، التي سمعتها، وردّت عليها بصوت عال:

جايه يا زينب.. جايه يا حبيبتي.

ركضت نظيرة، وهي تغطِّي رأسها بسرعة.

زينب منتفخة البطن تكاد تنقلب على ظهرها. تمشي معوجّة للخلف ورأسها يموج فوق كتفيها من شدَّة الألم. توقَّفت عن المشي:

كأنَّني سألد يا نظيرة.. بدّي الحاجّة دلال يا أختي. حاسَّة روحي بدها تطلع، المولود بدّه يسقط من جوّاتي يا حبيبتي، بطني كأن فيه سكاكين تمزق مصاريني.

تحسَّست نظيرة بطن زينب:

متى سأصير مثلك يا زينب؟ متى أحبل وألد، ويصير لحسن ولد، أو حتى بنت؟ ثلاث سنوات وأنا متزوجته ولم أنجب يا زينب!

صاحت زينب:

مستعجلة على الهمّ؟ مسيرك تحبلي وتلدي وتزهقي منهم ومن أبوهم يا نظيرة. طيري نادي الحاجّة دلال، روحي طلعت يا نظيرة.

طارت نظيرة، ولمّا عادت وجدت زينب متمدِّدة على ظهرها على المصطبة، فصاحت بها الحاجّة دلال:

أدخلي في البيت، يلّا قومي، شدّي حيلك، ولّا بدّك تولدي قدّام الناس؟

أمسكت بيدها، ورغم تقدُّم الحاجّة في العمر، أمسكت بيدها وجذبتها، وصاحت بنظيرة:

يلّا ساعديني في توقيفها حتى ندخلها جوّا. يلّا يا نظيرة عقبال ما تحبلي وأولدك قبل ما أموت، وأفرح بخلفتك.

تمايلت زينب، وخطت ببطء، وتمدَّدت على الفراش، فوضعت نظيرة وراء ظهرها عدّة وسائد، ثمَّ غادرت وبدأت في إضرام النار لتسخين الماء.

سمعت صراخ زينب، وصوت الحاجّة دلال، وهي تصيح بها:

يلّا أعطي.. طلقة قوِّيَّة يا زينب يمّا.. يلّا يا حبيبتي.. يلّا.. أنت قوِّيَّة وجدعة.

دخلت نظيره بوعاء الغسيل والماء الساخن، ففوجئت ببكاء نحيل حادّ، وصوت الحاجّة دلال وهي ترفع المخلوق الصغير العاري.

بنت.. عروس مثل القمر يا زينب.

بصوت واهن، قالت زينب:

أنا بدّي بنت يمّا دلال. واللَّه العظيم نفسي ببنت. عندي ولد..وها هي بنت.. ربّنا رزقنا أنا ومحمود بعد موت مصطفى.

سألتها الحاجّة دلال:

أين زوجك يا بنتي؟

في المدرسة، عند الأستاذ علي.

ارتفع صوت محمود:

زينب.. زينب...

خرجت نظيرة، ولاقته بصوتها:

مبروك البنت يا أبو رشاد...

أسرع وهو يردِّد:

بنت بنت.. المهم سلامة زينب.

وعندما دخل رفعت الحاجّة دلال البنت بين يديها، فانحنى وباس وجهها، ثمَّ انحنى وباس جبين زينب، وتناول البنت من الحاجّة دلال:

ولّدت يمّا دلال والدها.. وها أنت تولدينها.. وقبلها رشاد.. أنت واللَّه أم ذكرين.

انحنى وباس رأسها، فسألته:

ماذا ستسمُّونها يا محمود؟

زينب أسمتها معزوزة وهي في بطنها.

معزوزة معزوزة.. أعزّها اللَّه بك وبأمّها.

ارتفع صوت بكاء نحيل، فالتفتت زينب إليها وعلى وجهها ابتسامة فرحة، وردَّدت كأنَّها تتذوّق اسم ابنتها:

معزوزة.. معزوزة.

ثمَّ كأنّما تفطنت:

هات رشاد يا محمود خلِّيه يشوف أخته.

أدخله والده، ثمَّ رفع البنت ووضعها تحت نظره:

هذه أختك.. دير بالك عليها، وحبّها.. و.. هي ستحبّك لأنَّك ستحميها.

مدَّ رشاد أصابعه ولمس وجهها، ثمَّ ابتعد قليلًا وهو مندهش وسأل والده:

من أين أتت يابا؟

ضحك والده، وضحكت زينب، أمّا الحاجّة دلال فضربت كفًّا بكفّ:

كيف ستخبرونه من أين أتت معزوزة.. ها؟!
وارتفعت ضحكتها، وهي تنحني على الولد وتحضنه:
من عمايل أمّك وأبوك يا حبّة عيني.. لما تكبر ستعرف كيف جاءت أختك!

ثلاثة أيّام بلياليها والولد لا ينام. تفكّ اللَّفة عن بدنه فيهدأ قليلًا، ينهنه، ويلهث، ويبدو كأنَّه سيختنق، ثمَّ يعود لنوبات بكاء تحرق قلب زينب. يتلوَّى وهو يحكّ برؤوس أصابعه البثور المنتشرة في بدنه، فيزداد حزنها لعجزها عن تخفيف آلامه.

تقول لنفسها وهي تمرِّر راحة يدها على البثور الطافحة على بدنه: أنا ما صدقت وأنت جئت لي يا رشاد. يكفينا أنَّ مصطفى ولد ميِّتًا، وشماتة فاطمة ومليحة بأمّك يا حبّة عيني.

البثور ازداد انتشارها على بطنه وظهره. أخذت تمرِّر راحتها بلطف على البثور، فسكن قليلًا، وبدا كأنَّه ينام، وحين كفَّت عن ملامسة بدنه انفجر باكيًا، فسارعت بتمرير راحتها على جلده، وهي تغنِّي له:

ننّه يا رشاد ننّه

ننّه نام يا حبيبي

هي تعرف أنَّ الغناء لا يخفِّف ألمه، وأنَّه كبُر على هكذا أغنية، ولكنَّها تغنِّي له لعله ينام ويهدأ، ويتركها تنام قليلًا، فهي لم يغمض لها جفن منذ بدأ مرضه، وهي تخشى أن يوقظ أخته معزوزة.

دخل محمود، فرآها مكفهرّة الوجه، والولد في حضنها وهي تهزّ ساقيها تحته، فجلس بجوارها، ومرَّر يده على رأس ابنه، فكشفت له عن بطنه وظهره، فأدهشه ما يرى:

زينب: يجب أن نأخذ الولد للحكيم.

أين الحكيم يا محمود؟

الحكيم في يافا يا زينب.

وكيف سنصل إلى يافا؟ أليست بعيدة يا محمود؟!

ويده تربّت على ابنه:

نصل بالسيارة يا زينب. من بيت جبرين إلى الخليل.. بعدئذ للقدس، ومن هناك إلى يافا.

ثمَّ سألها:

عمرك زرت القدس يا زينب؟

منين يا حسرة؟

ويافا؟

المرَّة الوحيدة التي غادرت فيها ذكرين يوم رحنا للخليل سوا للمأذون.

في يافا، يوجد طبيب.. رفيق، سيعالج إبننا ببلاش، وسوف ترين البحر، وسننام في الفندق، ونعود في اليوم التالي، لأنَّنا لن نستطيع العودة في اليوم نفسه يا زينب.

ومعزوزة؟

نبقيها عند جدّتها سارة، فهي ستعتني بها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعة جنيهات ونصف وضعها في جزدانه الذي دسَّه في جيب جاكتته الداخليَّة بحرص. زينب وضعت الولد في حضنها، ومشت خلفه كالمنوَّمة، فهي لا تعرف أين القدس ويافا، وهي لم تر حكيمًا في حياتها، فالحاجّة دلال هي الحكيمة والداية، وهي التي تعالج الأطفال المرضى بالأعشاب المغلية، وبالقراءة على رؤوسهم وبطونهم المنتفخة، وتمرّج بنات آذانهم بزيت الزيتون، وتدسّ أصبعها في أفواههم، رغم بكائهم، لتخلِّصهم من انتفاخات بنات آذانهم في حلوقهم.

بيت جبرين زارتها مرّات مع أمّها وأبيها، والخليل مرَّة واحدة عندما كتبوا كتاب محمود عليها، واشترت ثياب عرسها.

تناوبا حمل رشاد في الطريق إلى بيت جبرين، وهناك لحقا بالباص المتَّجه للخليل. هدأ الولد مع اهتزاز الباص، والنسمات التي تندفع من النافذة.

مشيا قليلًا إلى موقف سيّارات القدس، محمود يمسك بيدها، وهي تدير نظرها مندهشة بكلّ شيء. وهي تحدِّق في بيوت الخليل المنتشرة على التلال، تساءلت:

محمود: هل هذه بيوت وبيوتنا بيوت؟!

أجابها، وهو يتأمَّل موقف السّيّارات، ليحدِّد الباص المتَّجه للقدس:

سترين بيوت يافا.. يافا عروس البحر يا زينب.. الله الله على يافا. تنبَّهت إلى أنَّ محمود يشقّ الزحام، ويمرق بين الناس المحتشدين دون أن يرتبك. قالت لنفسها: هذا، لأنَّه يسافر ويعرف البلاد.

في الباص المتَّجه إلى يافا، أجلسها بجوار الشبّاك:

على الشبّاك، أبرد لك ولرشاد، ولتري كلّ ما نمرّ به.

تتأمَّل زينب المناظر صامتة، بعينين مفتوحتين على البيوت المرتفعة على التلال، والسفوح، والمبنية من حجارة بيضاء ناصعة، بعضها مغطّى باللَّون الأحمر.

همس لها محمود:

ما ترينه على أسطح البيوت هو قرميد للزينة.

امتدّ البحر بعيدًا، وانعكست أشعّة الشمس على سطح الماء:

مال عليها وهمس لها:

البحر يا زينب.. البحر.. سترينه لأوَّل مرَّة في حياتك، وستحكين لصاحباتك، ولأمّك، وللجارات عن البحر.

سألته:

كلّ هذا ماء يا محمود؟ يا ربّنا ما أكثر الماء، وأكبر البحر.

نزلا، ومشيا قليلًا، هو يمسك بيدها، وهي تحتضن الطفل.

قالت:

عطشت يا محمود.

توقَّف عند بائع يحمل على ظهره وعاء معدنيًّا كبيرًا، ويقرع بصحون نحاسيَّة، فأشار له أن يصبّ لهما.

شربت زينب السائل البنّيّ البارد الغامق الحلو، وإذ فرغت من شرب طاستها، سألها:

ارتويتِ يا زينب، أم تشربين طاسة ثانية؟

هزَّت رأسها أن لا، فدفع للبائع، ومضيا. قال لها:

ما شربناه هو زبيب.. لذيذ.. صحّ؟

أومأت موافقة.

رأت ناسًا كثيرين في المدينة.. ونساء بملابس سوداء تغطّي رؤوسهنّ ووجوههنّ، ونساء لا يغطين رؤوسهنّ، وشعرهنّ مفرود على أكتافهنّ، فذُهلت من النسوة اللّواتي لا يسترن شعرهنّ.

شدّت زوجها من كم جاكتته:

شايف يا محمود؟!

ضحك محمود:

هناك نساء لا يغطّين رؤوسهنّ، وهنّ بنات ناس، ومتعلِّمات، يا زينب.

لكزته في خاصرته، وهي تومئ له برأسها، فأمال رأسه وهمس لها:

البحر.. يافا.. يا زينب.. يافا.. ستفرحين بالبحر.. فأنت ترينه أول مرّة.

همست مندهشة:

يا ربّ ما أوسعه، وأزرق مثل النيلة.

ضحك محمود:

واللَّه يا زينب.. إنَّ حياتنا هي التي مثل النيلة. سأجلسك في مقهى على البحر، وأفرحك بالأكل في المطعم، وسننام في الفندق..كويِّس؟

هزّت رأسها، بينما عيناها تتأمَّلان كلّ ما تريانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صعد مع زينب إلى الدور الثاني. دفع باب العيادة ، وفي الصالون لم ير أحدًا. جلس هو وزوجته قليلًا، فخرج رجل طويل عريض المنكبين، له شارب غليظ، والدكتور جمال خلفه.

رآه الدكتور جمال، فارتفع صوته:

يا مرحبًا برفيقنا الفلّاح.. أهلًا أهلًا.

هزّ يده بحرارة، وأخذه بالحضن، فتأمَّل الرجل الطويل ما يجري. عرّفه الدكتور جمال:

رفيقنا أبو رشاد.. من فلاحي قضاء الخليل.. سيكون عصبويًّا مدهشًا، لأنّه ذكيّ متفتّح العقل.

مدّ الرجل الطويل يده الضخمة، وطوى يد محمود، وهزّها، وعرّف بنفسه:

موسى.. الرفيق موسى قويدر.. نقيب الخيّاطين.

ثمَّ مضى.

انتبه الدكتور جمال للمرأة التي تحتضن الطفل:

زوجتك.. أم رشاد؟

وقبل أن يسمع الجواب، مدّ يده فشعرت زينب بالحرج، ولكنَّها مدّت يدها عندما رأت ابتسامة محمود المشجِّعة.

ادخلوا يا جماعة.. تفضّلوا.

ارتفع صوت الطفل باكيًا، كأنَّما كان على موعد، فسأل الدكتور جمال:

خيرًا.. سلامته.

قال محمود:

له عدّة أيّام وهو يبكي من حبوب ظهرت على بطنه وظهره.

أشار الطبيب للّفَّة:

فكِّيه من اللّفة، فالطقس حارّ، ومدّديه هنا على الطاولة لأفحصه.

أخذ يتأمَّل بطنه وظهره، ويمرِّر أصابعه على الحبوب، ويجسّها، بينما بكاء الطفل يزداد!

أخرج أنبوبًا، وأخذ يدهن جلد الطفل:

مشكلته بسيطة يا رفيق أبو رشاد. ما دمتم جئتم إلى يافا، فعلاجه نقعه في ماء البحر. احفروا في الرمل على الشاطئ، وانقعوه في الماء المالح، واحرصوا أن لا يدخل الماء في عينيه وأذنيه.

ناول أنبوب المرهم، ولفّة قطن، لأبي رشاد:

بعد نقعه في الماء لساعة من الزمن، أو ساعتين، حمّموه بالماء الحلو، ثمَّ قبل النوم ادهني يا أمّ رشاد بطنه وظهره من هذا المرهم. وصباح غد، في البَرَاد، خذوه إلى البحر، وانقعوه مرَّة أخرى، و.. حمّموه ، وادهنيه بالمرهم، وأنا متأكِّد بأنَّه سيشفى. احتفظي بالمرهم، وادهنيه كلّ يوم قبل النوم، بعد تحميمه بماء فاتر. خفِّفي عنه اللّفاع، ولفِّيه بقماش خفيف نظيف، فنحن في الصيف، وجسمه يعرق، وعرقه وبوله يتسبَّبان بهذه البثور. أيْوه: عند نقعه في ماء البحر، ضعي بعض القطن في أذنيه حتى لا يتسرَّب الماء المالح فيهما.

توجَّه لأبي رشاد:

أنتم في قريتكم لا تسمعون الأخبار يا رفيق. رفاقنا في الاتّحاد السوفييتي يندفعون بجيوش البروليتاريا إلى برلين، وفي غضون سنة، وربّما أقلّ، ستنتهي الحرب

بهزيمة هتلر. لقد دمَّروا الكثير ممّا بناه رفاقنا في الاتّحاد السوفييتي، وقتلوا ملايين المواطنين السوفييت يا رفيق، ولكنَّ الانتصار للبشريّة سيتحقَّق، وراية العمّال والفلّاحين سترتفع في سماء برلين.

قال كلامه بزهو، في حين لم تفهم زينب شيئًا.. أمّا محمود، فكان يهزّ رأسه، مع أنَّه لم يفهم كلمة بروليتاريا.

زينب تنقل نظرها بين زوجها والدكتور، غير فاهمة شيئًا. انتبهت أن زوجها جعل شاربه غليظًا كالطبيب وكالرجل الذي خرج من عنده، وكان سابقًا شاربه رفيعًا مدبَّب الطرفين ومعقوفًا إلى أعلى.

تساءل الدكتور جمال:

ستبيتان في الفندق بالتأكيد. اذهب إلى عند رفيقنا أبو خيري. أنت تعرف فندقه، فأنت نزلت فيه مع رفيقنا الأستاذ علي.

وقف وراء الطاولة، واستدار:

إذا احتجتم لأيّ شيء فأنا موجود يا رفيق.. أيّ شيء. بالمناسبة: معك مصاري يا رفيق لتدفع أجرة الفندق؟

رفع محمود يده شاكرًا، ثمَّ دسّ يده في جيب جاكتته، فوضع الدكتور جمال يده على يد محمود:

هل معقول أن تدفع لي أجرة معالجة ابنك يا رفيق، وأنت قادم من بعيد؟!.

وهو يودِّعهم عند الباب:

إذا لم يتحسَّن الولد، مرّوا غدًا لأراه.. وأنا واثق أنَّه سيتحسَّن الليلة.

ولزينب:

خفِّفي عليه الغطاء يا أمّ رشاد، فهو ابن رفيقنا العزيز.

هبطا الدرج، وإذ صارا في الشارع، أمسكت زينب بكمِّ جاكتته، وسألته بدهشة:

شو يعني رفيق يا محمود؟

ضحك محمود:

بعدين سأخبرك. عرفت أنَّك ستسألينني، والآن سنذهب إلى الفندق ونحجز غرفة، وبعدئذ نأكل لنا لقمة، وبعدين نذهب إلى الشاطئ لننقع رشادًا، وتتفرَّجين على البحر والناس، وتشمِّين الهواء، وتبلِّلين قدميك بماء البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لما دخل باب الفندق، لم يجد أبو خيري وراء الطاولة، كما اعتاد رؤيته في زياراته السابقة، بل وجد حسني، الذي عرفه:

أهلًا وسهلًا...

بدنا غرفة يا حسني...

رفع حسني مفتاحًا من العلاقة الخشبيَّة، وسبقهم في الصعود، رغم بدانته، على الدرج، إلى الدور الثاني.

هذه الغرفة تطلّ على البحر، وفيها مرحاض ومغسلة، وهي للزبائن الغالين على العمّ أبو خيري.

سأله محمود:

ولكن: أين الرفيق أبو خيري؟

سيأتي مساء.. عنده ضيوف على الغداء.. تفضَّلوا.

انسحب حسني، فأزاح محمود الستارة عن النافذة، وفتحها، فتجلّى مشهد البحر، ففتحت زينب عينيها على اتّساعهما، ووقفت منبهرة:

يا ربّي.. ما أوسع البحر!

فرح محمود لفرحها، وأشار لها إلى الزوارق، ولسفينة ضخمة غير بعيدة تظهر في الأفق:

هل ترين الزوارق.. والسفينة الكبيرة؟

تسبح في الماء ولا تغرق! يا ربّ ما أعظم قدرتك!

فكَّت اللَّفّة عن رشاد، وأنامته على التخت، وقالت لمحمود:

بدّي أقضي حاجة يا محمود.. متضايقة.

فتح بابًا صغيرًا في الغرفة، وأشار لها:

هنا مرحاض لقضاء الحاجة.

ثمّ وهو ينحني:

وهنا حنفيّة، وهذا نربيج. تفتحين الحنفيّة فينزل الماء، وفي هذه الفتحة يذهب كلّ شيء.

دخلتْ، وتركت الباب مواربًا قليلًا، بينما وقف محمود على النافذة مرسلًا نظره بعيدًا فوق ماء البحر.

خرجت. وهي تتساءل:

لماذا لا يوجد في بيوتنا مثل هذا ال...

مرحاض...

أيْوه: المرحاض. كنّا ارتحنا من قضاء حاجتنا في أماكن لا ماء فيها، ولا...

تأمَّلت وجه رشاد الغارق في النوم:

يا حبيبي.. ارتاح من المرهم، وتخفيف اللّفّة حول بدنه.

يلّا نخرج يا زينب ونوكل لقمة، ونروح على البحر، ونغطِّس رشاد في الماء المالح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سحبت غدفتها على جبينها، وأحنت رأسها حتى لا يراها من يتناولون طعامهم في المطعم.

همس لها محمود:

لا تستحي. هم يأكلون ونحن نأكل يا زينب.

كانت تلتفت حولها من تحت لتحت، مندهشة من كيفية جلوسها على الكرسيّ، بينما محمود يجلس مرتاحًا، والناس يتحرَّكون على كراسيهم، ويتمازحون بأصوات مرتفعة، غير قلقين، أو آبهين بغيرهم.

الخبز الذي أمامهما يختلف عن خبز الطابون، ولكنَّه طيّب، وطبيخ البطاطا والبندورة بقطع اللّحمة الصغيرة لذيذ!

كلي يا زينب.. كلي.. لا تستحي.. ولا تهتمّي بمن هم حولك، ففي المدينة كلّ واحد في حاله. أنتِ هنا لستِ في ذكرين.

نهنه رشاد، فهزّت ركبتيها تحته فسكت.

سألته، وهما يبتعدان عن المطعم:

كم دفعت يا محمود؟

عشرين قرشًا يا زينب...

يا ربّي.. كثير!

صار البحر والرمل والماء والسماء، والمتنزّهون والسابحون والسابحات تحت نظرها، فاختار محمود مكانًا خاليًا:

هنا سنجلس.. يلّا.

قعدت على الرمل. بدأ محمود يحفر حفرة أخذت شكل المذود، فنبع الماء فيها من الرمل المبتلّ. وضع قطنًا في أذنيْ الطفل العاري، ورفعته أمّه، ثمَّ أخذت تدلّيه في الماء ببطء، حتى بلغ الماء عنقه، وهي تمسك به. بكى قليلًا، وارتجف، لكنَّه سكن، وهدأ، وبدا مستمتعًا، بينما والده يدسّ يديه تحت الماء، ويدلك بدنه.

ترسل زينب نظرات مستغربة لنساء يمررن بأجساد تنحسر أثوابهن عن أرجلهنّ، ولا أغطية على رؤوسهن، وأعناقهنّ مكشوفة حتّى الصدور، وشعرهن يتطاير في الهواء. محمود يتابع نظراتها مبتسمًا، فهي ترى ما ترى لأوَّل مرَّة في حياتها، وعندما تعود إلى ذكرين، ستحكي كثيرًا عن زيارة يافا، ونسوتها أشباه العاريات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبط المساء، فاشتعلت أضواء يافا، ورقّت النسمات، فسحبت زينب الطفل من الماء، وجفَّفت بدنه، وأخرجت القطن من أذنيه، ثمَّ حمله محمود، ومشى ببطء على الرمل، وهي تحاذيه.

ارتفعت أبواق السيارات، وضجّة المدينة، وهما يبتعدان عن الشاطئ، فتشبَّثت بطرف جاكتته.

عبرا الطريق، واقتربا من الفندق. قالت:

عطشت يا محمود.

وصلنا الفندق يا زينب.. تحمَّلي شوية.

في مدخل الفندق، وقف رجل نحيل بشارب كثّ يتهدّل على فمه، رحَّب بأبي رشاد ما إن رآه:

أهلًا برفيقنا الفلّاح.. أهلًا. أخبرني حسني أنَّك حضرت مع زوجتك وابنك.. سلامته!

رأتهما يتعانقان، فتساءلت في داخلها: من وين لوين يا محمود؟ كيف تعرف هؤلاء الناس بشواربهم الكبيرة؟ لأ، وصرت تكبّر شاربك مثلهم!

تفضَّلوا.. تفضَّلوا.. أهلًا يا رفيق.. أعطاك حسني غرفة كويِّسة.. ندّخرها لرفاقنا الغالين علينا.

حمَّما الولد بالماء البارد، وفتح محمود الدشّ، ووقف عاريًا تحته، وأشار لزينب أن تفعل مثله، فتردَّدت:

أزيلي العرق عن بدنك.

أغلق الستارة، وحين برم زرًّا في الحائط امتلأت الغرفة بالضوء، فاحتارت زينب:

من أين جاء هذا النور يا محمود؟

ضحك محمود، وتباهى:

من الكهرباء...

وما هي الكهرباء يا محمود؟

لا أعرف.. ولكنَّها تضيء عندما يبرم الناس هذه الأزرار في بيوتهم.

ادخلي واغتسلي.. فسننام معًا على التخت، حتى تقولي: نمت في يافا على التخت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمّا فتح عينيه، وجدها تقف على الشبّاك سارحة في منظر البحر.

رفع رأسه:

شيء حلو يا زينب.. صحّ؟

من الجنَّة يا محمود. عشان هيك تزور يافا دائمًا، وتلتقي بأصحاب الشوارب الغليظة؟!

نفض اللِّحاف، ووقف وهو يفرك عينيه، ثمَّ دخل إلى الحمّام، ووقف تحت الدوش، فشعر ببرودة الماء المنعشة على بدنه، مدَّ رأسه وسألها:

هل تحمَّمت؟

آ.. انبسطت والله كثيرًا. شايف يا محمود كيف نام رشاد، وما عاد يبكي؟

نشَّف جسده، وارتدى سرواله وقمبازه، وانتعل حذاءه:

يلّا يا زينب، خلّينا نكسب الوقت. ننقع رشاد شويّة في ماء البحر، بعدئذ نعود بسرعة إلى الفندق، نحمِّمه، وندهن بدنه، ونتَّكل على الله.. فأمامنا، مشوار طويل

إلى القدس، والخليل، وبيت جبرين.. ثمَّ مشيًا على أقدامنا إلى ذكرين.. يلا يا حبيبتي.

اقترب منها وغافلها، وباس خدّها، وضمّها، فضحكت وهي تبتعد عنه بدلال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع طلوع الشمس، كانا في موقف باصات القدس، وبعد حوالى ساعة وصلا إلى القدس، ومن هناك انتقلا إلى موقف باصات الخليل.

تحرَّك رشاد في ثوبه، وأخذ يجبِّد بدنه:

الحمد لله أنَّه شفي. لقد خفت عليه كثيرًا يا محمود!

لم يعلِّق محمود على كلامها، فقد شعر أنَّ رأسه ثقيل، وأنَّه لم يشبع من النوم.

نعسان يا محمود؟

أيْوه يا زينب.

أنت بدّك حياة يافا، مش حياة ذكرين يا محمود!

آخ، يا زينب آخ! ما أحلى الحياة في يافا! كان نفسي أدخلك إلى السينما حتى تتفرَّجي على محمّد عبد الوهاب وهو يغنِّي، والنساء وهنَّ يرقصن حواليه. في سينما الحمرا، تفرَّجت على عدّة أفلام لعبد الوهاب، وفريد الأطرش.

لم تفهم عن ماذا يحكي، فهو يحكي عن ناس لا تعرف عنهم شيئًا. سكت، فلم تجد ما تقوله، فتشاغلت بمتابعة المشاهد التي تتوالى تحت نظرها.

ارتفع صوت السائق:

الخليل يا جماعة.. حضّروا أنفسكم للنزول، الحمد لله على سلامتكم!

هبطا.. وقرب الباص، رأى محمود بائع كعك وبيض، فاشترى منه كعكًا وبيضًا:

سنأكل في باص بيت جبرين. لازم نستعجل قبل ما يفوتنا الباص.

وجد الباص وهو يرتجّ ويهدر، والسائق ينادي:

بيت جبرين.. بيت جبرين.. آخر نقله يا جماعة.

سأله محمود:

بنقدر نشرب قبل أن نطلع في الباص:

صحتين.. بس استعجلوا يا عمّي.

شربا طاستيْ زبيب، والتهما البيضتين والكعكتين، وصعدا، وجلسا بانتظار انطلاق الباص.

همست زينب:

الحمد لله .. كلّ شيء تمام. رشاد طاب، وشفنا بلاد وانبسطنا. شفت البحر.. البحر يا محمود يردّ الروح.

مال برأسه مقرِّبًا فمه من أذنها:

المرَّة الجاية سنأتي لشمّة الهواء، وسنبقى عدّة أيّام، وسأدخلك سينما الحمرا.

أصغيا لِلغْط المسافرين، وحمد محمود اللَّه، لأنَّ الشبابيك مفتوحة، فهو ينفر من رائحة تتن الهيشي.

سها قليلًا، وتطوَّح مع حركة الباص، واستيقظ على صوت السائق:

بيت جبرين. وصلنا يا جماعة. الحمد للَّه على السلامة. يلّا أسرعوا حتى يصل كلّ واحد لقريته على الفضا.

بدون توقّف، انطلقا إلى ذكرين، فأمامهما ساعة مشي حتى يصلا قبل غياب الشمس.

حمل الولد عنها منذ انطلقا من بيت جبرين، وحين اقتربا من كروم ذكرين، قالت له:

هات الولد.. أحسن يقولوا عنك في ذكرين: محكوم لمرته.

مرَّا من أمام بوّابة بيت العائلة، وواصلا، والتفّا، ودخلا في الزقاق المؤدِّي إلى بيتهما، وإذ دفعا البوّابة وصارا في الحوش، ارتفع صوت زينب وهي تسحب غطاء رأسها:

الحمد للَّه.. عدنا بالسلامة لدارنا.

ثمَّ التفتت لمحمود، وناولته الولد، وأخرجت مفتاح الغرفة من عبِّها:

محمود: إحنا مش عايشين يا محمود.. بعد ما شفت يافا، والناس، والضوْ اللِّي بيضوّي وقت ما بدهم.

قصدك الكهربا؟

أيْوه ال.. هذي.. اللّي قلت عنها. إحنا عايشين في العتمة يا محمود.. عايشين أموات واللَّه. معك حقّ تهرب دايمًا ليافا.

دفعت الباب، ومدَّت نظرها في العتمة:

بيتنا عتمة حتّى في النهار يا محمود!.

دخلا، ومدَّدت الولد على الأرض، فبدا طويلًا، ثمَّ جلست على المصطبة، وأجهشت في البكاء، بينما محمود يقف عند رأسها، وقد دهمه الحزن مع بدء نوبة بكائها.

ثبتت (وقاتها) على رأسها وفردت فوقها غدفتها، ولفّت طرفها حول عنقها، وأسدلته على منكبها الأيسر. انتعلت كندرتها، وأشارت برأسها لعبد الله ورشاد أن يخرجا، ونطّت عن المصطبة، وسحبت الباب الثقيل خلفها. أغلقته ثلاث طقّات، وسحبت المفتاح وعلّقته حول عنقها لصق صدرها.

لم يكن رشاد بعيدًا عنها، ولكنَّها رفعت صوتها كي تغيظ حماتها وسلفتها مسترقّتي السمع عليها ليلًا نهارًا.

رشاد يمّا.. تعال يا حبيبي.. بدّنا نروح عند جدَّتك سارة.

أدارت رأسها وهي تبتسم، وصوّبت نظرة من فوق الباب الصغير بين بيتها وبيت العائلة، فلمحت رأسًا يتحرَّك، فعرفت أنَّ مليحة تحني ظهرها وتلطي وراء الباب مرهفة السمع، لتتسحب وتخبر العمّة فاطمة بما رأت، فابتسمت راضية عن استثارتها لفضولهما، والتنكيد عليهما، هما اللّتان لا همّ لهما سوى مكايدتها.

شدّ عبد الله جذعه نافخًا صدره، ثانيًا كوفيَّته من طرفها الأيسر على رأسه، كاشفًا صدغه، تاركًا طرف حطّته الأيمن مسدلًا على عنقه وكتفه.

شملته زينب بنظرة فخر، فهو شقيقها الوحيد من أمّها وأبيها، وهو أصغر منها ومن أختها الأكبر زريفة المتزوِّجة في بلدة دسير.

سار الموكب عابرًا من أمام المقعد، وبيت العمّ حسن. بوابة البيت مغلقة، ودّت زينب لو أنَّها تصبّح على جارتها وصاحبتها نظيرة، ولكنَّها في عجلة لأنَّ أمّها تريدها أن تحمل شويّة قمح لتطحنها في بابور الطحين، وهي لا تريد أن تغيب طويلًا عن البيت مؤمّلة أن يعود محمود الغائب منذ ثلاثة أيّام في يافا صحبة الأستاذ علي.

أمسكت بيد رشاد المتباهي بالصندل الذي ينتعله، والذي جلبه له أبوه من الخليل.

رشاد عن يمينها يتقافز بجوارها بخطواته القصيرة السريعة، وعبد الله على يسارها يباعد بين خطواته حتى يسبقها في السير، فهو في عين نفسه رجل، حتى وإن كان في الرابعة عشرة، ولم يبلغ مبلغ الرجال بعد، ومعزوزة في حضنها تنام هادئة.

تعرف زينب أن أمّها تدفع بعبد الله إلى مظاهر الرجولة، حتى يحسب صالح ابن زوجها حسابًا له.

تتباهى أمّها عندما تناديها الجارات: أمّ عبد الله، وتطرب هي التي انقهرت عندما رزقت بالإبنتين، زريفة وزينب، واحدتهما على رأس الأخرى، وانتظرت عدّة سنين لترزق بعبد الله، فقرّت عينها عندما رزقها الله به، والبنتان فرحتا به، وتباهين، فهو من لحمهما ودمهما، وليس كشقيقهما صالح الذي من أبيهما، والذي لا يشعرهما بالودّ، ويكره أمّهما.

عندما دخل الموكب الصغير الساحة، انقبض قلبها، وعيناها تريان باب دكّان والدها المغلق منذ رحيله، والمصطبة التي كان يتجعّص عليها، مميلًا جسده على الوسائد، وأمامه شيشته، وهو يرفع يده محيِّيًا العابرين، وقاصديّ دكّانه لشراء حاجياتهم.

همست وفي عينيها دموع: يرحمك الله يا أبي. الفاتحة لروحك. ومسحت مع الفروغ من التمتمة بالفاتحة وجهها، ومرَّرت أصابعها على جفونها ماسحة دمعات علقت بين رموش عينيها، وهي تتنهَّد، هامسة لنفسها: الموت يأخذ كلّ الناس، ولا أحد تدوم له الحياة.

اندفع عبد اللَّه وسبق أخته وابنها رافعًا صوته:

يمّا...

ردّت أمه:

أيْوه يا حبّة عيني...

أختي زينب جاءت.

نثرت آخر حفنة علف لدجاجاتها، وفتحت ذراعيها مرحِّبة:

أهلًا يا حبيبيني.

ثمَّ احتضنت رشادًا، وبوَّست رأسه وجبينه، ومرَّرت راحتها على بدن معزوزة الغارقة في النوم.

أخرجت من عبّها صرّة فيها حبّات حامض حلو، ودسّتها في يد رشاد، فالتقم حبّة، وانشغل بمصمصتها والاستمتاع بحلاوتها.

قالت زينب:

خلّينا نروح للبابور، ونلحق نطحن لك القمحات، ونعود مبكِّرين، فربما يحضر محمود اليوم.

رفعت زينب القدح القشّي على رأسها، وسألت رشادًا:

تأتي معي، أم تبقى هنا مع جدّتك؟

قال، وهو يمصمص بقايا حبّة الحامض حلو:

آجي معك يمّا.

هات يدك.

أمسكت بيده، وانطلقت إلى الساحة، بلحة صبيحة عن يمينها، والأزقة تأخذها إلى البابور، ولكن بعضها ستضطرّها لمشي مسافات أطول.

تذكَّرت أنَّ والدها أخبرها عن سرّ بلحة صبيحة في منتصف الساحة، والتي لا يوجد سواها في كلّ أرض ذكرين. قال لها: صبيحة كانت تنتظر ابنها الذي أخذوه للحرب، ولم يعد، وكانت تجلس في الساحة طيلة الوقت، قدّام بيتها متأمِّلة أن تراه عندما يعود. مرّة أكلت حبّات تمر، ودفنتها في التراب عند قدميها، فبدأت نخلة صغيرة تنمو، وهي ترعاها، حتى كبرت، وصارت تسند رأسها إلى جذعها، وذات يوم وُجدت ميِّتة.. تلك هي حكاية بلحة صبيحة.. رحمها اللَّه. ويضيف والدها: أتذكّرها، فقد كانت قليلة الكلام، تحرِّك رأسها في اتّجاه كلّ الشوارع التي تصبّ في الساحة.

لم يعد ابنها، وماتت حسرة عليه بعد سنوات انتظار طالت. لا شيء كقلب الأمّ يا زينب! هي راحت، وأنت رحت يابا، والدائم وجه الله.

قرَّرت أن تسلك الطريق إلى الآبار، حيث غير بعيد يجثم البابور، ويعلو صوته منذ الصباح حتى مغيب الشمس: ببب ببب بب ببب...

سألها رشاد، وهو يخرج حبّة حامض حلو من جيبه:

توكلي حبّة يمّا؟

أبطأت مشيتها، وأرخت يدها اليمنى وربتت على رأسه:

عيب أن تأكل المرأة في الشارع.

لم يفهم لماذا عيب أن تأكل المرأة حبّة حلو في الشارع، وانشغل بقرش بقايا الحبّة، ثمَّ لقم حبّة جديدة، وانشغل بتحريكها بين أضراسه وفوق لسانه.

في مدخل البابور تجمَّعت النسوة حول أكياس وأوعية قمحهن، وهنّ يتضاحكن، ويتمايلن، وتضع واحدتهنّ فمها في أذن الأخرى لتهمس لها بما يضحكها، بينما صاحبتها تردعها بصوت مسموع: وَلِكْ عيْب عليكِ.

زينب...

ارتفع صوت حلمية، ففردت زينب يدها ومدَّتها لها، بينما يدها اليسرى تمسك بالوعاء على رأسها، والتقى رأساهما، وتمايل جسداهما، ثمَّ أنزلت زينب القدح عن رأسها، وسلّمت على النسوة، ومنهنَّ صاحبات عزيزات على قلبها.

مازحتها حلمية:

متعّبة حالك في هالحمل!

لكزتها زينب في صدرها بودّ:

شويّة القمح لأمّي يا هبلة، وأمّي لم يعدّ معها في البيت سوى أخي عبد الله. شويّة القمح هذه تكفيهما لأسبوعين، فهي تعجن وتخبز كلّ ثلاثة أيّام.

صعدتا درجات السلم الخشبيّ، ولم تكفّا عن المزاح بصوتيهما الهامسين، وهما تتمايلان فوق السطح الخشبيّ، قرب القمع المقلوب الذي يسكب فيه القمح، ويتحوّل إلى طحين يتدفَّق من الأنبوب، ليتلقفه أصحابه في أوعيّتهم وهم يقفون على أرضيّة البابور، غير بعيد عن القشاط العريض الذي يدور بسرعة مشغِّلا الماكينة، التي تحوِّل القمح والذرة والشعير إلى دقيق.

رجعت زينب إلى الوراء خطوة، بعد أن ضربت بقبضتها صدر حلمية بودّ، رافضة جرّ حلمية لها لتحكي عن أحوالها مع زوجها، لأنّ صاحبتها فضوليَّة، ودائمًا تحاول استدراجها للدخول في كلام تراه زينب عيبًا.

انكسر لوح الخشب تحت قدميْ زينب، فمال جسدها وترنَّحت على الخشب الذي تفلّع وانفتحت فيه ثغرة تحت قدميها، فهوت وهي تطلق صرخة استغاثة، محاولة التشبُّث بأيّ شيء، بينما جسدها يهوي في الفراغ فوق الحزام العريض الدائر بسرعة، ولكن صوت البابور المدوّي كان أعلى من صرختها، فصاحت حلمية بصوت مفزوع،

منبِّهة الرجال والنساء وصاحب البابور الذي كان يراقب تدفق الطحين، ووجهه وملابسه مغطاة بالدقيق الأبيض.

هوت زينب بعد أن فشلت في محاولة التشبُّث بحواف الخشب المتكسِّر، والذي تحوَّل إلى شظايا، فسقط جسدها بثقله على الحزام العريض الذي يلفّ حول محاور معدنيَّة؛ وصرخت، إذ لقف القشاط طرف ثوبها، وجذبها، فحاولت أن تنتزع جسدها منه، ومال جسدها فضربت حافّة الحزام الحادَّة صدرها، فشعرت أنَّ لحمها يتمزَّق.

صاحب البابور تنبَّه على الصراخ، وإذ رأى ما يحدث أصيب بالهلع، فركض مبتعدًا كأنَّما لينجو بنفسه مما سيجرّه الحادث عليه من أهل البلد، ولكنَّه عندما وصل أول بئر تنبَّه إلى أنَّ البابور لا يتوقَّف، وأنَّ المرأة في خطر، فأسرع عائدًا واقتحم غرفة الموتور وأوقفه.

صاحت زينب، وقد تمزَّق ثوبها على جسدها، وهي تحاول أن تداري عريها، بينما الدم يتدفَّق من عدّة مواضع في بدنها:

أفّ عليكم يا أزلام.. جسدي عار.. أستروا جسدي يا أزلام.

تقدَّم عدّة رجال، وخلع أحدهم عباءته ولفَّها حول بدنها، وهم يسحبونها من تحت سطح البابور وأرضيته.

رأى علي الهرش صاحب البابور ما أصابه بالذعر: المرأة مرمية، وجسدها لم يعد جسدها، والدم ينزف من أنحائه، وهي تكزّ على أسنانها، وتنظر حولها ذاهلة.

اندفعت حلمية، وحاولت أن تحتضنها، وهي تردِّد بلهّوجة:

سلامتك يا زينب، سلامتك يا صاحبتي، سلامتك يا أختي الغالية.. سلامتك يا أمّ رشاد.

فتحت زينب عينيها على وسعهما، فلم تر رشادًا، فتشبَّثت بكتفيْ حلمية:

ديري بالك على ابني يا حلمية، ديري بالك على رشاد يا أختي.

تحلّقت النسوة حولها، وهنّ في حالة ذهول ممّا حدث، فهنّ لا يفهمن كيف حدث هذا لزينب التي كانت تمازحهن قبل قليل.

فتحت فمها، وأخذت تنفض رأسها غير مصدِّقة ما حدث، وناحت:

راح البشير يبشِّر القوم

جمل المحامل ودّع اليوم

وسط النواح، الذي زاد من حزن النسوة والرجال، ارتفع صوت زينب الملتاع:

ديرن بالكن على رشاد يا صاحباتي!

أمَّا النسوة الواجمات الباكيات المذهولات، فلم يجدن شيئًا يقلنه لها، سوى ترديد الكلمات نفسها: سلامتك يا زينب، سلامة شبابك.. ربّنا يسلمك لابنك وبنتك وزوجك يا زينب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتشر النبأ في ذكرين، فحضر صالح في البكم، وهو يجلس بجوار السائق مع شريكه أحمد ظاهر.

لفّوها في بساط، وحملوها وهي تعضّ شفتها حتى سال منها الدم، كاتمة ألمها، ومدَّدوها في صندوق السيارة، وجلس بجوارها شقيقها عبد الله الذي كان يبكي وهو يرتجف، ويتأمَّلها بعينيه السوداوين الواسعتين اللّتين طفحتا بالدموع.

انطلقت السيّارة محاذية الآبار، متوجِّهة إلى القدس، في حين جلس السائق وأحمد ظاهر وصالح واجمين، سوى من عبارة يردِّدها أحمد ظاهر: ألطف يا ربّ.. ألطف بها يا ربّ.

لما توقَّفت السيّارة بعد ساعات طوال أمام المستشفى في القدس، كانت زينب تغرق في الدم، وثوبها يقطّر لونًا أحمر، وهي شاحبة، تتنهَّد تنهُّدات عميقة كأنَّما تسحب بعض الهواء وتنتزعه انتزاعًا، مع إطلاق آهاتٍ عالية من جسدها الذي يرتجف من هول الوجع، ويدها تتشبَّث بيد شقيقها عبد الله، ويدها الأخرى تمسك بعارضة خشبيَّة، فاهتزاز السيّارة يشعرها بألم، كما لو أنَّ سكاكين تحزّ لحمها وتخترق عظمها.

مال أخوها صالح على رأسها، وهمس في أذنها، بينما شقيقها عبد الله يرقبه، ويرهف سمعه ليلتقط كلّ كلمة يقولها، رغم أنَّه أخذ يكلِّمها همسًا، غير منتبه لأخيه عبد الله الذي أغمض عينيه وكأنَّه ينام، بعد ليلة طويلة سهرها بقرب سرير أخته:

اسمعي يا زينب: لازم تغيِّري إفادتك.

حرَّكت رأسها قليلًا وهي تتنهَّد، محاولة أن ترى تقاطيع وجه شقيقها، فعاد يهمس في أذنها غافلًا عن قرب عبد الله منه:

قولي: دفعتني حلمية عمدًا.

نفضت رأسها:

لأ، لم تدفعني يا أخي. حرام أتَّهمها، فهي صاحبتي، وأنا وهي كنّا نتمازح، ولو كانت واقفة محلّي كانت هي التي وقعت بدلًا منِّي. نصيبي يا أخي. أنا بين يديْ الله...

أنا أخوك، وأعرف مصلحتك أكثر منك. إذا قلت بأنَّها دفعتك فسيدفعون ديّة إن حصل لك مكروه.. لا سمح الله، وستكون لابنك وابنتك.

رفع رأسه، ومرَّر نظره على من في الغرفة الفسيحة من المرضى، وركَّز نظره لوهلة على عبد الله، فاطمأنّ أنَّه نائم.

أنا أعرف مصلحتك يا أختي. المستشفى سيكلِّف كثيرًا؛ وإن لم تقولي بأنَّها دفعتك، فنحن سنتحمَّل التكاليف.

خرج وعاد، وشرطيٌّ يلحق به:

خذ أقوالها بسرعة.. يلّا. قولي له يا أختي بأنَّ حلمية دفعتك عمدًا.

هزّت رأسها، بينما دموعها تسيل على خدَّيها، وجسدها ينتفض تحت الغطاء.

سألها الشرطي:

هل تفيدين بأنَّ المدعوّة حلمية قد دفعتك عمدًا؟

هزّت رأسها كأنَّها تقول: لا.. فدفعه صالح في كتفه:

تقول: أيْوه.. سجّل يا أفندي، سجّل الله يخلّيلك أولادك، قبل ما يصير لها شيء.

أغلقت عينيها، وودَّت لو أنَّها تموت ولا يكتب على لسانها بأنَّ صاحبتها دفعتها عمدًا. أنا بين يديْ الله، فكيف أكذب؟ كنّا نتمازح، ورجعت إلى الوراء، فانكسر الخشب تحت رجلي وسقطت. حاولت أن أتمسَّك بشيء، ولكنَّني سقطت على قشاط البابور، وصياح صاحبتي يدوّي في رأسي حتى اليوم، ولا يفارقني. حلمية هي التي نبَّهت الناس على ما يحصل لي. صاحب البابور هرب وتركه شغَّالًا، ثمَّ عاد وأطفأه، ولكنَّني كنت قد ذُبحت. انذبح بزّي، وفخذي، ويدي.. حلمية ما لها دخل.. حلمية بريئة يا ألله.. والله بريئة. يا صالح، ألله لا يسامحك، تشهدني بالزور وأنا بين يدي الله!

فتح صالح جزدانه، وأخرج جنيهين دسّهما في يد الشرطي الذي ابتسم له، وقال:

عجبتني، لأنَّك هيك حفظت حقّ أختك.. الله يسلّمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصوت واهن، أوصت عبد اللَّه:

قل لمحمود.. قل له: حلمية لم تدفع زينب عمدًا، وصالح اتَّهمها زورًا . قل له: سامح حلمية وأهلها، وما تطاوع صالح.. حتى ربّنا يغفر لي إن متّ، ويلطف برشاد ومعزوزة.

سألها عبد اللَّه:

زوجك أين يا أختي؟

أجابته:

أنا أعرف أين هو. إن شاء اللَّه يحضر، وأشوفه قبل ما أموت. نفسي أشوفه وأودِّعه يا عبد اللَّه. رحْ يا أخي للبلد وأحضره. بسرعة يا أخي حتى تلحق بأوتومبيل الخليل.

تنهَّدت بعمق:

إياك تروّح من بيت جبرين لذكرين لحالك إذا غابت الشمس عليك.. أيْوه يا حبيبي؟ أمّنا مالها غيرك يا عبد الله. اليهود في الكبّانيَّة بيطخّوا على الناس، والضباع تطلع في الليل، وتهاجم من يكونون وحدهم.روح لذكرين مع ناس يا حبيبي. لا تقل لأمّي إنَّهم قطعوا إيدي وبزّي..آآآآآخ.

عضّت شفتها، وهي تهزّ رأسها كأنَّما لتنفض الألم الذي داهمها:

سألها عبد اللَّه:

موجوعة يا أختي؟

لاهثة، وبكلمات متقطِّعة:

كثير يا عبد اللَّه.. كثير يا أخي.. قالوا لي إنَّهم أعطوني إبرة تخفِّف الوجع، لكنَّ الوجع لا يتوقَّف.. حتى حبّات عيني بتوجعني. رح يا حبيبي قبل ما يصير لي شيء.

وهو يغادر باب المستشفى، رأى شقيقه صالح. احتار عبد اللَّه بماذا يجيب إن سأله شقيقه مستفسرًا عن وجهته.

باغته صوت صالح:

عبد اللَّه! وين رايح؟!

ارتبك أمام نظرة شقيقه الحادّة:

بدّي أروّح على ذكرين.. حتى...

لم يدعه يكمِّل. أشار له أن يجلس بجواره تحت الشجرة، فجلس وهو في حيرة، فبماذا سيبرِّر لزينب تأخُّره عن الذهاب للبلد؟

فكَّر عبد اللَّه، وهو يجلس بجوار شقيقه: ولكنَّ زوج أختي لن يتأخَّر إذا ما علم بالمصيبة، فلا ضرورة للذهاب لذكرين!

مدّ شقيقه يده برغيف وضع فيه قطعة حلاوة:

كلّ يا أخي.. كلّ. أكيد أنت جائع.

فجأة رأيا محمودًا وهو يندفع، وقد مال عقاله فوق كوفيَّته التي توشك أن تسقط من على رأسه، وهو بدون عباءة، وحين اقترب لحظا احمرار عينيه، فعلّق صالح:

بدّو يعمل حاله مفجوع على زينب!

والتفت إلى عبد الله، وقد عبر محمود قربهما ذاهلًا، ولم يتنبه لهما:

أين كان بسلامته؟ مع الشرامیط في يافا؟

لبث عبد الله صامتًا، فهو يعرف ما بين شقيقه وزوج أخته من نفور، وهو في داخله يرتاح لصهره أكثر من شقيقه صالح، الذي ضرب أمّه وشتمها وبهدلها أمام الجيران. هو لن ينسى ما قالته أمّه متحسِّرة: لو كنت أكبر يا عبد الله، لما سمحت له ببهدلتي قدّام الناس!

رمى صالح ما تبقّى من رغيفه، ونهض مسرعًا، وهو يقول: يجب أن أدخل لأسمع ما ستقوله زينب له.

عندما دخل رأى زينب ومحمود يتعانقان. تساءل: هل أخبرته؟ ولكنَّه اطمأنَّ، لأنّ محمودًا لم يفعل شيئًا.

رفع محمود رأسه، بعد أن همست زينب في أذنه بكلّ شيء، واستحلفته أن لا يتَّهم حلمية.. صاحبتها، وأن لا يخبر شقيقها بأنَّه يعرف ما فعله، ولا يقتتل معه؛ فعند المحكمة سأشهد لصالح حلمية إن خرجتُ طيِّبة من المستشفى، وإن متّ فاشهد معها يا محمود، ولا تتَّهمها بأنَّها تسبَّبت في موتي.. حرام.. ربّنا سينتقم منك، ومن ابني وبنتي، وسيعذِّبني في القبر لو فعلت.

مدّ محمود نظره بعيدًا، وهو يتوقَّف منتشيًا بهذا النهار المضاء بشمس فاترة وبنسمات منعشة. سرّح نظره مع رفوف الحمام البرّي المحلِّق في الفضاء شرقًا، وهي تنعطف فوق حقول القرية وحواكيرها إلى أن اختفت عن نظره، فخمَّن أنَّها، وقد ملأت بطونها، تهبط قريبًا من البركة لتروي ظمأها.

رفع يده بالصرّة التي تضمّ علبة حلاوة، وقضامة حلوة، وحامض حلو، وحناء ، وباكيت حلقوم، ومنديلًا زهريًّا لتضعه زينب على رأسها وهي في البيت. قال لنفسه: ستفرح زينب بالمنديل. ضحك وهو يهزّ الصرّة في يده: يا عيني.. ماذا ستقول أمّي إذا ما رأت زينب بالمنديل؟ والله أمر غريب! لماذا أمّي تكره زوجتي وتحبّ زوجة عبد الرحمن؟! زينب تقرّبت من أمّي، لكنّ أميّ نفرت منها بدون أيّ سبب. علي كيفها: تحبّ زينب أو ما تحبّها، أنا أحبّها وهي تحبّني. وكما يقول أبوي مرشد: الله يهديها يا ولدي: أمّك بدّها تحطّك في حضنها، وما تشوف حدّ يوخذك منها. تحمَّلها يا ولدي، بكرة بتتغيّر، وبتفهم إنّك كبرت وتزوَّجت، ولك أسرة، وامرأة هي التي لها حقّ في احتضانك. وهو يتذكّر ضحكة عمّه مرشد: صحّ كلامك يابا مرشد، أمّي تحمَّست لزواجي، وبعد ما صار الأمر جدِّيًّا بدأت تتغيّر، حتى قبل ما تيجي زينب لبيتي وتصير زوجتي.

لمّا اقترب من حقل العمّ مرشد لم يره، فتوقَّع أن يجده في الكرم، فعجّل في سيره، وإذ اقترب من بوّابة الكرم تطلَّع من فوقها مجيلًا نظره تحت الأشجار، فاستغرب غيابه، فنادى:

يابا مرشد.. يابا مرشد.

فلم يسمع جوابا، فانقبضت نفسه، خشية من أن يكون مريضًا، فهو إمّا في الحقل يحرث ويعشّب، أو في الكرم يقلِّم الأشجار، أو يغرس الغراس، أو يسوِّي الأرض لزراعة الخضراوات تحت الأشجار.

رأى امرأة تقترب في طريقه، ولكنَّها ما إن اقتربت منه حتى توقَّفت قليلًا وتأمَّلته، ثمَّ انحرفت عن الطريق، وعجّلت في مشيتها، فاستغرب الأمر.

وهو يعبر من أمام بوّابة بيت العائلة، همّ أن يقرعه ليسأل عن عَمّه مرشد، ولكنَّه تريَّث قليلًا، ثمَّ استأنف سيره، فلحق به صوت:

أبو رشاد.. أبو رشاد.

التفت وراءه، فرأى جارهم محمود غنيم، الذي تقدَّم إليه بوجه تبدّت عليه علامات حزن انقبضت له نفس محمود.

احتضنه الجار، وارتفع بكاؤه:

شدّ همَّتك يا أخي... ربّنا يصبّرك على ما جرى لزينب.

نتر نفسه من بين يدي الجار، وتأمَّل وجهه بدهشة، ولم يجد شيئًا يقوله، فقد أذهله كلام الرجل، الذي عاد واحتضنه بعد أن قدّر حالته:

يمكن ربّنا يلطف بها! فهم نقلوها للمستشفى في القدس.

صرخ محمود بصوت مرتجف:

من التي أخذوها للمستشفى في القدس؟!

تأمَّل الجار وجهه، وتساءل:

كأنَّه لا علم لديك ولا خبر يا زلمة! امرأتك زينب وقعت في بابور الطحين، وبعدين أخذوها للقدس.

أطلَّت زوجة الجار، وارتفع صوتها:

الله يسلِّمها لك ولأولادها، فهي جارة الرضى والله!.. وما بتستاهل يصير لها مكروه.

استفاق محمود على جدِّيَّة الأمر، ولكنَّه رفض أن يصدِّق ما يسمع، فهرول مبتعدًا باتّجاه بيته، ثمَّ توقَّف وركض باتّجاه بيت أهلها.

رأى رشادًا يجلس على مصطبة دكّان جده، وهو شبه نائم، فناداه مفجوعًا:

رشاد يابا يا حبيبي.. رشاد!

رفعه من تحت إبطيه، واحتضنه، ثمَّ انفجر في البكاء، وهو يدفع بوّابة الدار، رأى حماته تحتضن ابنته معزوزة، وهي تقعد على التراب في حوش الدار، وهي تنوح بصوت متعب.

أين زينب يا عمّة سارة. أين زينب؟

فتحت سارة عينيها المحمرَّتين كالجمر، وبصوت ميّت:

زينب أخذوها على القدس يمّا.. أخذوها بأوتومبيل صالح. راحت يا حبّة عيني تطحن لنا شويّة قمح ووقعت في البابور. انكسر الخشب تحت رجليها وسقطت على القشاط، وفرم لحمها يمّا.. يمَّا يا حبيبتي يا زينب.

سقطت الصرّة من يده، وانزل ابنه، ثمَّ استدار، ومضى عائدًا إلى بيت جبرين، وكلّ همّه أن يصل إلى القدس قبل غياب الشمس.

قال لنفسه: سأصل إلى القدس قبل غياب الشمس، وانخرط في الهذيان، وهو يركض تارة ويلتقط أنفاسه تارة ، ثمَّ ليعود ويندفع على طريق بيت جبرين، غير آبه بالرصاص الذي يطلقه يهود كبّانيّة موسى.

أنا في يافا أتفرَّج على السينما وأفرح بالبحر مع الأستاذ علي والرفاق، وأنتِ يمزّق لحمك بابور الطحين يا زينب !. لا تموتي يا زينب.

لم يختبئ من الرصاص وراء الصخور، ولكنَّه ركض بعد أن شمَّر قمبازه، وغرس طرفيه في حزامه.. لا تموتي يا زينب.. لا تموتي يا حبيبتي.. أنا جاي لك.. انتظريني يا زينب.

ماتت زينب بعد أن رأت زوجها، وأخبرته بما جرى، وأوصته بأن لا يتَّهم حلمية صاحبتها. عند أذان العصر الذي رُفع من الأقصى، فتحت فمها وشهقت وماتت.. بينما الدكتور يقف عند رأسها ويمسك برسغها، ويقيس نبضها المنخفض، متأمِّلًا وجهها الشاحب، مرهفًا سمعه عبر السمّاعة لنَفَسها الذي يخفت حتى لا يكاد يسمعه.

جسد زينب يبرد، ونَفَسها تلاشى تمامًا، ونبضها توقَّف.

أرخى الدكتور رسغها، ووضع يدها على صدرها، وأجال نظره في وجوه زوجها وشقيقيها، وتنهَّد بحزن:

العمر لكم.

ثمَّ أضاف:

أعطتكم عمرها.. اللَّه يرحمها.

ترنَّح محمود، فأمسك به الدكتور وأجلسه على حافّة السرير، وهو يردِّد:

شدّ حيلك، ووحِّد اللَّه يا زلمة. يمكن الموت أرحم لها بعد بتر ساقها ويدها وثديها.. يعني حياتها ستكون عذابًا لها ولكم.. أستغفر اللَّه العظيم. شدّ حيلك يا أخي فأنت رجل!

اختلط عرقه بدموعه وجفّ ريقه، فودّ لو يحصل على جرعة ماء يبلُّ بها ريقه.

مال على عبد اللَّه:

عندما نصل الخليل لازم نشرب يا عبد اللَّه.. أنا ريقي نشف.

قال عبد اللَّه، الذي بدت عيناه حمراوان مثل جمر النار:

وأنا عطشت كثيرًا.

خبط عبد اللَّه بيده على السقف فوق رأس السائق، عندما دخلوا الخليل، فأخرج السائق يده وبرمها في الهواء، وارتفع صوته:

شو في يا عبد اللَّه؟

بدنا نشرب.. عطشنا يا وجيه.

توقَّف البكم، ونزل السائق. نزل محمود وعبد اللَّه، ووقفا أمام أحد المحال. طلب عبد اللَّه شربة ماء، فناوله التاجر إبريقًا. مدّ عبد اللَّه يده بالإبريق لمحمود، وبعد أن شربا وارتويا صعدا في السيّارة.

غاب صالح في السوق، ثمَّ عاد وهو يحمل كعكًا وبيضًا، ونادى على بائع الزبيب، فصبّ له وللسائق ولأحمد ظاهر.

تأمَّل محمود ما يجري بقهر:

كأنَّ أخته لم تمت. يأكل ويشرب الزبيب! أنا لا ألوم أحمد ظاهر والسائق، فهما غريبان، ولكن أنت: أليست أختك يا صالح؟! منذ تزوَّجت زينب وأنت تكرهني، لماذا؟!

اندفع البكم على طريق الخليل بيت جبرين. خلع محمود جاكتته من شدّة الحرّ ووضعها على رأسه، شعر بأنَّه يترنَّح مع حركة البكم، وأنَّه سيتطوَّح على أرضيَّة الصندوق، فتشبَّث بالعوارض الخشبيَّة، وحاول أن يفتح عينيه حتى لا ينعس.

خيِّل له أنَّه في كابوس، وأنّ ما حدث ليس حقيقيًّا. لقد وعد زينب أن يصطحبها إلى يافا في موسم البرتقال: الله الله! يا زينب.. على يافا في موسم البرتقال! تلال من البرتقال، وزوارق تنقل صناديق البرتقال إلى السفن في البحر.. ورائحة البرتقال تفوح في كلّ مكان من يافا، والمدينة لونها برتقاليّ، وليلها برتقاليّ، وقبل نضوج البرتقال تمتلئ يافا برائحة زهر البرتقال. سآخذك إلى يافا، ونتمدَّد على الشاطئ، ونأكل البرتقال، ونشتري هدية منه لعمّتي سارة، ولحسن ونظيرة.. وأنت تقولين: عشمتني يا زلمة.. سأصحبك إلى يافا، وننام في الفندق.. فندق الرفيق أبو فخري.. في الغرفة نفسها التي نمنا فيها يوم ما أخذنا رشاد للدكتور، ونقعناه في الماء المالح. تأمَّل ساقها الواحدة، وخبط رأسه في عارضة البكم: راحت ساقك يا زينب.. وبزك.. ويدك بقايا يد.. ذبحك بابور الطحين يا حبيبتي.. لمن ستتركينا يا زينب.. أنا ورشاد ومعزوزة؟! ضِعْنا يا زينب يا حبيبتي..ضعنا يا زينب بدونك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضى البكم باتِّجاه بيت صالح، وهناك توقَّف، وفي لحظات توافد الرجال والنساء والأطفال، وتحرجموا حول البكم، وارتفع الصراخ والعويل والتكبير.

ارتفع صوت صالح:

يا أهل ذكرين: أختي ستدفن هنا بجوار والدي، وجدَّتها غفرة أمّ والدي، ونحن في القدس كفَّنّاها، وبقي أن نصلِّي عليها.

ارتفع صوت الشيخ خميس:

ما دمتم قد كفّنتموها في القدس، فلنصلِّ المغرب عليها، ولندفنها في قبر أهلها.. يرحمها ويرحمنا الله.

القبر المحدَّب الكبير يترامى قبالة دار صالح، له فتحة تتَّسع لدسّ جسد ملفوف بالكفن.

فتحوا باب القبر، ودسّوا زينب بعد الصلاة عليها، ورفض صالح تأجيل الدفن حتى تصل شقيقته زريفة من أدسير، وأدار ظهره لأمّها، امرأة أبيه سارة، ولرجاء عبد الله شقيقه، وهو ينفض يديه:

عندما تحضر، فلتبكِ على أختها قدر ما تشاء.. فإكرام الميِّت دفنه!

رصّوا الحجارة فوق بعضها، وثبّتوها بالطين، ثمَّ قرأوا الفاتحة، وجلسوا على الحصر المفرودة أمام بيت صالح.

محمود وعمّه مرشد، وأقاربهم انسحبوا متكدِّرين، لأنَّ صالح عاملهم كما لو أنَّهم غرباء، وليسوا أصهارًا، وزينب امرأة ابنهم.

استند محمود إلى كتفيْ شقيقه أحمد وابن عمّه عبد الرحمن، وخلفه سار حسن ممسكًا بيد رشاد الذي يبكي وهو يصرخ: بدّي أمّي..بدّي أمّي، خذوني عند أمّي..

وين راحت أمّي؟

رفض محمود الدخول في بيت العائلة وهو ينفض رأسه، فهو لم يغفر لأمّه حقدها على زينب، وتسبُّبها بموت معزوزة، فأمسك حسن بيده، واقتاده باتّجاه بيته، وخلفه سار مرشد، وأحمد، وعبد الرحمن، والأقارب، فاستقبلتهم نظيرة معصوبة الرأس، وناحت مرنِّحة رأسها، ضاربة صدرها بقبضتيها:

خلص راحت زينب!.. دفنتوها.. وكأنَّها ما كانت! زينة النسوان يا أختي يا زينب.. يا صاحبتي، يا جارتي، يا أغلى من روحي.. يا زينب!

دخل حسن، وأخذ يحمل الأفرشة ويفردها ليجلس عليها أقاربه المحزونين.

صامتين جلسوا حول محمود شبه الميّت، ورشاد الذي نام في حضنه، مهدودًا من التعب، والصراخ، والبكاء، وعدم فهم ما يدور حوله.

تنهُّدات مرشد، وتوحيده الله، تقطع صمتهم الثقيل، وحركة نظيرة وهي تضع أباريق الماء البارد أمامه، وحسن وهو يشعل النار، ويضع القهوة في المحماصة ليعدّ لهم القهوة السادة، قهوة المأتم، وليس قهوة كيْف الرأس والمؤانسة...

دفعا باب الكرْم ودخلا واحدهما وراء الآخر، فرأياه يقف بانتظارهما، وإذ اقتربا لاحظا كم هو متكدِّر الوجه:

نظر في عينيْ محمود غاضبًا:

هل تعرف يا ولدي أنَّ جيراننا طلبهم البوليس في الخليل، ومعهم ابنتهم حلمية، صاحبة امرأتك يا محمود؟! إذا أدخلوا البنت في الحبس، فهذا عار سيلحق بنا، وليس بهم. الجار أعزّ من الأخ.. الجار يا محمود! هل تعرف حقّ الجار يا محمود؟ الجار ولو جار يا محمود!

عبد الرحمن ينقل نظره بين فم والده، وفم ابن عمّه، ووجهه مقطّب ومتوتّر.

ضرب محمود على جبينه:

لا أنا يا والدي، ولا المرحومة، ادّعينا على حلمية وأهلها. صالح وراء كلّ ما جرى، هو لفَّق إفادة زينب، وهي لم تنطق بكلمة بل هزّت رأسها أمام الشرطيّ رافضة اتّهام حلمية. زينب أوصتني أن أسامح حلمية، وأن أقول أمام المحكمة بأنَّ امرأتي لا تتَّهم صاحبتها، وأنَّهما كانتا تتمازحان معًا عندما سقطت زينب في البابور.

يضرب الشيخ مرشد كفًّا بكفّ، ويتنهَّد بقهر:

صالح شبك الناس في بعضهم يا محمود!

صمت، ثمَّ أضاف:

جاءني جارنا هنا أمس، وأخبرني بأنَّ صالح زاره في بيته، وأقسم على المصحف بأنَّ محمود وراء ادّعاء زينب، وأنَّه مستعدّ أن يذهب إلى الفالوجي ليحلف في مقام السيِّد أحمد الفالوجي.

تساءل عبد الرحمن:

لماذا يا أبي لا يذهب محمود ويخبر جيراننا بالحقيقة، ويسامحهم، فهو زوج المرحومة، وهو الذي خسر، وهو صاحب الحقّ وليس صالح؟!..

ارتفع نعيب طائر البوم، غير بعيد عن الكرْم، فأدار الشيخ مرشد وجهه باتّجاه الصوت، وأرهف سمعه:

اللَّهم أبعد الشرّ عنّا.. اللَّهم ردّ كيد.. كيد من يريد بنا الأذى إلى نحره يا الله.

ركض عبد الرحمن باتّجاه مصدر الصوت، والتقط حجرًا، وهمَّ أن يرمي الطائر به، ولكنَّ الطائر فرّ وهو يزعق بصوت ناشف حادّ:

الله يلعنك يا بوم يا طير الشؤم..

قال عبد الرحمن، وهو يرمي الحجر من يده.

وكأنَّما يكلِّم نفسه، قال مرشد:

هذا الزلمة ناوي لك يا محمود على الشرّ، فهو رفض زواجك من زينب، وهو اليوم يورِّطك مع جيراننا، ولا ندري ماذا سيفعل!! عجيب أمره: لماذا يكرهك هذا

الزلمة؟! هو الآن يفعل ما يريد، فقد رحل والده يرحمه الله، وهو يتحكم بزوجة أبيه وبأخيه الصغير.. حسبنا بالله ونعم الوكيل!

وضع محمود يده على الشبريّة في خاصرته، وكأنَّه سينتزع النصل من غمده. اقترب منه عمّه مرشد ووضع يده فوق يده، وحدَّد نظره في عينيه:

لا تذهب للشرّ يا ولدي، فأنت يكفيك ما أصابك. سأذهب مساء اليوم وأزور جيراننا، وأطيِّب خاطرهم، وأعرض عليهم أن تذهب معهم للمحكمة في الخليل، وتعلن أنَّه لا حقّ لك، وأنَّك لا تتَّهم ابنتهم بشيء، وأنَّ ما جرى كان قضاء وقدرًا.

وضع يديه على كتفيْ محمود وعبد الرحمن ودفع بهما ليذهبا، وأدار ظهره، واستأنف تجواله في كرمه ساهمًا بخطى بطيئة، وهو يقول:

الذي كتبه اللَّه يصير. لا حول ولا قوّة إلّا باللَّه! اللَّه يصبِّرك يا محمود يا ولدي، ويعينك على بلوتك...

أنا مطلوب للخليل؟!

سأل رجليْ الشرطة اللذين وقفا أمامه وفي خاصرتيهما مسدسيهما، فأكَّد له من يضع شريطتين على كلّ كمّ من كمَّيه، وهو يهزّ رأسه:

نعم.. أنت يا محمود سلمان، ومعك رجل آخر هو محمود سليمان معمر.. مطلوبان.

وجَّه كلامه للشرطيّ الآخر:

اذهب واحضر الشخص الآخر.

وهو مارّ من أمام بيت حسن ابن عمّه، نادى بصوت مرتفع:

يا حسن.. يا حسن.

وعندما ظهر حسن، وهو يشدّ حزامه حول وسطه، حافي القدمين، أوصاه:

دير بالك على رشاد يا حسن. أنا مطلوب للخليل.

سأله حسن مستغربًا:

ليش مطلوب للخليل يا ابن العمّ؟

أشار محمود إلى رجل البوليس:

لم يخبرني!

تساءل حسن:

هل أحضر معك إلى الخليل؟

لأ، يا حسن. دير بالك على رشاد، وتفقَّد معزوزة أنت ونظيرة يا حسن. معزوزة عند جدّتها سارة.. لا تترك أمّي تأخذ ابني.

مشى رجل البوليس وبجواره محمود، ولحق بهما حسن بعد أن انتعل كندرته، ووضع حطّته على رأسه.

قال حسن لمحمود:

لازم أروح معك يا ابن عمّ، حتى نعرف لماذا يطلبونك!

قال محمود كأنَّما يكلِّم نفسه:

كأنَّما لا تكفيني مصيبتي. من الذي قدَّم شكوى ضدّي، ولماذا؟! كلّ هذا من تدبير صالح!

مشى رجل البوليس بصمت، وكأنَّما الأمر لا يعنيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتَّجه حسن إلى بيت المختار، وأخبره بحضور رجليْ الشرطة، وأنَّهما يريدان اصطحاب محمود سلمان ومحمود معمر للخليل.. ليش؟ مش عارف يا مختار، فهل عندك علم وخبر؟

هزّ المختار رأسه، وعلى وجهه سمات أسف وحزن:

عندي يا حسن.. والله عندي. مكيدة يا قرابه.. مكيدة، لا بدّ من توقيف محام. سننهي الأمر هنا في ذكرين مع أهل حلمية قبل ما نروح للخليل. الليلة، سأرى أهل حلمية يا حسن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا إذا؟ قال حسن لنفسه.

أهل حلمية ليواجهوا تهمة القتل العمد الموجَّهة لابنتهم، دبَّروا لعبة أنَّهم تعرَّضوا للسطو عليهم، وهم في الطريق إلى الفالوجي، فجر أمس، وأنَّ الجناة هما محمود سلمان وصاحبه محمود سليمان.. قريب زينب من بعيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ول!...

صاح المختار في وجه والد حلمية، وأضاف:

ألا يكفي الزلمة نكبته بامرأته؟ تدبِّرون له تهمة، وترمونه في الحبس مع محمود معمر؟!

غمغم والد حلمية بكلام غير مفهوم، ولكنَّ المختار فهم ما وراء الكلام: يسقطون تهمة القتل العمد عن ابنتنا، ونتصالح في المحكمة ونسقط حقّنا. لقد اعتدي على نسائنا، وسرق ذهبهن من صدورهن، وقعد محمود سلمان على صدر واحدة من حريمنا!

حرام. هذا الكلام حرام، محمود سلمان لا يفعل هذا الفعل القبيح.

صاح المختار، رغم ما عرف عنه من هدوء، وطول بال:

حرام.. وعيب.. إحنا أهل في ذكرين، ولا يوم وصلت خلافاتنا للبوليس، والمحاكم، والحبوس.

هنا، اقتحم أحمد شقيق محمود وعبد الرحمن مضافة المختار، ومسّى على المختار وحده، قاصدًا استثناء أهل حلمية، لأنَّهم من تسبَّبوا بزجّ شقيقه في الحبس، ولفَّقوا دعوى ضدّه، فباتوا أعداء، وتوجَّه بالكلام للمختار:

يا عمّ أبو إسماعيل، يريدك أبوي مرشد في كلمتين.

نهض المختار، وهو يوزِّع نظراته على أقارب حلمية:

الشغلة رايحة تكبر.. الله يستر!

ومحذِّرًا:

أنتم تعرفون غضب مرشد عندما يغضب. محمود مش مقطوع من شجرة، ومحمود لم يتَّهم ابنتكم، ولا يرضى أن يتَّهمها، وأنا أعرف. أنتم غلَّطتم يا جماعة.. والله العظيم غلَّطتم في زلمة محترم، وابن ناس، وجاركم، ومصابه صعب يا ناس.

وجد المختار مرشدًا يتَّكئ على عصاه، ومن عينيه يتطاير شرر الغضب:

ما عمله...

وأشار برأس عصاه إلى من هم في داخل المضافة:

هؤلاء القوم غلَّطوا في حقّنا يا مختار، وزادوا جرحنا، وأوجعوا ابننا، واعتدوا علينا. نحن لسنا خصمهم، فمن فرض على زينب تبديل إفادتها ليس ابننا، لأنَّه لم يكن موجودًا معها في المستشفى، وعندما وصل أخبرته بما فرضه أخوها صالح عليها، وأوصته أن يبرِّئ حلمية صاحبتها، فماذا يريدون منه أكثر من هذا؟!

وأشار برأس عصاه من جديد:

فعلوا العيب، ولن نرضى.. ولن نمرِّر ما فعلوه معنا، وحياة روح سلمان في قبره ما.....

هنا، وضع المختار يده على فم مرشد، وعبطه، وأخذ يتوسَّل له:

- لا تحلف. منشان خاطري يا شيخ مرشد.. منشان كلّ أهلنا في التراب لا تحلف. بكرة نروح إلى الخليل، ونزور محمود ومحمود، وسأذهب إلى القدس، وأوقف محاميًّا مشهورًا، وسيخرج محمود منها ورأسه مرفوع. أنت تثق بي يا شيخ مرشد.. ألا تثق بي؟!

هزّ مرشد رأسه، وأشار للشابّين أن يتبعاه، وإذ استدار فوجئ بأبناء الحامولة يندفعون إلى حوش بيت المختار، فأشار لهم أن يغادروا، فأحاطوا به، وتركوا المختار، وهو يقف خلفهم واجمًا.

زار مع ابنه عبد الرحمن وأحمد محمودًا المنكوب هذا ما يصفه به محزونًا لأجله في حبس الخليل.

قعدوا مع محمود ومحمود صاحبه، ولطمأنتهما، أخبرهما مرشد:

ذهبنا للقدس، ووكّلنا لكم المحامي شفيق عسل الذي اختاره لنا مختار بلدنا، وطمأننا بعد ما شرحنا له كلّ شيء بأنَّ القضية كسبانة، وأنَّه سيخرجكما خلال أيّام من الحبس. وقال: التهمة...

والتفت إلى أحمد، شقيق محمود:

ماذا قال يا ولدي عن التهمة؟

قال يا عمّ: التهمة ملفَّقة.

هزّ محمود رأسه:

نكبهم اللَّه، كأنَّما لا يكفيني ما وقع على رأسي.

ثمَّ التفت إلى صاحبه محمود معمّر، وتساءل:

وما دخل محمود معمّر ليوّرطوه؟!

ضحك محمود معمّر، فتأمَّل الشيخ مرشد وجهه الأبيض المدوّر، وأعجب بعدم اهتمامه بالحبس، وبإخلاصه لصاحبه محمود.

أنت يا محمود سليمان تذكّرني بوالدك رحمه اللَّه، فقد كان ضاحك الوجه، ويهشّ ويبشّ في وجوه الناس، وما كان أحد يكرهه. أنت أخذت من والدك ووالدتك التي جاء بها من أقارب أمّه في الساحل.

سأل محمود:

كم طلب المحامي يابا مرشد؟

ابتسم مرشد، وربَّت على كتفه:

لا تفكِّر في المصاري يا ابن سلمان. طلب خمسة جنيهات فلسطينيَّة، وأمّك دفعتها، هي تحبُّك يا محمود، وزعل النسوان يروح، وقلب الأم لا يحقد يا ولدي..

لم يقل محمود شيئًا، فعرف الشيخ سلمان بأنَّه لن يصفو لأمّه بسهولة، ولكنَّ الأيام تعلِّم المسامحة.. هذا ما خَبِره مرشد في حياته الطويلة.

ارتفع صوت الشرطيّ:

يا عم، أنت والشباب: انتهت الزيارة.

وقف مرشد، وأحمد وعبد الرحمن، وعانقوا المحمودين.

سأل محمود:

متى المحكمة يابا مرشد؟

المحكمة في القدس بعد ثلاثة أيّام، وهناك سنلتقي، وإن شاء اللَّه براءة.

بعد أن مشى خطوات قليلة عن باب الحبس، توقف، والتفت صوب الحبس:

لعبة!! والسبب توريط صالح للمرحومة بتغيير إفادتها. على كلّ: الحمد للَّه أنَّ جارنا هرّب ابنته إلى أنسبائهم في الدوايمة. كانت فضيحة لنا لو وضعت البنت في الحبس.

أخذ يهزّ رأسه ليطرد الفكرة:

الحمد للَّه.. وإلّا كنّا تورّطنا مع جيراننا. أخِسْ على من كان السبب!

لحقوا بباص بيت جبرين، وجلسوا محزونين، فهم لا يضمنون البراءة لمحمود وصاحبه إلّا إذا تنازل أهل حلمية عن التهمة.. أو إذا ما كان المحامي شاطرًا.

فوجئ أبو رشاد بأنَّ من طلبه للزيارة هو الأستاذ علي، وأنَّه حمل له فواكه وأربع علب سجائر إنكليزيَّة (بحري)، وأنَّه دسّ في جيبه مبلغًا، ثمَّ ربَّت على كتفه:

أعرف مصابك الكبير، فخسارة زوجتك فاجعة.. ولكنْ، لا بدّ من أن تتماسك يا رفيق.

عندما نطق بكلمة رفيق، حدَّد نظرته في عينيه، وكأنَّه يقول له: الرفيق يصمد ويتحمَّل.

أنا أعرف أنَّ صاحبك محمود معمّر متَّهم معك، وأنَّه في السجن معك، ولكنَّني أردت أن أتكلَّم معك ونحن وحدنا. أنا أعرف أنَّك بريء من هذه التهمة، وأنَّك ستخرج براءة، فتماسك يا رفيق.. والمثل عندنا يقول: الحبس للرجال، وأنت رجل، قاتلت في الثورة، وأنت صديق للعصبة.. ورفيق، أحبّك كلّ من عرفك من رفاقنا.

تنهَّد الأستاذ:

ماذا نفعل يا رفيق أبو رشاد؟ نحن مجتمع متخلِّف، وناسنا مشغولون في سفاسف الأمور، بينما فلسطين تضيع. المعارك في كلّ فلسطين مع العصابات الصهيونيَّة، وهناك مؤامرة لتقسيم فلسطين...

فجأة تنبَّه أبو رشاد:

تقسيم فلسطين!

أيْوه يا رفيق. يريدون تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وإعطاء المناطق الخصبة لليهود، وحرماننا من القدس بتدويلها، وناسنا يجهلون ما يدبّر لوطنهم ولهم!

ساد صمت، وكأنَّ الرجلين لا يجدان ما يقولان، فقطع الأستاذ الصمت:

ذكرين موحشة بالنسبة لي بسبب غيابك.. لذا، أنتظر الإفراج عنك، واستئناف حياتك، والعناية بابنك وابنتك، فهما بحاجة لك.

الشرطيّ الواقف قربهما تنحنح، ثمَّ بعد قليل، لفت انتباه الأستاذ:

يا أستاذ: الزيارة انتهت.

ضمَّ الأستاذ أصابع يده اليمنى، ورفعها تحت نظره:

شوية يا شاويش. أنت ابن عرب، والزلمة منكوب.

هزّ الشرطيّ رأسه:

عرفت حكايته يا أستاذ.. هو وصاحبه. الله يجازي أولاد الحرام!

أخرج محمود علبة سكائر ومدَّها للشرطيّ، فتمنَّع، بينما يده تتحرَّك ببطء لتناولها:

لأ.. بلاش، مش ضروريّ.

الأستاذ مشجِّعًا:

خذها.. دخِّنها يا زلمة. أنتم الشرطة العرب مساكين.. ومنّا وفينا.

ابتسم الشرطي ابتسامة ظفر، وعيناه تلتمعان، ودسَّ العلبة في جيبه، وأدار ظهره، فاستأنف الأستاذ كلامه:

أنا اطمأننت على رشاد وابنتك. مررت ببيت حماتك، وهي تسلِّم عليك، وتقول لك: لا يكون لك فكر، فهي تضعهما في حبّات عينيها.

والأستاذ علي يتأمَّل وجهه، انتبه للضعف البادي على وجهه، ونظراته التائهة.. وليرفع معنوياته:

عندنا في العصبة محامون مشهورون. لو حدث أيّ شيء سيقفون لك بلا مقابل.. فأنت غال علينا. علمت أنَّ محاميك بارع، وأنَّه يضمن لك ولصاحبك البراءة.. فاطمأننت.

ابتسم، وهو يربِّت على كتف محمود:

بعد يومين، ستكون في ذكرين، وسنتجوَّل في الحقول، ونتحدَّث كثيرًا، وسنزور يافا التي أحببتها. شدّ حيلك يا رفيق.

عاد الشرطيّ، وأرسل نظرة فيها رجاء بأن تنتهي الزيارة.

وقف الأستاذ علي وعانق أبا رشاد، وبقي واقفًا يتابعه وهو يمضي مع الشرطيّ متهدِّل الكتفين، منحني الهامة، وكأنَّ ظهره قد انكسر.. فشعر بالأسف وهو يغادر غرفة الزيارة في سجن الخليل.

منذ يوم دفن زينب، وهي تتوقَّع انتزاع معزوزة من بين يديها.

هي تعرف كم تكره فاطمة ابنتها زينب، وأنَّها لا تحبّ الريح التي كانت تهبّ من جهتها، ولكنَّها ستنتزع الطفلة نكاية، وهي لن ترعاها كما ترعاها هي.

في الصباح، وهي تحمل معزوزة في حضنها عائدة بها من بيت ابن عم المرحوم أبو صالح، بعد أن أرضعتها كنَّته حسنًا مع ابنتها خديجة، انقبضت نفسها وهي تتوقَّع قدوم فاطمة، أو أيّ أحد من طرفها لأخذ معزوزة.

وهي تكنس حوش البيت، ومعزوزة نائمة على المصطبة، وعبد اللَّه يأكل طعام إفطاره، سمعت صوتًا يناديها فنقز قلبها:

خالة أمّ عبد اللَّه!

نصبت ظهرها، وتطلَّعت صوب البوّابة، فرأت مليحة:

تفضّلي يا بنتي.. تفضّلي.

دخلت مليحة بخطوات متردِّدة، ووقفت قبالة أمّ عبد اللَّه:

بد.. عمّتي فاطمة بدّها معزوزة يا خالة سارة!

ليش يا بنيّتي بدّها إيّاها؟ أنا عندي من ترضعها، وأنا أعتني بها، وأريحكم من همها.

احتارت مليحة ماذا تقول. لبثت صامتة بعض الوقت، ثمّ بصوت منخفض:

واللَّه يا خالة.. أنا أنقل لك كلام عمَّتي فاطمة، وهي تقول لك: ابنتنا ونحن أولى بها.

تساءلت أمّ عبد اللَّه:

هل أبو رشاد في السجن.. يعلم؟!

احتارت مليحة بماذا تجيب. فتساءلت أمّ عبد اللَّه:

يعني فاطمة كانت تكره زينب، وحوَّلت حياتها إلى نكد في نكد، فهل هي حريصة على معزوزة ابنة زينب؟! والد الطفلة في السجن، وفاطمة تريد انتزاعها.. لماذا يا مليحة؟!

ظلَّت مليحة صامتة، فهي تريد البنت، ولا ترغب في مشاجرة أمّ عبد اللَّه.

اقتربت سارة من مليحة حتى صارت أمامها وجهًا لوجه، ولأنَّهما قصيرتان، وبالطول نفسه، فقد بدا وكأنَّ وجهيهما سيتلاصقان، وكان بينهما شبه في استدارة الوجهين، وعيونهما الصغيرة، وإن كانت رموش عينيْ مليحة قصيرة وقليلة.

وهي تتأمَّل وجه مليحة، ودّت لو تقول لها بأنَّ فاطمة أفعى تبن، وأنتِ حرّضت فاطمة دائمًا على ابنتي، وكنتِ تغارين منها لأنَّها شابَّة أكثر منك، وطويلة وحلوة، وعيناها واسعتان وليستا خزقين مثل عينيك، ورموشهما طويلة تظلِّل عينيها، وتزيدهما اتِّساعا عندما تفتحهما، ولأنَّها معدّلة أكثر منك، فأنا علَّمتها الطبخ والغسل، وهي كانت تعتني بزينتها لزوجها، وترتدي ثيابًا تطرِّزها بنفسها.. وأنتِ أنتِ ولا حاجَة يا مليحة!

استغفرت الله في سرّها، وقالت لنفسها: ليست مليحة من تريد انتزاع الطفلة منها، ولكنَّها فاطمة المكيودة التي تنغّص على ابنتها حتى وهي في القبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت فاطمة تتمدَّد على مصطبة البيت، تحت العريشة، وهي تراقب منتظرة عودة مليحة التي دخلت، وهي تحمل البنت في حضنها.

انفجرت البنت باكية، فحاولت مليحة هدهدتها، ولكنَّ بكاءها ازداد حتى كادت تختنق، وهي تسعل وتعطس.

نفرت فاطمة من بكاء الطفلة:

لئيمة مثل أمّها!

ثمَّ سألت:

لماذا تأخرت؟

أجابتها مليحة، وهي ترقّص البنت بين يديها لتسكتها:

تردَّدت جدّتها كثيرًا...

بدي أحرق قلبها مثل ما حرقت قلبي، هي وبنتها التي سرقت ابني منِّي!

تساءلت مليحة:

البنت بترضع، فكيف سنتدبَّر لها من تُرضعها يا عمّتي؟

برمت فاطمة بوزها، وأرخت جسدها على كوعها، وأغمضت عينيها، وقالت متبرِّمة:

إرميها عندك، وبعدين بنشوف شو بنعمل لها.

مدَّدتها مليحة على المصطبة قرب جدّتها فاطمة، وجلست محتارة.. وضعت خدّها على يدها، وقد شعرت بالشفقة على الطفلة، وأصابتها نوبة حزن على زينب التي ماتت وهي في عزّ شبابها. قالت لنفسها: كنت أغار منها، لكنَّني لم أكن أتمنَّى لها الموت.. لا والله ما تمنَّيت لها الموت! الله يرحمنا برحمته. وربّنا يسامحك يا عمّتي فاطمة.. فالبنت، كان أفضل لها أن تبقى في رعاية جدّتها سارة. أنا، يا ربّ، بريئة ممَّا سيحدث لمعزوزة.. بريئة ليوم الدين.

بعد إدخال محمود سلمان وصاحبه محمود معمّر إلى غرفة المحكمة وجلوسهما قبالة أقاربهما، نبَّه عليهما الحاجب أن لا يتكلَّم أحد منهم أثناء الجلسة، وأن يلتزموا جميعًا الصمت.

تبادلوا النظرات؛ وحين ابتعد الحاجب، مالت الرؤوس، وتهامسوا.

دخل أبو يوسف والد حلمية، ومعه بعض أقاربه.

تأمَّلهم محمود سلمان، منقِّلًا نظره بين وجوههم، متوقِّفًا عند والد حلمية، وكأنَّما يسأله: أأنا سطوت عليكم يا أبا يوسف؟

كان في عينيه عتب وغضب وحزن. يقول محمود في نفسه، وهو يثبِّت نظره على وجه والد حلمية: أما تكفيني مصيبتي بزوجتي حتى تضعوني في الحبس، وتبهدلوا سمعتي؟ ألم تعرفوا أنَّ زينب لم تتَّهم صاحبتها، وأنَّ صالح هو من ضغط عليها لتبدِّل إفادتها وتتَّهم ابنتكم؟ أما علمتم أنَّها ماتت وهي تبكي، لأنَّها لم تجرؤ على الصراخ في وجه صالح، وأنَّها تبرَّأت ممّا حدث، وأنَّها رجتني أن أسامح حلمية، وأشهد أمام المحكمة بأنَّها بريئة؟!

دخل المحامي مبتسمًا. عرفه المتَّهمان، فهو زارهما في السجن، وطمأنهما على أنَّ البراءة مضمونة، فالدعوى ضدّهما كيديَّة، وهدفها الردّ على اتّهام ابنتهم بأنَّها دفعت زوجة محمود عمدًا، وهو ما تسبَّب في موتها.

مال على محمود سلمان، وسأله:

هل ستخبر المحكمة بأنَّ المرحومة زوجتك بدّلت أقوالها، واتَّهمت صاحبتها، تحت ضغط شقيقها صالح؟

همس محمود سلمان في أذنه:

نعم.. نعم. فحلمية بريئة، وأنا أسامحها، والمرحومة صاحبتها الروح بالروح، وليس بينهما إلّا كلّ خير، وأهلها جيراننا.. ونحن أهل.

ابتسم له المحامي بودّ:

اطمئن، أنت وصاحبك، فأنتما براءة إن شاء الله.

ارتفع صوت الحاجب: محكمة.. وأشار للحضور أن يقفوا احترامًا. أخذ القاضي مجلسه وراء الطاولة، وعلى مقربة منه جلس كاتب المحكمة.

فُتحت الجلسة.

النَفَس هو ما يسمع، والعيون معلَّقة بالقاضي، والآذان تحاول التقاط كلّ كلمة، وإن كان استيعاب ما ينطق به القاضي عسيرًا.

عندما التقى نظر مرشد بالجار أبعد الجار نظره، وأخذ يتطلَّع إلى السقف. تنهَّد مرشد وهمس، وهو يحدِّق في وجه أبي يوسف: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، حسبنا بالله ونعم الوكيل.

دعا القاضي المحامي لتقديم مرافعته، بعد أن حدّد التهمة، وأسماء المدّعين والمتّهمين.

وقف المحامي، وأجال نظره في فضاء الغرفة الفسيحة، ورفع نظره إلى القاضي، ثمَّ ركَّز نظره على وجه والدة حلمية، وسألها:

هل تستطيعين تمييز صوتيْ محمود سلمان ومحمود معمّر يا سيِّدة، لو أدار ظهريهما وتكلّما معك؟!

وهل سمعتِ محمود سليمان من قبل وهو يهمس، بحيث تستطيعين التمييز بين همسه وهمس محمود سلمان جاركم، زوج المرحومة زينب صاحبة ابنتكم، والتي كانت مثل أختها؟

صفنت أم حلمية، ثمَّ بلعثمة:

أنا لم أسمع محمود سليمان وهو يهمس.. أنا.. خمَّنت... آ...

سألها المحامي:

هناك من قال لكِ بأنَّ محمود قال لمحمود: بسرعة يا محمود..فهل عرفتِ مَنْ مِنَ المحمودين طلب من الثاني أن يسرع؟!

ظلَّت ساكتة، ونكست عينيها في الأرض، فعاد وسألها:

هل ستحلفين على القرآن أنَّك تعرَّفت على محمود ومحمود، وأنَّ أحدهما بطحك وقعد على صدرك؟!

انتفضت، وانخرطت في البكاء:

لا.. لا أحلف أبدًا.. لو على قطع رأسي يا أفندي.

طيِّب.. سأسألك: هل قعد على صدرك وبقي قاعدًا، وأنت لم تدفعيه، ولم تمزِّقي ملابسه، ولم تشلفي حطّته عن رأسه، أم أنَّه كان بلا حطّة.. كان ملثمًا يا أمّ حلمية؟

آ.. يا أفندي.. كان يلفّ حطَّته حول رأسه ووجهه.

من منهما الذي كان متلثِّمًا؟

-الإثنان يا أفندي.

تطلَّع إلى القاضي بنظرة تقول: أترى يا سيِّدي القاضي!

عاد وسألها:

قلتِ إنَّ العتمة كانت لا تمكّنك من رؤية أصبعك، فكيف ميّزت بين وجهيْ الشخصيْن الملثميْن، وتعرَّفتِ عليهما؟!

انفجرت في البكاء، وأخذت تهمس: اللَّه يجازي الذي كان السبب..

هنا سألها بسرعة:

من كان السبب يا أمّ حلمية؟!

بسرعة، وبدون تردُّد أجابت:

أخوها.. صالح هو اللّي أرغمها أن تبدِّل إفادتها، وتتَّهم إبنتي..اللَّه ينكبُه يا أفندي.

هزّ القاضي رأسه عندما التقت عيناه مع عينيْ المحامي.

جلس المحامي، وأخرج منديلًا من جيبه، وأخذ يمسح عرقه. مدّ مرشد رأسه حتى صار فمه قرب أذن المحامي، وهمس له:

يسلم لسانك، اللَّه يبارك فيك.

كان القاضي يملي كلامه بصوت غير مسموع، وكاتب المحكمة يكتب على دفتر مفتوح أمامه، فهمس ابن المحامي لوالده: براءة يا بابا.. براءة.

ابتسم له والده، ودُهش محمود سلمان وهو يسمع ما يقوله الفتى، وقبل أن يُعلن القاضي الحكم.

كفّ القاضي عن الهمس للكاتب، واعتدل في جلسته، وأرسل نظرة شملت الحضور في القاعة، ثمَّ أعلن، بعد أن قال كلامًا كثيرًا، وكان الجميع متلهِّفًا لسماع النطق بالحكم:

براءة.. لعدم ثبوت الأدلَّة.. يخلى سبيل المتّهمين فورًا.

خرج القاضي، فوقف من في القاعة. انسلّ أبو يوسف وزوجته وأقاربه، وعانق مرشد وابنه عبد الرحمن محمود الذي تفلّت من بين أيديهم، وأسرع وراء المحامي وابنه، وأمسك بالفتى من كتفه وقبَّل رأسه.

وسأله:

كيف عرفت أنَّ الحكم براءة قبل أن ينطق به القاضي.

ابتسم الفتى وقال، ووجهه كلّه يضحك:

من هزّة القلم في يد كاتب المحكمة.

وضع المحامي يده على رأس ابنه، وقال متباهيًا:

منير يحضر دائمًا معي، ويجلس في قاعة المحكمة، وينتبه لكلّ شيء.

احتضنه أبو رشاد:

أنت منير.. وعسل.. يا سبحان اللَّه.. بارك اللَّه بك يا منير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختار أبو يوسف أن يجلس في المقاعد الخلفيَّة لباص الخليل بيت جبرين، حتى لا يلتقي نظره بنظر مرشد عندما يصعد.

أخذ يتأمَّل عبر الزجاج حركة الناس، وواجهات المحال التجاريَّة. مال على زوجته:

يا أم يوسف: أشعر بالخجل من الشيخ مرشد، ومن أبو رشاد، لقد ورَّطَنا صالح.

همست أم يوسف:

عندما يصعد الشيخ مرشد وجماعته، سلّم عليهم وطيّب خاطرهم.

رأى أبو يوسف عساكر إنكليز يتمشّون في السوق، فانشغل في تأمُّل ألوانهم، وملابسهم، وأغطية رؤوسهم، واحتار: كيف جاء هؤلاء إلى بلادنا؟ وماذا يريدون

منّا؟ ولماذا هم عندنا؟ الأتراك مسلمون، وهم أخوتنا في الدين، وهؤلاء ليسوا مسلمين، ولا من دمنا ولا من لحمنا.

صعد الشيخ مرشد، ومرّ بنظره على من في الباص، وطرح السلام، ثمَّ اتّخذ لنفسه مقعدًا في المقدِّمة، وخلفه صعد محمود ومحمود معمَّر وأحمد وعبد الرحمن.

أخذ أبو يوسف يدعك جبينه، ويتنفَّس من أنفه، ثمَّ انحنى، ووضع يديه على ظهر المقعد أمامه ووارى وجهه لشعوره بالخجل والحرج.

رفع رأسه، وهمس لأمّ يوسف:

أنا ذايب من الخجل يا أمّ يوسف. لا يستحقّ الشيخ مرشد هذه البهدلة، وأبو رشاد نُكب بامرأته، و.. زدنا نحن عليه الهمّ! اللَّه يخرب بيتك يا صالح.. يا شَبّاك، يا مفسد!

غادر الباص مدينة الخليل متَّجهًا إلى بيت جبرين، فأشعل بعض المسافرين سكائرهم بعد أن اطمأنّوا أنَّهم ابتعدوا عن عيون من يلاحقون مدخّنيّ التتن العربيّ.

أبو يوسف أخرج من جيب قمبازه كيس تتنه الذي طرّزته له ابنته حلمية، وانهمك في لفّ سيكارة هيشي، ثمَّ أشعلها من قداحته الفتيلة، ونفخ الدخان ببطء.

شبابيك الباص مفتوحة، والهواء يلعب في داخله، والركاب يضجّون بالكلام والضحك، ومنهم من يراقب ما يحفّ بالطريق من الجانبين، ويتلهَّف للوصول لبيت جبرين بعد أن قضى أموره في الخليل، وصلّى في الحرم، وشرب الخروب والزبيب، وأكل الكعك بالسمسم.

قال أبو يوسف لنفسه: هذه الحرمة التي تجلس بجانبي أعقل منّي.. أيْ واللَّه، فهي نصحتني بأن لا أفعل ما فعلت: عيب.. جيراننا يا أبو يوسف يا بركة. الناس نكبوا، وتريد أن تزيد همّهم؟ لكنْ: ماذا كنت سأفعل في إفادة المرحومة زينب، والتهمة التي لبَّستها لابنتنا؟ آآآآخ: صالح فكّر هكذا: أدفِّعهم ديّة أختي، وآخذها أنا، فأنا أخوها الأكبر، وأنا أتحكَّم بأمّها وبأخي الصغير عبد اللَّه، وأورِّطهم مع أبو رشاد وحمولته، ومع محمود معمّر وأقاربه!

رمى بقايا السيكارة من الشبّاك، ومال على زوجته:

تعرفي يا أمّ يوسف: لولا أنَّنا فعلنا ما فعلنا للبستنا تهمة قتل زينب؟!

لا تنسَ أنَّ أبو رشاد رفض اتّهام ابنتنا، وقال إنَّهما صاحبتان، الروح بالروح. قالها في المحكمة.

أراد أن يبرِّر ما حصل:

وهو في الحبس.. ما يدرينا لو أنَّه لم يكن في الحبس؟ ما يدرينا يا أمّ يوسف أنَّه كان سيطلب الدّيّة لنفسه ليتزوج بها؟

زمّت شفتيها متبرِّمة، ولاذت بالصمت محتجَّة على تفكير زلمتها.

لاحت بيوت بيت جبرين، فتململ الركّاب، وبدأوا يتهيَّأون للهبوط، وكأنَّهم في سباق بسبب لهفتهم، ولأنَّ بينهم من سيواصل رحلته مشيًا على الأقدام للقرى المحيطة ببيت جبرين.

مشى موكب الشيخ مرشد على الطريق الترابيّ المتّجه إلى ذكرين. ينظر مرشد أمامه بعينيه المتعبتين صامتًا غاضبًا، محزونًا. فآخر ما خطر بباله أن يختلف مع جيرانه، وأن يزجّوا بابن أخيه في الحبس!

قال أبو يوسف لنفسه: هذا أنسب وقت لتطييب خاطر الشيخ مرشد. غذَّ السير وأقاربه حوله، فعجّلت أمّ يوسف في مشيتها، وكأنَّها تعرف ما سيقدم عليه.

شيخ مرشد.. شيخ مرشد.

رفع أبو يوسف صوته كأنَّه يستغيث.

توقَّف الشيخ مرشد، وحوله توقَّف من معه، فاندفع أبو يوسف فاردًا ذراعيه، وما إن صار بقرب الشيخ مرشد حتى احتضنه، وأمال رأسه على كتفه، فارتفع نشيجهما وهما يمرجحان جسديهما، كأنَّهما غابا زمنًا طويلًا عن بعضهما بعضًا وأمضّهما الشوق.

وما تنبَّهت أمّ يوسف على نفسها إلّا وهي تطلق زغرودة ملعلعة.

ومضى الموكب إلى ذكرين التي لاحت بيوتها أمام أنظارهم المتلهِّفة على العودة، بعد أن زالت الغمّة، وراقت النفوس.

وهو يحتضن رأس رشاد ويبوسه ويتحسَّس جسده، سأل حماته:

أين معزوزة يا عمّة سارة؟

تنهَّدت المرأة، ولم تحر جوابًا، فعاد يسألها بإلحاح، لتردّ عليه بحزن:

أخذتها جدّتها فاطمة يا ولدي، ورشاد بعد ما أخذته هرب منها ورجع عندي. البنت يا حبّة عيني رمتها في حوش الدار، وكانت تأكل وسخ الدجاج والحمام، وتتلوَّى من الجوع، وتبكي ليل نهار. جاءت نظيرة وأخبرتني، بعد ما رجت أمّك بأن تعطيها البنت لتعتني بها، ولكنَّها رفضت، وطردت نظيرة، وصرخت في وجهها: أنتِ كنتِ صاحبة بنت سارة.

انتفض واقفًا، وانطلق راكضًا، خلع الكوفيّة والعقال عن رأسه، وكعبلها في يده. شعر كأنَّه يطير من شدّة الغضب. اندفع في الأزقّة وهو لا يرى الناس في طريقه، حتى إنَّ من تعرَّفوا عليه أذهلهم مرآه على هذه الحالة، فأخذوا يدعون الله له بالسلامة، فالرجل عقله ما عاد يحتمل.

دفع البوّابة، فأخذ في الارتجاف حين سقط نظره على ابنته المرمية في الحوش. رفعها عن التراب، وأخذ يقلِّبها بين يديه، ويمسح التراب والأوساخ عن وجهها وفمها. هاله هزال جسدها، فطار صوابه، ودوّى صراخه:

فاطمة.. يا يهوديّة يا فاطمة، قتلت زينب بدعواتك المسمومة، ولعناتك، وحقدك عليها، وتنتزعين معزوزة من بين يديْ جدّتها، وترمينها لتموت! الله ينتقم منك يا فاطمة.. خطيّة زينب ومعزوزة في رقبتك ليوم الدين، خطيّة رشاد اليتيم في رقبتك.. أنا بريء منك. أنتِ لستِ أمّي يا فاطمة.. لستِ أمّي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت فاطمة كالمأخوذة، خشيت أن تقترب من ابنها الغاضب، فأخذت تفرك يديها وهي تتأمَّله.

توقَّفت ذوابة عن التسبيح، وشدّتها من طرف ثوبها، فانحنت:

قلت لك يا فاطمة: لا تحضري البنت، واتركيها عند جدّتها، ولم تردّي. ها هي تموت لأنَّك أهملتيها. البنت لم تفطمها أمّها، فهل كنتِ سترضعينها؟ سارة كانت ستطعمها، وتجد لها من قريباتها من ترضعها.

أعماك غضبك على زينب وأمّها، ونسيتِ أنَّ محمود ابنك!

همّت فاطمة أن تقترب من محمود لتهنِّئه بالخروج من الحبس، ولتهدِّئ من غضبه عليها، فجذبتها ذوابة من ثوبها بقوّة:

اتركيه في حاله، لا تقتربي منه وهو غاضب.

دخل عبد الرحمن ومعه ابنه أحمد، ولما رأى ابن عمّه الذي كان واقفًا في الحوش، وهو يحتضن معزوزة ووجهه مربدّ، وبدنه يرتجف، فهاله ما يرى:

محمود.. يا أخي. البنت بخير إن شاء الله.

رفع محمود رأسه، ومرَّر أصابعه على وجه معزوزة التي خفت نَفَسها، وانطفأ لون وجهها:

معزوزة تموت يا عبد الرحمن. قتلتها فاطمة. قتلتها هذه المرأة اللئيمة.

استدار وهو يضغط ابنته على صدره، ثمَّ خطا متثاقلًا إلى بيته، وإذ شعر بأنَّ هناك من يجذبه من طرف قمبازه، التفت، فإذا برشاد يلتصق به صامتًا.

تعال يا رشاد. تعال نجلس مع معزوزة في بيتنا. تعال يا ولدي، فلم يبق لنا أحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحق به عبد الرحمن، وركض أحمد وفتح باب بيت عمه، ودفع الباب، فتوقَّف محمود. ولما نظر داخل البيت، لم ير سوى الظلام والهجران والوحشة، فقعد على المصطبة، وانحنى على ابنته، ولصقه رشاد يتشبَّث به مذهولًا باكيًا بصمت.

أخذ يهزّ ركبتيه تحت جسدها الصغير المنطفئ، كما كانت تفعل أمّها لتهدئتها حين تبكي، وحين ترضعها.

ينحني محمود عليها ويقبِّل جبينها محاذرًا أن تسقط دموعه الساخنة على وجهها، ثمَّ يتمتم بكلام متقطِّع، ويدفن عينيه في طرف كوفيَّته، ويهزّ رأسه، ثمَّ يضمّ الطفلة إلى صدره، ويهمس لها: لا تموتي يابا.. لا تموتي يا حبيبتي. ابقي معنا أنا ورشاد أخوكِ.

تأمَّل رموش عينيها، الرموش الطويلة كرموش عينيْ أمّها. مرَّر أصابعه على جبينها وعينيها وفمها الصغير، ووجهها الناعم الأصفر.. وأجهش بنشيج عال، وهو يموّج رأسه، ويصيح بتفجُّع: يا ولداه.. يا ولداه يا معزوزة!

التصق رشاد بأبيه، وهو يبكي ويرتجف، ويتأمَّل وجه معزوزة ولا يعرف لماذا هي صامتة، وترمش بعينيها ثمَّ تغمضهما، وتئنّ أنينًا خافتًا، بعد أن كانت تضحك وهي بين يديْ أمّه، وتلعب معه، وتكاغي، وتزحف بسرعة، وتتقلَّب على ظهرها وبطنها.. وأمّه تراقبهما مبسوطة.

قال له والده:

أختك ساخنة يا رشاد.. جسمها مثل النار.

تحسَّس رشاد جبينها بأصابعه الصغيرة، وقال:

معزوزة سخنة يابا...

قال له والده:

ناولني إبريق الماء.

زحف رشاد، ثمَّ حمل الإبريق وهو يقف بيديه الإثنتين.

تناول أحمد الإبريق الفارغ، وركض خارجًا، ثمَّ عاد وقد ملأه، وناوله لعمِّه.

بلَّل أبو رشاد راحته وأخذ يمرِّرها على جبين معزوزة، وبطنها، علّه يخفِّف حرارة جسدها.

فتحت فمها الصغير، وارتجف جسدها، ثمَّ خمدت تمامًا.

ضمَّها والدها إلى صدره، وناح وهو يهتزّ كما لو أنّه درويش، مردِّدًا: لا حول ولا قوّة إلّا بالله. لماذا تركتينا يا معزوزة؟ لماذا لم تبقي معنا؟ لماذا تتركيننا أنت وأمّك يا معزوزة؟ لماذا تتركين رشادًا وحيدًا بلا أخت يا معزوزة! وأنا.. أنا يابا يا حبيبتي، كنت أفرح كلّما نظرت لعينيك لأنَّهما مثل عينيْ أمّك يا حبيبتي.

صاح، وهو يضغط معزوزة على صدره:

ماتت معزوزة يا عبد الرحمن.. ماتت معزوزة.

أختي ماتت.. أختي معزوزة ماتت.. يمّا.. يا جدّة سارة!

سمع عبد الرحمن صراخ ابنه أحمد:

معزوزة ماتت يابا...

فترك مليحة التي أمسكت بزغاليل الحمام، وفروجين، كان يهمّ بذبحها لإعداد غداء لابن عمّه.

ينوح محمود، وهو يتشبَّث بطفلته، رافضًا أن ينتزعها عبد الرحمن من بين يديه.

راحت معزوزة، لحقت بزينب يا أخي.. المصائب لا تتركني!

اذهب يا رشاد لبيت جدّتك سارة، وقل لها إنَّ معزوزة ماتت. بتعرف تروح وحدك يابا؟

قال عبد الرحمن لابنه أحمد:

اذهب بسرعة إلى بيت أمّ زينب، وقل لها: معزوزة أعطتك عمرها يا جدّة.. أيْوه؟!

أمسك أحمد بيد رشاد، ومضى به مخترقًا البوّابة من جهة المضافة، عابرًا الأزقة، بينما رشاد يبكي ويردِّد: أختي ماتت. أختي معزوزة ماتت، حتى وصلا بيت جدته.

عند البوّابة رفع صوته:

يا جدّة معزوزة ماتت.

فتحت فمها وعينيها، وهي تسمع ما قاله ابن ابنتها، وكأنَّ الكلام علق في حلقها، ثمَّ استيقظت على صراخ رشاد الذي ارتمى في حضنها:

معزوزة أختي ماتت يا جدّة.

«موتتها اللئيمات، موتن بنت بنتي دقارة بزينب وهي في قبرها. ما بدّهن حدّ يعيش من ريحتها».

دخلت، وبدّلت ثوبها بثوب خَلِق ترتديه عند عزاء أيّ عزيز حدادًا ومواساة. أمسكت بيد ابن ابنتها، وعجّلت في مشيتها، في حين تقافز أحمد مبتعدًا.

أخذت ترفع صوت بكائها كلّما مرّت برجل أو امرأة، وتتوقَّف عندما تُسأل عن سبب بكائها، وهي تكفكف دموعها بطرف غطاء رأسها:

معزوزة ماتت يا أختي، معزوزة ماتت يا أخي.. أخذتها فاطمة، وحرمتني من تربيتها.. تركتها تسبح في خراها، في حوش دارهم، وتأكل وسخ الدجاج والحمام من شدّة الجوع.. حتى ماتت. الله لا يسامحها...الله لا يسامحها.

ثمَّ تستأنف سيرها مولولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقَّفت أمّ عبد اللَّه في باب دكّان منجد الخليلي، ونظرت داخل الدكان، فرأته وراء الطاولة وهو يحني رأسه كأنَّه ينام:

حاج.. يا حاج.

رفع رأسه، وتثاءب:

أهلًا يا أمّ عبد اللَّه، أأمريني.

ما يؤمر عليك ظالم: بدّي ذراعين قماش أبيض لكفن معزوزة بنت بنتي زينب.

ماتت؟!

اليوم...

هزّ رأسه آسفًا.

مسكين أبو رشاد.. ضربتان في الرأس!

قاس بالذراع المعدنيّ ذراعين، وقصَّهما، ثمَّ لفّهما وناول اللّفّة لها.

لا تؤاخذني يا حاج منجد، بعدين بأسدّك الثمن...

اتّكلي على اللَّه يا أمّ عبد اللَّه. اللَّه يصبّر أبو رشاد.. ويصبّرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت سارة لعبد الرحمن:

لو تذهب يا ابني عند صالح، وتطلب منه أن يفتح القبر لتدفن معزوزة عند أمّها.

قال محمود متبرِّمًا:

صالح سيرفض يا عمّتي. هذا الزلمة يكرهني، ولا همّ له سوى التنكيد علي!

خرج عبد الرحمن، وانشغلت نظيره في إضرام النار، ووضع دست الماء عليها، ودخلت بإناء الغسيل في الغرفة، ووضعته على المصطبة.

همست في أذن أمّ عبد اللَّه:

يا خالة لازم نغسِّلها ونكفّنها، قبل ما يرجع عبد الرحمن...

انتزعت البنت من بين ذراعيْ محمود، ودخلت بها.. وغسلنها، ولففنها بالكفن. وعندما خرجتا، نتر محمود جسده، واندفع ودخل الغرفة، ثمَّ خرج والطفلة ملفوفة بالأبيض بين يديه، ثمَّ جلس، وأخذ يهزّها كأنَّه يهدهدها، كما كانت أمّها تفعل عندما تبكي.. لتغفو في حضنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يقل عبد الرحمن شيئًا. وقف قبالة محمود مخذولًا، فنفخ حسن من أنفه وهو يكزّ على أسنانه:

لم يرض.. ها؟

أجابه عبد الرحمن، بينما أمّ عبد الله ونظيرة وحسن يتأمَّلون ما تشي به ملامح وجهه:

قال: زينب ابنتنا، ومعزوزة ابنتكم، ولا ندفن غرباء على عظام موتانا.

قال عبد الرحمن:

أرسلت بعض أقاربنا ليحفروا لمعزوزة قبرًا في الحاكورة..حاكورتكم يا محمود.

انحنى عبد الرحمن، وحاول انتزاع الطفلة من بين يديْ والدها، ولكنَّه تشبَّث بها ونهض، ومضى صامتًا، بينما رشاد يتشبَّث بطرف قمبازه، وهو ينهنه بعد أن تعب من البكاء وثقل رأسه.

جلس العمّ مرشد على حجر ناتئ، وأحنى جسده، وأرسل نظره مراقبًا الطريق الذي سيأتون منه؛ وعندما رآهم، وقف ونفض التراب عن ثوبه، واتّكأ على عصا غليظة بات يستعملها بعد أن وهنت عظامه، وهزل بدنه وانحنى ظهره، وصار يرتجف لأقل جهد.

احتضن محمود، وناح بصوت أجشّ، وهو يرتجف:

اصمد يا ولدي.. تحمَّل يا محمود.. فالرجال للشدائد يا ابن سلمان!

أسند محمود رأسه على كتف عمّه مرشد، وارتفع نواحه. سحب حسن الطفلة من بين ذراعيه، وناولها للعمّ عبد القادر عزيزة، الذي باعد بين ساقيه وانزلها في الحفرة التي تأخذ شكل السرير، وأدار وجهها صوب القبلة، ثمَّ وضع حجرًا طويلًا فوق الحفرة، وناوله حسن حجرًا آخر ليسدّ الفراغ تمامًا، ثمَّ يهيلون التراب لمواراة الحفرة، مع ارتفاع تهليل وتكبير الأقارب الذين توافدوا بعد سماع النبأ:

هي طير من طيور الجنة يا محمود.. فلا تبكِ عليها يا محمود!

أمّا محمود، فتمنَّى لو أنَّ هذا الطائر من طيور الجنَّة بقي ليعزّيه عن رحيل زينب.. لو!

يتباهى أهل ذكرين ببيت مختارهم المبنيّ من حجارة بيضاء ناصعة، أعلى مداميكه بنّاء خليليّ بارع، لا يوجد مثله في القرى المجاورة.

البيت مسوّر بحجارة بيضاء ملوَّنة بما يشبه الحنّاء، ولا يمرّ عابر، أو يحضر ضيف، إلّا ويقف ليتأمَّل جمال وتناسق السور، ويتملَّى بهاء البيت والمصطبة العالية الفسيحة الممتدَّة أمامه، والتي يُمدّ فيها فراش يتَّسع لعشرات الضيوف في أيّام الرَّبيع، وأماسي الصيف.

يصحو أبو اسماعيل من الفجر، فيتوضَّأ ويصلّي، بينما تنهمك أمّ إسماعيل في إضرام النار في الكانون، وعند اشتعال الجمر، تحمل الكانون وتضعه في المضافة، فيركِّز أبو إسماعيل البكارج النحاسيَّة في الجمر، ويضع حفنات من القهوة النيِّئة الخضراء في المحماصة، ويبدأ في تحريك حبّات القهوة بهزّ المحماصة فوق الجمر كي لا تحترق.

رائحة القهوة وهي تنضج، ورائحة الخبز المتصاعدة من طابون أم إسماعيل، شرح نفس المختار، فشكر الله على نعمته، وابتهل له أن يبعد شرّ اليهود عن ذكرين والقرى المجاورة، والمدن التي تخوض المعارك، وكلّ فلسطين، ودعا الله أن ينصر أهالي القرى والمدن التي احتلّها اليهود. انغمَّت نفسه، وقد ورد في خاطره أنَّ اليهود احتلّوا حيفا، فالدعاء أعاده لتذكر الخطر الداهم، والذي بدا ينتشر في كلّ فلسطين.

سنوات قليلة مرّت على بناء البيت الذي أسعد المختار، ورفع من شأنه بين مخاتير القرى المجاورة، وكبّره في عيون أهل ذكرين، وأسعد أسرته، وهو يتمنَّى أن يورثه لأولاده ليعيشوا هانئين فيه، وليورثوه ويوسّعوه من بعد لأولادهم.. من يدري!

إسماعيل كبر وتزوَّج، وبعد انتهاء الحرب لا بدّ من تزويج شقيقه موسى. والبنتان!.. اللّهم أرسل لهما ابنيْ حلال مناسبين يا ربّ، لأطمئنّ عليهما في حياتي!

لقم البكرجين اللذين يفور ماؤهما الساخن بالقهوة بعد أن طحنها في المهباش، ثمَّ ركّزهما في النار ونهض، واستقبل شمس الصباح، وتمشَّى حتى البوَّابة، ثمَّ استدار وتأمَّل أمّ إسماعيل وهي تخرج من الطابون حاملة طبق الخبز.

دخل، والتقت صوب الراديو، فشعر بالرضى. فالراديو اجتذب كثيرين لسماع الأخبار من إذاعة القدس، وإذاعة لندن، ومتابعة أخبار المعارك مع اليهود، ودخول الجيوش العربية التي هبّت لنجدة أهل فلسطين.

يهزّ المختار رأسه، ويضحك: الله يجازيك يا شيخ أحمد، فأنت تقول إنَّ روتر رجل داهية موجود في لندن، وأنَّه يعرف كلّ شيء.

كيف عرفت وأنت ضرير، ولم تسافر أبعد من الخليل والقدس، واللتين لم تر بيوتهما، ولا عرفت أسواقهما، ولا جلست في مقاهيهما مع مخاتير جبل الخليل، ومخاتير ووجهاء القدس، ولا سلّمت على الحاج أمين الحسيني، وبسْت جبينه مثلي؟!

نبَّهه من سَرَحانه صوت طرْق على البوّابة، فأسرع وسحبها. وإذ رأى وجهيْ الأستاذ خليل وأبي رشاد تهلَّل وجهه، وفتحها على آخرها، ومدَّ راحته ووضع يد

الأستاذ علي طيّ راحته وهزّها بحرارة، ثمَّ صافح يد أبي رشاد:

يا مرحبًا.. يا مرحبًا. صباح منوّر بكما والله!

أفلت يد أبي رشاد، ودفعه بودّ:

أدخل، فالبيت بيتك، سأتكلَّم كلمتين مع الأستاذ علي.

عندما ابتعد أبورشاد، همس المختار وهو يتطاول على قدميه ليبلغ أذن الأستاذ، رغم عدم وجود من يسمعه:

يا أستاذ علي، نحن أحضرنا الراديو لنعرف أخبار الدنيا، وأنت عقلك متنوّر، ونحن بعيد عنك جهلاء. ما هو روتر يا أستاذ؟

ابتسم الأستاذ، وهو يحدِّق في عينيْ المختار الذي تباعدت شفتاه، وارتخى فكّه الأسفل، وبدا كأنَّه يتهيَّأ لأكل الكلام:

روتر يا مختار هي وكالة أنباء في لندن، ولها مراسلون يجمعون الأخبار في بلاد العالم، ويرسلونها لرئاستهم في لندن، والإذاعات تبثّ تلك الأخبار، يعني تروّجها في العالم، وتنقلها إذاعات كثيرة.. بعض الأخبار صحيحة، وبعضها يكبَّر، ويزوَّر.

ضحك المختار، وضرب كفًّا بكفّ:

يعني مش زلمة واحد داهية قاعد في لندن اسمه روتر!

انفجر الأستاذ علي ضاحكًا، فأشار له المختار أن يخفض صوته، واقتاده من يده، وهمس له:

لن تخبر أحدًا أنَّني سألتك، حتى لا يقولوا عنِّي: المختار غشيم، ولا يفهم في السياسة!

أومأ الأستاذ برأسه، وابتسامته تفيض على محياه.

ولا صاحبك أبو رشاد!

ولا صاحبي يا مختار.

تساءل الأستاذ علي: إذا كان الراديو قد دخل في القرية قبل أيّام قليلة، والناس لا يعرفون رويتر، ويحسبونها رجلًا داهية يقيم في لندن، فكيف سيعرف ناسنا خبايا ما يدبّر لهم ولفلسطين؟!

تنبَّه على صوت المختار:

تفضَّل يا أستاذ علي.. تفضَّل.

تفطَّن المختار إلى عدم سفر الأستاذ إلى زكريّا كدأبه في كلّ أسبوع، ولكنَّه تجنَّب الاستفسار منه عن سبب بقائه في ذكرين إلى هذا الوقت.

زارتنا البركة يا أستاذ...

التفت إلى أبي رشاد:

نرحِّب بك يا أستاذ علي وأنت صرت منّا، وأبو رشاد صاحب البيت، وهو عندي مثل إسماعيل ابني.

ابتسم الأستاذ، وهو بضع يده على صدره.

صبّ المختار القهوة، وناوله فنجانًا، وقدَّم فنجانًا لأبي رشاد، فارتشفا ما في الفنجانين، فثنّى لهما، فارتشفا من جديد، وأثنيا على قهوة المختار، ففاض الرضى على وجهه المدوّر السمين.

قال الأستاذ:

يا مختار: أنا بتُّ هذه الليلة في ذكرين، وهي آخر ليلة لي في بلدكم...

تريَّث قليلًا، ثمَّ استأنف كلامه:

أمس الخميس، ودَّعت تلاميذ مدرسة ذكرين، فأنا علمت أنَّ وحدة من الجيش المصري ستحضر خلال يومين، وستتَّخذ المدرسة مقرًّا لها، وهذا ما نقله لي صاحبي أبو رشاد عن لسانكم يا مختار.

من عادة المختار أن يصغي للمتحدِّث حتى يفرغ من كلامه، ولذا تعلَّق نظره بوجه الأستاذ.

مدرسة ذكرين صار فيها صف رابع، والعيب أنَّني المدرِّس الوحيد، والمدرسة تحتاج لأستاذين آخرين، وأقلّ شيء لواحد حتى نفيد التلاميذ، ونعلِّمهم جيِّدًا.

المختار يهزّ رأسه مؤمِّنا على كلام الأستاذ، بينما أبو رشاد ينقل نظره بين وجهيهما.

لمَّا سكت الأستاذ، تنحنح المختار، ثمَّ ربَّت على ركبة الأستاذ:

أنا كمختار لذكرين، نفسي أرى مدرسة قريتنا وفيها للصفّ السابع، ويأتي أبناء القرى المجاورة للتعلُّم في مدرستنا.. ولكنْ، ما باليد حيلة، فالحكومة هي التي تقرِّر.

صمتَ، وتلاشت ملامح الرضى عن وجهه:

لو عندنا للصف السابع، ما اضطرّ مصلح سعد أن يذهب كلّ يوم لمدرسة التلّ ليكمِّل تعليمه في الصف السابع.

نكت الجمر بالملقط، ثمَّ رفع رأسه:

مصلح صحّته على قدّه. جسمه ضعيف، ومع ذلك، فهو يتحامل على بدنه ويذهب إلى التلّ يوميًّا ويعود من هناك مشيًا. والده مرَّات يرافقه، ويحمله على ظهره ليوصله لمدرسة التلّ.. تصوّر يا أستاذ!

تأمَّل وجه الأستاذ:

الناس في قريتنا يحبُّون أن يعلِّموا أولادهم، ولكنَّهم لا يقدرون على دفع تكاليف إرسالهم للقدس لإكمال تعليمهم.

أشار المختار لأبي رشاد:

مصلح أمّه ابنة عمّ صاحبك أبو رشاد.

ثمَّ واصل:

هل سيقدر عبد الفتاح سعد، والد مصلح، على إرساله ليتعلم في الكليّة في القدس؟ أتمنَّى، حتى يعود لنا أستاذًا يعلِّم أبناء ذكرين.. ولكنْ!

انتظر الأستاذ علي حتى يصمت المختار:

يا مختار: فلننتظر حتى تنتهي الحرب، وبعدها إن شاء اللَّه نرى ما نفعله للمدرسة. أنا أقترح أن نطلب تعيين مصلح سعد أستاذًا في المدرسة، فهو سينهي الصفّ السّابع هذا العام.

هزّ المختار رأسه، ثمَّ تساءل:

متى ستنتهي هذه الحرب، ويحلّ اليهود عنّا، ويتركنا الإنكليز في حالنا يا أستاذ؟!

لم يقل الأستاذ شيئًا.. فقال المختار:

العلم عند اللَّه. نحن ما بيدنا شيء.

قال الأستاذ:

بيدنا أن نقاتل يا مختار، ونعتمد على أنفسنا، فالجيوش العربيَّة لن تنصرنا على اليهود والإنكليز.

صبَّ القهوة من جديد، وتطلَّع إلى وجه الأستاذ منتظرًا منه أن يقول شيئًا:

حضرت يا مختار لأودِّعك، فلا بدّ أن أغادر المدرسة، لأنَّني سأنضمّ للمدافعين عن زكريا.. وإن شاء اللَّه نجتمع قريبًا، ونرى مدرسة ذكرين وقد صار فيها صفّ سابع، ومدرِّس منها يعلِّم أولادها.

يا ربّ.. يا أستاذ.

قال المختار، ونهض لمّا رأى الأستاذ ينهض، ورافق ضيفيه حتى البوّابة، ثمَّ وقف وعانق الأستاذ، وحمّله السلامات لأصحابه في زكريا.

فأدار الأستاذ ظهره، وهو يردِّد:

تصل السلامات يا مختار.. تصل، ونراك بخير.

عندما غابا عن نظر المختار، داهم حزن، قبض نفسه:

اللَّهم ارحمنا ممّا هو آت.. يا رب.

أغلق البوّابة ببطء وهو يفكِّر بما تحمله آتيات الأيّام، وسار الأستاذ علي صامتًا وبجواره أبو رشاد الذي رافقه حتى غادر ذكرين، وابتعد على الطريق، وتوارى عن نظره، وتركه حائرًا وحزينًا ووحيدًا.

في اليوم التالي لوصول الجنود، ومبيتهم في المدرسة، وبينما كانت الشمس ترتفع لتتوسَّط السماء، أقبلت سيّارة جيب من بعيد، تتلوّى على طريق بيت جبرين ذكرين، فوقف من رأوها، وظلَّلوا عيونهم، بينما الغبار يتصاعد خلفها، وينتشر في الفضاء.

توقَّفت سيارة الجيب، وخرج منها ضابط مهيب، وخلفه قفز عسكريَّان يحملان بندقيَّتين، وأخذ يتأمَّل المدرسة والجنود المصريِّين الذين اصطّفوا في طابور، وارتفعت أصواتهم مردِّدة:

يعيش فاروق ملك مصر والسودان

يا يعيش!

وأدّوا له التحيَّة، بينما هو يمرّ أمامهم، ويتأمَّلهم صامتًا.

اقترب منه الشاويش حسن، وصاح:

كلّه تمام يا أفندم.

فهزّ الرائد رأسه بلا حماسة، وبنظرة شاردة متعبة.

دخل فناء المدرسة، فتبعه الجنود، وتوزَّعوا حول البناء، وانهمك أحدهم في إعداد الشاي للضابط.

جلس الضابط على الكرسيّ وراء الطاولة الوحيدة، وتأمَّل أغراض الجنود وفراشهم وبنادقهم، وصناديق ذخيرتهم، وتموينهم.. المكوَّمة بفوضى.

أمامه يقف الشاويش حسن:

يا شاويش.. أرسل من يخبر المختار بالحضور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأمَّله الرائد، وهو يدخل بقامته القصيرة، وبعينيه الذكيتين، فمدّ يده له، ووقف نصف وقفة.

أشار له أن يجلس، ولكنَّ المختار لم يجد ما يجلس عليه، فبقي واقفًا، منتظرًا أن يسمع من الرائد ما يريد إبلاغه به.

قال الضابط:

أنا الرائد لبيب، قائد القوَّة الموجودة في بيت جبرين، و هؤلاء الجنود أحضرناهم إلى قريتكم لِ.. لِيسا.. هموا في حمايتكم، ويدرِّبوكم على ضرب النار.

أصغى المختار لما يقوله الضابط، وودّ لو يسأله عن هذه القوّة التي لا تحمل سوى رشاش برنّ واحد، ويتسلَّح جنودها بالبنادق، وليس معهم ولا مدفع، وعددهم خمسة عشر عسكريًّا: أبهؤلاء تريد أن تحمي قريتنا، والقرى الصغيرة المتناثرة حولها؟!

تردَّد المختار، ولكنَّه اندفع في الإفصاح عن قلقه من ضعف ما وصفها الرائد بالقوّة:

يا حضرة الرائد: أهؤلاء الجنود لحماية قريتنا وقرى: رعنا، وكدنا؟

فهم الرائد أنّ المختار غير واثق من قدرة هذا العدد من الجنود بسلاحهم المتواضع على حماية ذكرين وما حولها.

سأله الرائد:

كم عدد سكان القريتين؟

تفكَّر المختار، ثمَّ قال:

يعني: واحدة حوالى مائتين، والثانية ثلاثمائة تقريبًا.

نهض الرائد، وتساءل:

من غير المعقول أن نضع وحدة من جنودنا لتحمي قرى سكّانها بالكاد ثلاثمائة نفر، وإلّا سنحتاج لألوف العساكر لننشرهم في عشرات القرى القليلة السكّان.

ثمَّ قال للمختار:

أريدك أن تختار رجلين يكونان مسؤولين عن المسلَّحين في قريتكم. متى ستخبرني يا مختار؟

دقّ المختار على صدره:

الآن أخبر حضرتك. قلت لي تريد اثنين فقط؟! وقبل أن يسمع جواب الرائد، قال له: أبو فيصل زيغان فهو شاب شجاع ومحترم؛ وأبو رشاد، وهو شارك في الثورة مع قائد منطقة الخليل أبو زياد الشلف.

أرسل لهما يا مختار لأتعرَّف بهما، وضروريّ أن يذهبا إلى الخليل ويتصوَّرا لنزوِّدهما بهويّات من الجيش المصريّ.

ثمَّ سأله الرائد لبيب:

كم مسلَّح عندكم يا مختار؟

يعني.. يمكن القول: خمسة وستون مسلَّحًا، ونصفهم بنادقهم عتيقة، وكلّهم معهم رصاص قليل، وهم غير مدرَّبين على ضرب النار، فهم اشتروا بنادقهم بعد أن سمعوا عن الحرب في الساحل، والجليل، والقدس.

وكي يوضّح الأمر للضابط الكبير أضاف:

بريطانيا كانت تعدم من تجد في بيته فَشَكة فارغة يا سيدي، فمن أين لنا أن نتدرَّب، إلّا من صعدوا للجبال مع الثوار وقاتلوا الإنكليز!

تأمَّل الرائد لبيب وجه المختار، وأخذ يردِّد:

الإنكليز.. الإنكليز!

ثمَّ وقف، فاندفع الجنود خلفه وهو يتوجَّه إلى السيّارة. وقبل أن يتوارى في جوفها، استدار ووجّه كلامه للمختار:

سأرجع بعد يومين لأزوركم يا عمدة.

رفع المختار يده إلى جبينه، وانطلقت السيّارة، فتفرَّق الجنود، وعادوا للاسترخاء، بينما تصاعدت زوبعة من الغبار خلف السيّارة العسكريَّة الصغيرة التي اندفعت

على الطريق الترابيّ، وقفل المختار عائدًا إلى بيته، وحوله بعض رجال ذكرين.

مات حربٌ الميتة التي اشتهاها!

مات ممدَّدًا على ظهره، مفتوح العينين على السماء فوق تراب حقله.

مات بعد أن حصد محصوله من القمح والشعير، وأكل وعائلته أوَّل ثمار تين كرمه، وقطوف عنب دواليه، وبعد أن زوَّج ابنه صالح، وفرح بحفيده علي الذي كبر تحت نظره، وصار صديقًا لأبي رشاد رغم أنَّه يصغره بسنوات.

مات كما تمنَّى واشتهى.

ألم تكن، يا حرب يا أخي، تتمنَّى العودة إلى ذكرين، وحراثة أرضك، ورؤية موارس القمح والشعير صفراء ناضجة، وأنت تنحني وتحصد بمنجلك، وحولك الأهل والجيران؟

ولكنَّك يا صاحبي.. لم تخبرني بأنَّك سترحل قبلي، فلماذا فعلتها وتركتني؟

أكنت تتوقَّع أنَّ حربًا ستشتعل. وتقترب من ذكرين، والقرى المجاورة يا حرب؟

بتنا نسمع صوت الطخّ يا صاحبي من حولنا، ونحن لا ندري ماذا نفعل، وماذا سيحدث لنا؟

قعد مرشد على الأرض. أرخى جسده من بين أيدي عبد الرحمن ومحمود وأحمد سلمان، وهوى كأنَّه كيس فارغ، فجسده لم يعد هو، فلا همّة في بدنه، ولا قوّة في عظامه، وكلّ شيء فيه يرتجف، وازداد ارتجافًا من شدّة حزنه على أخ روحه وعمره.

أقارب حرب ينحنون ويبوسون رأس العمّ مرشد، وكأنَّه هو الذي يجب أن يُعزّى لا همّ.

سمع صالح ابن حرب وهو يرفع صوته لحافريِّ القبر:

وسّعوا المكان حتى يتَّسع للأصحاب والأحبّة، فالعمّ مرشد سيقيم مع صاحبه في هذا المكان...

هم يعرفون وصيّة حرب ومرشد: ادفنونا سوا، فنحن نريد أن نواصل رحلة حياتنا معًا، فوق التراب وتحته.

تمتم مرشد:

شبعنا من الدنيا يا حرب، ولكنَّني كنت أتمنَّى أن أسبقك يا صاحبي! فاجأتني بموتك في أرضك، فوق الأرض تحت السماء. ما أكوس هذه الميتة يا حرب. الله راض عنك يا حرب، فأنت لم تمرض، ولم تتبهدل، ولا أتعبت أهلك.. بخاطركم.. ورحلت يا صاحبي. اللَّهم اطعمني مثل ميتتك يا حرب. اللَّهم وسّع قبر حرب واجمعنا معًا يا ألله..

أمسكوا بيديه، وساعدوه على النهوض، فبدا لهم وكأنَّ بدنه صار خفّ الريشة، وكأنَّه لم يكن مضرب المثل: مرشد مثل الجمل بدنًا وغضبًا، ويده إن لطمت وجهًا ستسقط صاحبه، فيهوي على الأرض كجذع منخور.

قال، كأنّما يردّ على ما يفكّرون فيه:

خلاص.. مش معقول نأخذ دورنا ودور غيرنا.

تشبَّث بأيديهم، ثمَّ سألهم وهو يتوقَّف عن المشي:

من يعتني بإعداد الغداء يا شباب؟

ردّ محمود:

كلّ أهلنا يطبخون، هم ونساؤهم، الغداء سيكون جاهزًا في وقته يابا مرشد.

استروا وجهنا.. فهذا حرب يا شباب!

طمأنه محمود:

ذبحنا عجلًا وخروفين. اطمئن يابا مرشد.

أحنى مرشد جسده، وركَّز نظره على القبر:

مع السلامة يا حرب يا صاحبي. اللِّقاء يوم اللِّقاء.

طيلة الوقت لم يبكِ، ولكنَّه انفجر مجهشًا ببكاء يرجّ بدنه، حتى كاد يهوي من بين أيديهم على الأرض عندما رآهم يدسّون حرب في القبر، فتشبَّثوا به، ورفعوه بين أيديهم، ومضوا مبتعدين عن المقبرة.

خلاص.. رحت يا حرب، وكأنَّك لم تكن في الدنيا؟ أخِسْ على الدنيا يا حرب. أخِسْ على من ينغرّ بها يا صاحبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد موت حرب صمت مرشد، واعتكف في كرْمه يصلِّي، ويدعو اللَّه أن يلطف بحرب، ويجعل الجنّة مأواه، وأن يعجِّل برحيله ليلتقي به في مكان خير وأبقى من هذه الدنيا.

اصطفّ الجنود في طابور وهم يتأبَّطون بنادقهم، وارتفعت أصواتهم بالهتاف وراء الشاويش حسن، الذي وقف أمام الطابور:

يعيش فاروق ملك مصر والسودان

يا يعيش!

بين الجنود خمسة سود اللّون، سمعهم أهالي ذكرين يتحدَّثون مع بعضهم بعضًا بكلام لم يفهموه. وعندما سأل أبو رشاد الشاويش حسن عن لهجتهم غير المفهومة، أخبره بأنَّهم من السودان وليسوا مصريين.

مشى الجنود بانتظام، وداروا حول البيادر، وتوقَّفوا في ظلّ الجامع، وتأمَّلوا بيوت القرية وحقولها صامتين، ثمَّ صاح بهم الشاويش حسن، فانطلقوا عائدين إلى المدرسة، ووراءهم مشى الأولاد مقلّدينهم بحذر.

قال الشاويش حسن لأبي رشاد:

لازم نعلِّم الرجال المشي في طابور، وبعدين الضرب بالنار، والزحف على الأرض، و...

تأمَّل أبو رشاد وجه الشاويش حسن، فقدَّر أن عمره لا يزيد عن العشرين كثيرًا، ولون بشرته أسمر قمحيّ، وأنَّه يميل للمزاح مع العساكر، رغم أنَّه يبدو جادًّا عندما يأمرهم بالاصطفاف في طابور.

اقترح عليه أن يدورا معًا حول القرية، ليعرِّفه بطرقها، وبالقرى المجاورة.

وهو يتأمَّل بيوت القرية، قال:

مثل بيوتنا في الصعيد يا أبو رشاد.

أضاف محمود:

لا كهرباء، ولا ماء، و.. ننام مع بهائمنا.

وكأنَّما يكمِّلان كلامًا بدآه من قبل، قال الشاويش حسن:

الحال من بعضه!

اقترح أبو رشاد أن يزورا كرم العمّ مرشد، فاتَّجها إليه، وإذ عبرا الباب، أخبره أبو رشاد:

هذا عمّي مرشد، وهو بمقام أبي، وأنا أناديه يابا مرشد، أمّا والدي فمات من سنين.

ارتفع صوت محمود:

يابا مرشد.

وانحنى، فرآه يستند بظهره إلى شجرة تين. قال في نفسه: بعد موت العمّ حرب تهدَّم عمّي مرشد، وخارت قوّته، ولم تبق لديه رغبة في الحياة، حتى إنَّه ما عاد يعتني بأشجاره التي عاش معها، ويعرفها غصنًا غصنًا.

معي ضيف يابا مرشد.

استند مرشد، وفتح عينيه:

يا مرحبًا بك وبالضيف يا ولدي.

انحنى الشاويش حسن، ومدّ يده ، فأمسك بها مرشد، وإذ ميّز ملابسه العسكريَّة، قال وهو يهزّ اليد:

أهلًا بأهل مصر. لا تؤاخذني يا ولدي، فأنا أتعب من الوقوف.

ثمَّ التفت إلى محمود:

التين والعنب طاح يا محمود، فاطعم ضيفك تينًا وعنبًا، وخذوا للجنود ليأكلوا. أطعموهم من خير أرضنا، فهم بعيدون عن أهلهم.

ابتسم الشاويش حسن، وهو يسحب يده:

بارك اللَّه بك يا جدّي.

مضى الشاويش حسن مع محمود يجوسان بين الأشجار، ويلتقطان حبّات من التين المختلفة اللّون والمذاق، وينحنيان على دوالي العنب، وينتزعان خصلًا من قطوفها الكبيرة خضراء وسوداء.

اقترح محمود:

رأيي أن تحضر عسكريِّين ليأخذا لزملائهما تينًا وعنبًا.

تساءل الشاويش حسن:

ولكن.. أقصد.. يعني بدون فلوس؟

أجابه محمود ضاحكًا:

الحمد اللَّه أنَّ أبي مرشد لم يسمعك، فهو لا يبيع من كرمه، وكلّ ما ينتجه نأكله، ويوزِّعه على القريبات المقطوعات، ونطبخ من العنب عنبيَّة، ونجفِّف من التين قطينًا، وهذا أيضًا يوزّع منه نصيب للأهل والجيران، والقريبات، ويأكل منه الضيوف، وأنتم ضيوف وأهل يا شاويش حسن.

وهما يخرجان، سأله محمود:

لماذا تهتفون لفاروق ملك مصر والسودان؟

توقَّف الشاويش حسن عن المشي، وردّ على سؤال محمود باندهاش:

لأنَّه ملكنا. ملك مصر والسودان!

عندئذ قال له محمود:

ولكنَّه ليس ملكنا، ففي فلسطين يهتف الناس للحاجّ أمين الحسيني.

ثمَّ سأله:

هل سمعت بالحاجّ أمين الحسيني من قبل يا شاويش حسن؟

نفض رأسه، ثمَّ تساءل:

ولكنَّه ليس ملكًا، أليس كذلك؟!

ابتسم محمود:
عند الفلسطينيِّين هو أهم من الملك، فهو المفتي والزعيم.
تساءل حسن:
يعني رأيك أنَّ رجال القرية لا يهتفون للملك فاروق في الطابور؟
أيْوه: حتى لا تحدث مشاكل، فالناس عندنا يقدِّسون الحاجّ أمين، ولا يهتفون لغيره!
واصلا سيرهما صامتين، وبصوت خافت قال حسن:
لازم أخبر الرائد لبيب.. واسمع منه!

لم تعتب عليه عندما لم يتنبَّه لها، وهو يمرّ غير بعيد عنها، عندما خرجت من دكّان محمّد سعد، وباتت قبالته تمامًا، بينما هو يمسك بيد ابنه رشاد ويمضي به إلى بيت جدّته سارة.

اللَّه يجبر صوابك يا بنيّ، فخسارتك لزوجتك الشابّة زينب ثقيلة عليك. أنا أعرف أنَّك كنت تحبّ ابنة قريبكم، ولكنَّ زينب أنستك إيَّاها بشطارتها وخفّة دمها.

توقَّفت، وتأمَّلته، وهو يدخل من باب بيت حماته جارًّا ابنه بجانبه.

خسرت امرأتك، وابنتك.. اللَّه يجبر صوابك يا محمود، ويعينك على حملك، فكيف ستربّي ابنك اليتيم؟!

وجدت نفسها تتَّجه إلى بيت سارة، فهي لم تزرها سوى مرَّة واحدة بعد موت زينب، ثمَّ قالت لنفسها: لا.. لا يجوز أن أحكي مع محمود عن الزواج أمام أم زوجته. لا.. واللَّه لا يجوز، فهذا سيغضبها منِّي.

فوجئت به يخرج، ويأخذ طريقه باتّجاهها حيث تقف.

رفع رأسه فلمحها، فاتَّجه إليها مباشرة، ومدَّ يده ولقف يدها وباسها، وهو يتنهَّد:

سلامتك يمّا من التنهُّد. اللَّه يقف معك يا ولدي، ويخفِّف ألمك يا محمود الغالي.

وارب رأسه، وبدأت عيناه تمتلئان بالدموع:

انكسرت يمّا دلال. انكسر ظهري، راحت زينب، ولحقتها معزوزة، وأنا دايخ ممَّا جرى. لا أدري لماذا زينب من دون النسوان!

وضعت يدها على كتفه المنحني:

إرادة اللَّه يا بنيّ لا راد لها يا محمود.

تردَّدت في مصارحته بما يجول في نفسها، ثمَّ اتَّكلت على اللَّه، وقرَّرت أن تنصحه:

اسمع يا محمود: مضت حوالى سنة على رحيل زينب.. وأنت عندك ولد، وتحتاج من يعتني بك وبه.

حدَّق في وجهها بذهول:

تنصحيني بالزواج من امرأة غير زينب يمّا دلال؟!

مرّ قربهما أولاد، تأمَّلوا الحاجّة دلال، وحيّوها، ولكنَّها لم ترد عليهم، فهي مستغرقة في الحديث مع محمود:

الحيّ خير من الميّت يا ولدي.

سألها متفجِّعًا:

يعني زينب ماتت يمّا دلال؟!

بصوت حزين:

أيْوه ماتت يا محمود. لا أحد يردّ الموت يا ولدي.

بطرف كوفيّته البيضاء المتَسخة، وهذا ما أحزن الحاجّة دلال، فلو أنّ زينب لم تمت لما كانت كوفيّة محمود متّسخة!.. مسح دموع عينيه، وشعر بالإحراج من أن يراه أحد من أهل القرية، وهو يبكي.

خطا ببطء، وخطت هي معه، وسارا ساكتين. التفت إليها، وتوقَّف:

يمّا دلال، لا تفتحي الموضوع مع أمّي، لأنَّها تريدني أن أتزوَّج، وهي تقول لأقاربي: أنا أدفع المهر. أتعرفين لماذا يا أمّي دلال؟!

هي تعرف.. تعرف بأنَّ والدته كرهت زينب، ونكّدت عليها وعليه، وشمتت بموتها، فقد طبخت (الجريشة) ووزَّعتها على الجيران بعد يومين من موت زينب، وادَّعت أنَّها عن روح شقيقها أحمد!

قال:

لن أغفر لأمّي ما فعلته.

سألته الحاجّة دلال:

وهل ستبقى بدون حرمة تدير بالها عليك وعلى ابنك يا ولدي؟!

أنا وعدت زينب يمّا دلال، وعدتها أن لا أتزوَّج غيرها لو ماتت قبلي، وهي عاهدتني أن لا تتزوَّج بعدي لو متّ قبلها.

تنهَّدت تنهّدة عالية:

يا محمود يمّا: لو لا سمح اللَّه متّ أنت قبلها، أكانت ستبقى بدون زواج؟ صالح سيزوجها بعد انتهاء فترة العدّة بيوم واحد يا محمود، رغم أنفها وأنف أمّها وأخيها الصغير.

ظلّ ساكتًا، يمشي مقوَّس الظهر، مائل الكتف الأيمن، مترنِّحًا، يوشك أن يسقط على وجهه.

شدّ حيلك يمّا. شدّ حيلك، فالرجال يُعرفون بالشدائد يا ولدي.

اتّخذت مسارًا آخر، بينما واصل هو دون أن يعرف إلى أين يتَّجه، حتى وجد نفسه على البيادر، ثمَّ مبتعدًا خارج القرية.

وقف أحمد في بوّابة كرْم جدّه مرشد، ونادى:

يا عمّ محموووود.

رفع محمود رأسه، وأسند ظهره لساق شجرة التين، وحدَّد نظره صوب البوّابة، فرأى الولد يقفز وينحني وينقل نظره بين الأشجار.

ناداه:

أنا هنا يا أحمد.

التفت أحمد خلفه، وصاح:

يا عمّ عبد القادر: عمّي محمود موجود.

دُهش محمود عندما رأى عبد القادر عزيزة. ظهر الرجل بلفَّته الصفراء وعباءته وبقمباز نظيف، فتساءل محمود: ماذا يريد يا ترى؟ لم يجئ به إلّا ما هو ملحّ!

ابتسم له عبد القادر واحتضنه، فاحتضنه هو أيضًا، محاولًا تخمين سبب حميميَّة هذا العمّ الصارم في تعامله مع أقاربه.

فردّ عباءته وأشار له:

أقعد يا محمود، فعندي كلمتان معك.

قعد محمود وأرسل نظره بين الأشجار ليستبين مكان عمّه مرشد، فرآه في آخر الكرْم، من جهة بيت أخيه أحمد.

يا أهلًا يا عمّ عبد القادر يا أهلًا. هل تريد أبوي مرشد.. لأناديه لك؟

ابتسم العمّ عبد القادر، وربَّت على ركبته:

جئت لأراك، وأنا واللَّه مشتاق لعمّي مرشد. من زمان ما شفته، لكنْ لي حاجة معك.

تعلَّق نظر محمود بوجهه، منتظرًا سماع ما يريده منه، هو الذي لا يطلب حاجة من أحد.

ربَّت على ركبته مرَّة أخرى:

يا ابن سلمان: أبوك كان شيخنا، ورجل حمولتنا، وأنت سبع مثله. أنت نُكبت بموت زينب ومعزوزة، وأنت اليوم صرت مسؤولًا عن المسلَّحين وبارودتك يونانيَّة مش نافعة، يعني لا يليق أن تحملها وغيرك من أهل البلد يحمل بارودة كويّسة.

التفتّ إلى أحمد.

ولد يا أحمد.. يا شاطر: طرْ إلى بيتنا، وقل لعبد الفتاح يحضر الغرض ويأتي بسرعة. يلا طرْ زيّ الغزال.

طار أحمد، ولم يفصح عبد القادر عن الغرض الذي سيحضره ابنه. نهض وهو يرفع صوته:

يا عمّ مرشد.

وتوارى بين الأشجار، بينما محمود يتابعه بنظره، وهو في حيرة ممّا ينتويه.

عاد وظهر ماشيًا ببطء مع العمّ مرشد، ممسكًا بيده. تأمَّلهما محمود، وقارن بين ما يظهر من قوّة على عبد القادر، ومن ضعف على العمّ مرشد، وقدّر أنَّ العمر بينهما لا يزيد عن خمس سنوات.

ارتفع صوت عمّه مرشد:

نمت يا محمود!. مليح أنَّك نمت، فأنت تعبان يا ولدي.

أمسك بيد عمّه مرشد وباسها:

واللَّه تعبان يابا مرشد.

توقَّف مرشد، وسأل عبد القادر:

ما قلت لي عن سبب زيارتك لنا يا قرابة، مع إنِّي مشتاق لك واللَّه، فأنت مثل النحلة دائمًا تشتغل، لا تكلّ ولا تملّ.. اللَّه يعطيك العافية.

ابتسم عبد القادر، وظلّ ممسكًا بيد مرشد حتى جلس على التراب، رافضًا الجلوس على العباءة:

بعد قليل ستعرف يا عمّ مرشد.

لمَّا رأى ابنه عبد الفتاح يدخل حاملًا شيئًا طويلًا ملفوفًا، انتظر حتى وصل، فتناول الغرض منه:

أشار لابنه أن يجلس بعد أن انحنى وباس يد العجوز مرشد، الذي بدا محتارًا مما يرى.

قال وهو يفكّ الغرض مبتسمًا:

يا عمّ مرشد هذه البارودة الألمانيَّة اشتريتها، وهي هدية منِّي لأبي رشاد. الحمائل تشتري البواريد، ومحمود مسؤولٌ باردوته مش نافعة.. عيب. قلت لنفسي: لا بدّ أن أشتري لابن سلمان بارودة كويّسة، ومعها كمِّيَّة رصاص كافية.

انحنى مرشد، واحتضنه:

طول عمرك تعرف الأصول، ولا تقصِّر مع الحامولة.

مدّ البارودة لمحمود:

هذه لك حلال زلال. كنت سأساعدك عندما تنوي الزواج، فأنت نُكبت، ونحن أهلك ما بنتخلّى عندك، وهذا حصّتي في زواجك، وإن شاء اللَّه تنتهي الحرب، ونزوِّجك ونفرح بك يا ابن سلمان.

قلب محمود البارودة منبهرًا:

ألمانيَّة أصليَّة، ومعها كيس رصاص، ينقصني الجناد...

ابتسم عبد القادر:

أوصيت لك على واحد من الخليل.. بكرة، أو بعده، سيصلك.

قال مرشد:

والله يا قرابة ما معنا نشتري بارودة. أنقذتنا من الحَرَج. رأيي تأخذ بارودة محمود اليونانيَّة لعبد الفتاح.

بارودة أبو رشاد أعطوها لعبد الرحمن. عبد الفتاح صغير، ولا عتب عليه.

نهض، فحاول مرشد النهوض لوداعه، لكنَّه انحنى وباس رأسه، وثبّته بالضغط على كتفه حتى لا يتعبه في النهوض.

حين اختفى من البوّابة، أدار مرشد وجهه وقال لابن أخيه:

يا محمود: يشنِّع أقاربنا على قريبنا بأنَّه بخيل، وفي غيابه يلقِّبونه باسم أمّه عزيزة التي ربّته بعد موت والده، وعلّمته الاعتماد على نفسه. ربَّته أمّه أحسن تربية. هو حقّاني، لا يحبّ العوَجْ، وحياته دغري، وعندما تدخل حمولتنا في مأزق تجده وقد وقف معها، ولكنَّه لا يحبّ أن يضحك أحد عليه ويستغله. أشهد أنَّك زلمة ابن أصول، ووفيّ لأهلك يا عبد القادر.. يا أصيل.

حمل محمود البارودة، وترك بارودته اليونانيَّة مرميّة على الأرض.

اتَّجه إلى البوّابة، فعرف مرشد أنَّه يشعر بالزهو، وقد امتلك بارودة ألمانيَّة وكمّيّة من الرصاص، وأنَّه لا يقلّ عن أيّ مسلّح في البلد، فدعا مرشد الله أن يحميه، ويحمي كلّ أهل ذكرين، وكلّ أهالي القرى القريبة والبعيدة في فلسطين.

انتحى به الشاويش حسن جانبًا، وبعد تردُّد، وهو يشيح عن وجه محمود، قال بحزن:

سننسحب من ذكرين يا أخ أبو رشاد.

تساءل محمود:

ولكنَّكم حضرتم لمساعدتنا!

صحيح...

قال الشاويش حسن، وبصوت محزون:

قوَّاتنا محاصرة في عراق المنشيّة والفالوجي، والوضع صار صعبًا، ونحن لم نشارك في أيّ معركة للدفاع عن ذكرين، وأنتم البركة فيكم، وإن شاء الله سنعود بعد أن نهزم اليهود، ونفكّ الحصار عن قوّاتنا المحاصرة في عراق المنشيّة والفالوجي.

رأيا سيَّارة قادمة من بعيد، وزوبعة من غبار تتصاعد خلفها، وتزحف فوق الحقول والتلال، فتابعاها صامتين.

ما إن وصلت السيّارة حتى اندفع الجنود حاملين صرر أغراضهم، وصناديق الذخيرة، وبنادقهم، وتلاصقوا في صندوق السيارة، أمّا الشاويش حسن، فقد احتضن أبا رشاد، وقبل أن يستدير ويبتعد خلع خوذته العسكريَّة عن رأسه وناولها له:

رغم أنَّ في هذا مخالفة، لكنَّني أعطيها لك لتحمي رأسك. أتمنَّى أن لا يقع لك مكروه، وأن تصمدوا في ذكرين!

عانقه محمود، وهو يمسك بالخوذة من حزامها، بينما استدار الشاويش حسن وصعد بجوار السائق، وانطلقت الشاحنة بسرعة مثيرة الغبار خلفها، ومسلَّحو ذكرين يتابعونها، وهي تندفع مبتعدة.

تساءل حسن، وقد حضر بعد انطلاق السيّارة:

لماذا لم يتركوا لنا بعض الذخيرة التي معهم؟!

دخل المسلَّحون إلى المدرسة، وانهمكوا في تنظيف الغرفتين، أمّا أبو رشاد فتمدَّد في الظلّ تحت شجرة زيتون، وفي لحظات ارتفع شخيره، وهو يرخي بجسده على التراب، واضعًا يده تحت رأسه، محتضنًا بارودته التي لفّ حزامها حول يده.

سمع بعض النائمين على البيادر صوتًا يشبه صوت رغاء الجمال، ورأوا شخصًا يتحرَّك مترنِّحًا لائبًا حول نفسه، ثمَّ يرفع يديه كأنَّما يستغيث، ويدور حول نفسه ويسقط بين أكوام الذُرة التي ما زالت تنتظر دراستها بالنوارج.

ركض من أدخل المشهد الخوف في قلوبهم متحاملين على أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الجسد المرمي المتكوِّر حول نفسه، قلبوه على ظهره فتبيَّنوا وجهه: إسماعيل المحروق، حنجرته مذبوحة، والدم يغرق ملابسه، وفي عينيه رعب واستغاثة.

تراكض الرجال إلى بيدر إسماعيل الواقع في طرف بيادر القرية، فهالهم ما رأوه: زوجته وابنته تغرقان في دمهما فوق عرانيس الذُرة المكوَّمة والمهيَّأة للدرس، فتصايحوا:

اليهود.. اليهود يا أهل ذكرين

دفعوا نساءهم وأطفالهم لمغادرة البيادر، وتراكض كلّ من معه بندقيّة بين الحقول، ولكنَّهم لم يروا شيئًا، ولا وجدوا أثرًا، رغم أنَّ الليلة كانت بدرًا كاملًا يضيء بنور يمكن من التقاط إبرة بين التراب.

وهم يردِّدون كلمة اليهود، حملوا الجثث في ألحفة كانت العائلة تتغطَّى بها، ونقلوها إلى بيت إسماعيل الذي حضر أقاربه.. وفي ذكرين ارتفع نواح، وسالت دموع، وانتشر الخوف.

وهم يتجمَّعون في حوش بيت إسماعيل المحروق، تساءل المختار والوجهاء:

كيف تسلَّلوا إلى قريتنا ولم ننتبه، ولم نرهم، ولم نحسّ بهم؟

لماذا ذبحوا إسماعيل وامرأته وابنته؟

عندما حضر إسماعيل إبراهيم، وسمع أسئلتهم، قرَّر أن يخبرهم:

يا أهل ذكرين: اليهود اقتحموا قرية دير ياسين وذبحوا أهلها، وبقروا بطون الحبالى، وفظّعوا، وكان هدفهم نشر الخوف في كلّ القرى المحيطة بالقدس، وفي كلّ فلسطين، حتى الناس يهربوا ويتركوا أرضهم. ما فعلوه بالمرحوم إسماعيل المحروق وزوجته وابنته أرادوا به أن يدبّ الخوف في نفوسنا فيدفعنا إلى الهرب من قريتنا، وهرب القرى المجاورة، وهم اختاروا المرحوم إسماعيل لأنَّ بيدره مطرَّف. أظنّ أنَّهم تسلَّلوا عبر كرم عبد الله علي.. وبخطوات قلية كانوا فوق رأس إسماعيل وعائلته، و.. ذبحوهم حتى لا يستخدموا الرصاص فننتبه عليهم، ولإخافتنا وبثّ الذعر في نفوسنا. لازم نشدّ حيلنا، ونتماسك.. ما حدا ينام على البيادر، والناس لازم تدرس بسرعة محصول الذرة البيضا.

تساءل المختار:

من أين جاؤوا يا ناس؟

ردَّ إسماعيل:

من كبّانيَّة موسى، ولكنَّهم التفُّوا حول قريتنا، حتَّى نشكّ بأنَّهم قدموا من مستعمرات بعيدة.

نهض المختار، ووجَّه كلامه للحضور:

لازم ندفن أهلنا بدون ما نغسّلهم، لأنَّهم شهداء، وفي قبر واحد. يلّا يا أزلام.. يلّا يا أهل ذكرين، وخلّينا نخبّر الأهل ببيت جبرين، والقرى المجاورة، ونشوف لنا حلًّا مع كبّانيَّة موسى هذه!

تأمَّل المختار وجوه بعض الشباب:

الشباب يروحوا يحفروا قبرًا لأهلنا.. يلّا يا شباب.. يلّا.

فوجئوا بدخول الشاويش حسن ومعه جنديان، فأخبرهم المختار، فوجموا، ولبثوا ساكتين، وقد اكتست وجوههم بالدهشة والحزن.

أضرموا النار تحت الدسوت الممتلئة بالعنب، بحطب جلبه عبد الرحمن من الحرش غير البعيد، من أشجار البلّوط، ففاحت رائحة تضوَّعت في فضاء الكرم.

مليحة تدور حول الدسوت، وتمرِّر المغرفة على وجه العنب الذي بدأ يتحوَّل إلى سائل بنيّ، ثمَّ تنفض المغرفة فتتطاير بذور العنب.

رشاد ومحمّد يتأمَّلان ما يريان، ويدوران حول الدسوت، ويمطَّان عنقيهما ليريا ما يحدث، مستغربين ما يريان.

ربَّت الجدّ مرشد على رأسيهما:

هذه عنبيَّة، وستأكلانها وتنبسطان بها، فهي حلوة ولذيذة، ومع الخبز في الشتاء ما في أكوس منها.

رفع رشاد رأسه، وتابع ما يقوله الجدّ الذي أخذ يفرك شعره:

أنت يا رشاد ستكون جدعًا.

وعندما تطلَّعت إليه مليحة، وفي عينيها عتب واستغراب لما يختصّ به رشاد وحده، أضاف:

سيكون جدعًا، وسيحميكم هذا الأدغم يا مليحة.

قالت عاتبةً لتجاهل ابنها محمّد:

اللَّه يحميه لوالده.. يا عمّ!

ارتفعت أصوات: اليهود.. اليهود.. اليهود.

ثمَّ دوَّى الرصاص، ورأى رشاد والده يركض من جهة البيادر، وعلى رأسه الخوذة.

قعد الجدّ مرشد على الأرض قرب الدسوت، وأشار لهم أن يقعدوا قربه:

أقعدوا على الأرض حتى لا يصيبكم الرصاص.

التصقت مليحة بساق شجرة تين، والتصق بها محمّد. بدأ الجدّ مرشد بقراءة سور من القرآن بصوت منخفض، ثمَّ سأل اللَّه اللطف بهم.

رشاد زحف على الأرض وهو يرفع رأسه، كأنَّما يريد أن يرى الرصاص الذي يسمع دويّ صوته الغريب فوق رؤوسهم.

ركض رشاد حتى باب الكرْم، ووقف يتأمَّل الرجال المتراكضين وهم يرفعون بنادقهم.

رأى مسلَّحا يرفع بندقيته وهو يصيح:

عليهم يا أزلام.. باطل يا أزلام.

نهض الجدّ مرشد ومشى منحني الجسد. تأمَّل المسلَّح وتابعه بنظره حتى توارى، قال وكأنَّه يكلِّم نفسه: هذا كعموش ابن سالم تيلخ.

احتضن رشادًا، وسأله:

هل تعرف لماذا يلقِّبونه كعموش؟ لأنَّ حبَّته قليلة.. ولكنَّه بطل..جدع.. اللَّه يحميه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفع صوت محمود، وهو يدفع باب الكرم:

ردّيناهم.. جاؤوا من جهة البركة.. أرادوا أن يغافلونا في النهار، لأنَّنا لا نكون مستعدِّين، فكثير من المسلحين يا عمّ مرشد يهتمّون بأشغالهم، وفي اللَّيل نستنفر. يابا مرشد في خبر عاطل: استشهد كعموش.. كعموش البطل ابن الشيخ سالم.

ضرب مرشد كفًّا بكفّ:

اللَّه يصبّر والدته ووالده.

علّق والده طاسة الحرب في كتفه وخرج، ثمَّ التفت وراءه:

بدنا نروح نخبّر والده يابا مرشد.

دون أن ينتبه له أحد، خرج رشاد ولحق بابيه، ثمَّ توقَّف عند النقّالة الخشبيَّة التي وضعها الرجال على البيادر، ورغم أنَّها ترتفع على أربع قوائم عالية، فقد أخذ رشاد يمطّ جسده ويتأمَّل الرجل الممدَّد فيها، ووجهه يتَّجه إلى السماء، وعلى ملابسه دم كثير.

حضر حشد كبير يتقدَّمه رجل قصير القامة يصيح: ولدي.. حبيبي، وخلفه يتراكض رجال كثيرون، بعضهم يرفع بندقيَّته ويلوِّح بها.

عندما وصلوا بالنقّالة، هجم الرجل القصير وقفز عليها واحتضن الرجل الممدَّد فيها، وأخذ يمرِّغ جسده مع الجسد الذي يحتضنه، وهو يصيح: ولدي.. ولدي.

اندفعت نسوة من داخل ذكرين، وكنَّ يمسكن بامرأة تصرخ: ولدي نور عيني يا محمّد.. شهيد يا حبيبي.. شهيد للجنة يا محمّد.

ارتفع صوت الشيخ خميس:

يا ناس: إكرام الميِّت دفنه.. وميِّتنا شهيد يدفن بدمه، بدون غسله، فدمه غسله، وهو شفيعه عند اللَّه يدخل به الجنّة. يلّا نصلّي عليه مع صلاة العصر، ونكرِّمه بدفنه، يا أهل ذكرين.

سحبوا الرجل القصير، وأمسكوا به، ولكنَّ امرأة اندفعت صائحة:

بدّي أشوفه يا ناس، خلّوني أودِّعه يا أهل ذكرين.. هذا ابني محمّد يا ناس!

قال الشيخ خميس:

أتركوها تودِّع ابنها.

ثمَّ رفع صوته في وجهها:

لا تبكي يا أمّ الشهيد.. حرام البكاء عليه.

ولكنَّها، وقد رأته مضرجًا بدمه صاحت: يا ولداااااه.. ثمَّ قدّت ثوبها من فوق الصدر، فرمى المختار عباءته عليها ولفَّها بها، وتقدَّمت النسوة وأحطن بها، ورُفعت النقّالة الخشبيَّة على الأيدي التي تزاحمت، وارتفع التكبير والتهليل.

بعد صلاة العصر ووري كعموش ثرى ذكرين، في قبر قريب من قبر عائلة المحروق.

أوقف الحمار قرب حوض البئر، وأرخى الحبل بالدلو حتى سمع صوت ارتطامه بالماء. متح دلوين، فملأ جرّة ، ثمَّ ألقى بالدلو وحرَّكه قليلًا وسحب الحبل. بجواره، وقفت مليحة ممسكة برسن الحمار.

فجأة، نبح الكلب قطّاش وأخذ يلوب حول نفسه بجنون، بينما الدم يتطاير من بطنه.

صاح عبد الرحمن عندما رأى الكلب يرتمي مرتجفًا، والدمّ ينبثق من بطنه، وأطرافه تتشنَّج، ثمَّ يهمد جثَّة بلا حراك:

اليهود.. اليهود.

لم يعرف من أين انطلق الرصاص، فهو ومليحة والنسوة اللّواتي كنَّ يملأن جرارهن على الآبار المتجاورة، لم يسمعوا صوت رصاص.

قرفص وأرهف سمعه، فتناهى إلى أذنيه صوت متقطِّع خافت كالفحيح يأتي من جهة واحدة، ثمَّ سمع صوت إطلاق رصاص من جهة الحرش.

يلّا يا مليحة، طيري عالبيت، اليهود يهاجمون ذكرين.

وضع الجرّتين في الخرج، ونهر الحمار، وضرب بالعصا على برذعته فانطلق صاعدًا، وحين توارت مليحة والحمار داخل القرية، ركض عبد الرحمن صوب المدرسة. سمع صوتًا ينبِّهه:

وطّي رأسك...

انتبه عبد الرحمن إلى أنَّه يركض بطوله وهو مكشوف تمامًا، فأخفض رأسه وركض منحنيًّا حتى بلغ كرم والده، فدفع البوّسابة ومرق بين الأشجار.

دار حول والده دون أن يعرف ماذا يفعل، وماذا يقول له، أينصحه أن يذهب للبيت فهناك آمَنْ، أم يبقى معه في الكرم.

سلّم والده، وقد فرغ من الصلاة.

سمعت صوت طخّ يا عبد الرحمن!

اليهود يهاجمون ذكرين يابا. وهم يستعملون أسلحة لا تخرج صوتًا!

ساد صمت، ثمَّ انفجر صوت رصاص غزير.

بارودتك اليونانيَّة ما بتنفع لهذه الحرب يا عبد الرحمن! البواريد غالية ونحن فقراء!

صمت، ثمَّ أضاف:

أكثر رجال البلد ما معهم بواريد، اهجموا على اليهود بالشباري، وبالحجارة، وبالعصيّ.. واطردوهم، وخذوا سلاحهم منهم، ولا تنتظروهم حتى يهجموا عليكم.

قرفص عبد الرحمن، وأخذ ينكت التراب بعود متشاغلًا، شاعرًا بالعجز والخجل، فبارودته اليونانيَّة التي تخلَّى له عنها محمود لا تنفع، وهو لا يدافع عن القرية، ولا يعرف ماذا يفعل!

التقط عصا والده الغليظة الرأس، واندفع خارجا، ولطى بجوار سور المدرسة، فلم ير أحدًا من المسلحين، فارتمى على الأرض، وزحف على بطنه. فجأة رأى إسماعيل ابن خاله إبراهيم وبجواره شقيقه أحمد وهما يركضان: إسماعيل يحمل رشاش البرن، وأحمد يحمل كيس الرصاص. ارتميا على الأرض وراء صخرة، وصوَّب إسماعيل وأطلق زخَّة رصاص، ثمَّ زحف وغيّر موقعه، وأطلق زخة جديدة.

من بين أشجار الزيتون، وأجمة البلوط، ظهر عدَّة مسلَّحين يرفعون بنادقهم، وهم يصيحون:

كسرناهم.. هربوا.. هربوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دارة طائرة في سماء قرية ذكرين، ومن جوفها أسقطت برميلًا على البيادر قرب المسجد، فأحدث دويًّا هائلًا.

ارتفعت الرؤوس إلى السماء بذهول، فهم لم يروا طائرة من قبل، طائرة من حديد تعلو في السماء، وتسقط من جوفها أشياء تتفجَّر، فتحفر الأرض، ولولا لطف الله لقتلت كثيرين، ولو سقطت على سطح الجامع لهدَّمته.

دارت الطائرة في الفضاء دورة واسعة، ثمَّ عادت ومرقت من فوق القرية، وقد خفضت من ارتفاعها، وأمالت جناحيها، وأخرجت أزيزًا حادًّا، ثمَّ ابتعدت في الفضاء.

قال إسماعيل للمسلَّحين الذين اجتمعوا تحت أشجار الزيتون القريبة من المدرسة:

نحن نندفع للجهة التي يطلق منها اليهود الرصاص علينا، ولكنَّهم قد يهاجمون من أماكن أخرى، لذا لا بدّ أن نقسِّم أنفسنا إلى مجموعات، ونكمن لهم في أماكن تساعدنا على اكتشافهم.

صمت قليلًا، ثمَّ أضاف:

رصاصنا قليل، وبنادقنا قليلة، ومعنا رشاش برن واحد ذخيرته قليلة، وفي معركة كبيرة لن يتبقَّى معنا رصاصة واحدة بعد ساعة اشتباك!

أخذ يربّت على رشاش البرن:

يا جماعة: نحن طردنا اليهود، ولكنَّهم أرسلوا طائرة قصفتنا، وسيعودون لمهاجمتنا.. متى؟ ربّما اليوم مساء، أو في فجر غد، فلا تطلقوا كلّ ما معكم من رصاص. اليهود يعرفون أنَّ سلاحنا قليل، وذخيرتنا قليلة، وهم يراهنون على نفادها.

صوته الحزين أوحى بأنَّه يوشك أن ينفجر في البكاء.

لم يخبرهم إسماعيل بما جرى في معركة القسطل. هم سمعوا عن استشهاد القائد عبد القادر الحسيني، ولكنَّهم لم يعرفوا ما جرى، ولا ما فعله اليهود في قرية دير ياسين في اليوم التالي.

سنتان وهو يقاتل مع القائد عبد القادر. تعلم الضرب على البرن، ورمي القنابل اليدويّة.. ولا قنبلة يدويّة مع مسلَّحي ذكرين! ورأى القائد عند القمّة في القسطل، والدم يغطّي جبينه وعينيه وصدره، ومشى في جنازته في القدس، وفُجع برحيله. أدخله القائد بيته في القدس، وعرّفه بأبنائه وزوجته. كان أحد قلّة قليلة من الرجال الذين يتنقَّلون معه من مكان إلى مكان، ولكنَّه رحل، وبعد رحيله، واحتلال القسطل، وانتشار الفوضى، قرَّر أن يعود إلى ذكرين ليدافع عنها.

ها هو قد عاد لذكرين، وليس بين يديه سوى رشاش البرن و(شوية) رصاص!

بدَّد الصمت صوت حزين:

يا أخوان، ما قاله إسماعيل صحيح، لازم نقسِّم أنفسنا لمجموعات، وندير بالنا على الذخيرة، فلا نطلق رصاصة إلّا في المليان.

تأمَّل إسماعيل وجهه، فعرف أنَّه ابن سالم، الذي يخاطبه الناس: الشيخ سالم لتقاه وطيبته وتديّنه، ولحفظه الكثير من سور القرآن والأحاديث النبويَّة.

ارتفع صوت محمّد كعموش ابن الشيخ سالم من جديد:

أنا اشتريت بارودة، وأنتم تعرفون أنَّ والدي فقير. لا بدّ أن يتسلَّح كلّ القادرين في ذكرين.

قاطعه أبو فيصل:

يا كعموش: كثيرون باعوا ذهب نسائهم واشتروا بواريد. أنت تعرف حالة الناس يا محمّد: نحن ناس فقراء، بالكاد نعيّش أسرنا.

تأمَّل إسماعيل وجوههم، وتساءل: إلى متى ستصمد ذكرين؟ ومن سيبقى حيًّا من هؤلاء الرجال؟ حولنا قرى صغيرة ليس فيها عشرة مسلَّحين، وقرى كبيرة غير بعيدة عنّا، ولكنَّها تقاتل وحدها، ولا قيادة لنا جميعًا. رحل عبد القادر البطل وبقينا بلا قائد.

أبو فيصل قال بصوت متعب:

نحتاج لذخيرة لرشاش البرن، ولبنادقنا، وحتى لمزيد من البنادق، وآه لو عندنا برن آخر.

ران صمت ثقيل على رؤوس من تجمَّعوا لصق جدار المدرسة، أنهاه أبو فيصل:

لا بدّ أن نجمع ما نستطيع من المال لشراء الرصاص، ويجب أن نتَّصل بالقرى الكبيرة: بيت جبرين، الدوايمة، عجّور.. علَّنا نتَّفق معهم على كيفيّة الدفاع عن كلّ قرى قضاء الخليل التحتانيَّة.

سمعوا دويَّ صوت طائرة، فتفرَّقوا بين الكروم، وتوارى بعضهم في الخنادق، رأوا شيئًا يسقط من الطائرة أعقبه دويٌّ هائل، وزوبعة من دخان وغبار. ارتفعت أصوات:

الطائرة أسقطت القيزان فوق ضريح الشيخ أبو عمران.

تناثروا بعيدًا عن المدرسة، وراقبت عيونهم السماء الخالية، وأسماعهم دويَّ الطائرة التي ابتعدت تاركة صوتًا يخفت كلَّما توارت في الفضاء.

إلى مغاور وكهوف بيت جبرين، نقل الذكارنة أسرهم ليبعدوها عن الخطر، وعادوا إلى ذكرين ليعيشوا لأوَّل مرَّة بدون زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم، فهم لا يعرفون ما ينتظرهم من اليهود بعد ذبح عائلة المحروق، وما سمعوه عن مذبحة الدوايمة التي قتل فيها اليهود عشرات الدراويش والعواجيز وألقوهم في بئر (الزاوية)، التي ينعزل فيها الدراويش الذين ظنُّوا أنَّهم بمنجاة من الخطر، لأنَّهم لا يحملون سلاحًا.

في الكرْمِ، قعد محمود وعبد الرحمن أمام الأب مرشد الذي بدا واهنًا، وبالكاد يقوى على التنفس.

قال محمود:

يابا مرشد: اليهود ذبحوا عائلة إسماعيل المحروق، و.. ذبحوا الدراويش في الدوايمة، وكلّ من لجأ (للزاوية) التي يتعبَّدون فيها، وألقوهم في البئر، وأزلام ذكرين اتَّفقوا يبعدوا أسرهم عن الخطر، ويبقوا وحدهم للدفاع عن ذكرين حتى يفرجها الله وتنتهي الحرب، ويرجع الناس لقراهم.

فتح مرشد عينيه، وزحزح بدنه في جلسته، فتلعثم محمود في كلامه، لأنَّه يعرف أنَّ عمه لن يستجيب لاقتراحه هو وعبد الرحمن، وسيغضب عليهما إن هما ألحّا عليه بطلب الرحيل عن ذكرين.

يابا مرشد.. يعني.. أنا وعبد الرحمن.. رأينا أن نبعدك عن ذكرين، وتبقى أيَّاما قليلة مع عائلتنا، ثمَّ تعودون، فاليهود إن شاء الله سينكسرون، وستعود أحوالنا كما كانت وأحسن.. فماذا تقول يابا مرشد؟

زحفت يد مرشد على التراب، وغاصت أصابعه وانتزع حفنة، وأخذ يدعك لحيته البيضاء بها:

تريدونني أن أترك أرضي وكرمي وأشرد؟! يا ريتني أقدر على حمل بارودة لأريكم كيف يكون القتال، لكن لم يبق في عمري إلّا أيّام معدودات، وهنا على تراب أرضيّ وبين أشجاري سأقضيها إلى أن يأخذ الله أمانته.

أعاد بدنه واستند على ساق الشجرة، وأغمض عينيه، كأنَّه لا يريد أن يراهما ويسمعهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رافق عبد الرحمن أمّه وخالته فاطمة، وامرأته مليحة، وأولاده محمّد وحليمة، واصطحب رشادًا، أمّا ابنه البكر أحمد فبقي عند جدّه مرشد، وفي بيت جبرين تركهم تحت أشجار الزيتون، حيث انتشرت أسر كثيرة من ذكرين، ورعنا، وكدنا، وعاد إلى ذكرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقترب عجوز بثوب أبيض يتوكَّأ على عصا، وهو يمشي متَّئدًا من الزيتونة التي قعدت تحتها فاطمة وذوابة ومليحة والأولاد، وأشار برأس عصاه:

السلام عليكم.. من أين أنتم؟!

ردّت مليحة:

من ذكرين يا عمّ.

قومي يا بنتي، أنت والعجوزتين والأولاد، وتعالوا اقعدوا عندنا في بيتنا. ما عندنا حدّ، أنا وعجوزتي. يلّا يا بنتي.. اتّكلوا على الله والحقوني.

ثمَّ أشار للأولاد برأس عصاه:

يلّا قوموا يا شاطرين، واحملوا شغلاتكم وتعالوا مع أهلكم.

دعت له العجوزان بطول العمر والستر، وتحاملتا على نفسيهما، وحملت مليحة اللّحافين على رأسها، والأولاد حملوا إبريق الماء والعسليَّة، ولحقوا بالعجوز إلى بيته المطلّ على مدخل بيت جبرين.

في حوش البيت الواسع وقفوا ينتظرون ما سيشير العجوز عليهم به.

أشار العجوز إلى غرفة مفتوحة الباب:

انستروا في تلك الغرفة، فهي واسعة، وأنت يا بنت اعجني واخبزي لتطعمي الأطفال، فهناك الطابون، ويوجد صاج، وعندنا من خير الله وخيركم كثير من الطحين والسمن وكلّ ما يلزم. يلّا يا عمّ شمّري عن يديك وابدأي.

سألته مليحة:

قلت إنَّ حرمتك عندك يا عمّ؟

حرمتي يا بنتي مشلولة، وأولادي رحلوا للخليل، وهي عاجزة عن فعل شيء، حتى إنَّني أخدمها.

دخلت إلى الغرفة التي تتمدَّد فيها المرأة، وسلَّمت عليها، فرفعت رأسها:

أهلًا يا بنتي.

من وراء ظهر مليحة، ارتفع صوت العجوز:

هؤلاء الناس يا صبحة من ذكرين. شرَّدهم اليهود، وسيقيمون عندنا كام يوم حتى تفرج عليهم وعلينا.

ابتسمت، وهزّت رأسها:

أهلًا وسهلًا يا بنتي. لا تؤاخذوني أنا عاجزة، وما بأقدر أضيِّفكم.

ردَّت مليحة، وقد سالت دموعها:

أنت يا خالة مثل أمّي. أمّي مثلك يا خالة مشلولة، وتركتها في ذكرين، ولا أعرف ما حدث لها.

روحي يا بنتي حضّري أكل لكم.

مسحت مليحة دموعها بطرف غدفتها، وهي تغادر غرفة المرأة المشلولة.

انهمكت في العجن، ثمَّ وضعت حجارة تحت الصاج، وبعد قليل تصاعد الدخان، وفاحت رائحة الخبز، وشرع الأولاد في التهام خبز الشراك الحاف.

توقَّفوا عن اللَّعب عندما ارتفع صوت مليحة:

يا أولاد: محمّد، رشاد، إسماعيل.. تعالوا.

اندفعوا إليها كأنَّهم في سباق. توقَّفوا لاهثين، وعيونهم تتطلَّع إلى فمها لِتَلقّي أوامرها.

رفعت يدها بكيس قماش صغير أمام عيونهم المتسائلة:

هذه دجاجة.. ستذهبون إلى ذكرين لتوصّلوها لجدّكم مرشد في الكرم. هو دائمًا هناك، وإن لم تجدوه سيكون في بيتنا، لكنَّكم ستجدونه في الكرْم.. أكيد.

مدّ محمّد يده وتناول منها الكيس، ولكز رشادًا في كتفه:

يلّا يا ابن عمّ.

قال إسماعيل:

وأنا سأذهب معكم.

طمأنته العمّة مليحة:

سأخبر أمّك يا إسماعيل، فهي ستأتي بعد قليل عندي لنطحن لكم شويّة قمح على الجاروشة.

أمرتهم:

اذهبوا مباشرة. لا تلتهوا باللّعب في الطريق. الطوا بالصخور، وابتعدوا عن المستعمرة.. أيْوه؟

أومأوا برؤوسهم، وهم ينطلقون متَّجهين إلى ذكرين.

لحق صوتها بهم:

سلّموا على جدّكم. قولوا له: إن شاء اللَّه عن قريب سنعود للبلد. طمئنوه علينا وعلى كلّ أهل البلد: النسوان، والأولاد، والعجائز.

بعد أن باتوا بعيدين عن بيت جبرين، هدّأوا سيرهم، وحادوا عن الطريق القريب من المستعمرة، ومشوا ملاصقين للصخور التي كانت تواري أجسادهم بارتفاعاتها المتباينة، ولكن الأعلى من قاماتهم.

مضوا صامتين، يراقبون التلال، والحقول، وحركة الناس البعيدين. تناهى إلى مسامعهم هديل الحمام البريّ، فتساءل إسماعيل:

أتعرفون ماذا يقول الحمام؟ يقول: يا كوكتي.. يا فروتي. هناك من سرق فروته!

توقَّفوا قليلًا، وأصاخوا السمع. قال محمّد:

وما هي فروته؟ عليه ريش وليس فروة!

ضحك إسماعيل:

زمان كان يلبس فروة حتى يدفئ جسمه من البرد، ولمّا ضاعت فروته، أو حدا سرقها طلع له ريش.

بغتة حطت غربان على صخرة عالية، وأخذت تهزّ ذيولها، وتطلق نعيبها، فالتقط رشاد حصاة، وتساءل:

هل ستهجم علينا؟!

ضحك إسماعيل:

ستهاجمنا إن نحن رجمناها بالحجارة. دعها تنعق، ولنواصل طريقنا.. يلّا اركضوا.

انطلقوا راكضين، ثمَّ توقَّف محمّد، واحتضن الكيس:

خلّينا نمشي شويّة شويّة.

قال إسماعيل:

الحمام لا يهاجم الناس، وصوته حلو، أمّا الغربان!.. اسمعوا صوتها ما أبشعه!

صمتوا ، وأرهفوا سمعهم:

صوت الغربان شنيع.. يخيف، لا أحد يحبّه.

سال رشاد:

صوته بس!

قال إسماعيل:

صوته وشكله الأسود.

مدَّ رشاد يده لمحمّد:

هات الدجاجة أحملها عنك.

ردَّ محمّد وهو يتشبَّث بها:

لم أتعب من حملها.

ثمَّ هزّها بين يديه ليؤكِّد قوله.

قال إسماعيل:

ولو: كلّ واحد لازم يحملها شويّة.. صحّ يا رشاد؟

وافق رشاد:

صح. لازم كلّ واحد منّا يحملها شوية!

من المنعطف غير البعيد، انبثقت قافلة من الرجال.

تحزّروا:

من هؤلاء؟

ركض رشاد:

أبوي.. واللَّه أبوي.

طار عن وجه الأرض، فركض إسماعيل ومحمّد وراءه.

فتح والده يديه واحتضنه، وهو يردِّد: رشاد.. رشاد.. حبيبي ابني.

لما تحرجموا حول والد رشاد، سألهم:

إلى أين يا شطّار؟

أخذوا يتكلَّمون معًا:

رايحين على البلد. بدنا نودي هذي الدجاجة لسيِّدي مرشد.

سألهم:

مش خايفين يا جدعان؟!

ردَّ إسماعيل:

لأ، مش خايفين.

تأمَّلهم أبو رشاد:

أسرعوا حتى تصلوا بدري، وترجعوا قبل ما تغيب الشمس، يلّا يا شاطرين.

استأنف الموكب سيره باتِّجاه بيت جبرين، والأولاد إلى ذكرين، تحت سماء صافية تنسدل على التلال البعيدة، وشمس بدأت تشتدّ حرارتها وتسخّن التراب تحت أقدامهم الحافية.

فتحت البوّابة، فرأته وحيدًا يجلس على حجر بجانب الطريق الترابي. الأولاد يلعبون، يتصايحون، يغيبون بين أشجار الزيتون، ويتقافزون على الأغصان، ويطارد بعضهم بعضًا، بينما هو كعادته يجلس وحيدًا. لفت انتباهها منذ رأته على هذه الحالة.

نادته:

يا شاطر.

التفت صوبها، ثمَّ وقف، فأشارت له بأصابعها، فتوجَّه إليها متمهِّلًا.

وقف أمامها، فتأمَّلته: حافي القدمين، يرتدي قميازًا رثًّا، نظراته حزينة.

سألته:

ما اسمك يا شاطر؟

تأمَّل وجهها، ثمَّ نطق ببطء:

رشاد...

ابتسمت:

أنت تجلس دائمًا وحدك!.

...

أسألك: ليش إنت دائمًا وحدك؟!

ما ليش أخوة.

ولكنَّني أراك مرَّات مع ولد يمشي معك.

ابن عمّي.. محمّد!

وأين أمّك؟

ماتت. أمّي ماتت.

انقبض وجهه وأوشك أن يبكي، فمدَّت راحتها إلى رأسه، وجعلت تمسِّد شعره بحنوّ.

تلمس بأصابعه ثوبها الملوَّن. راقبت دهشته:

هذا فستان.. مش ثوب فلّاحات، ليس مثل الذي كانت تلبسه أمّك. أنا لست من هنا.. لست من بيت جبرين.

وضعت أصابعها تحت فكِّه، ورفعت رأسه بلطف:

أنت من أيّ قرية يا رشاد؟

من ذك.. ري.. ن.

من ذكرين. أعرفها.. زرتها. أمّك مدفونة هناك؟

آ.. وأختي مدفونة هناك.

وأنت بقيت وحدك؟

آ .. بقيت وحدي.

ومن تلك المرأة التي معها أولادها، التي تسكن في ذلك البيت؟

وأشارت له صوب البيت الذي يقيم فيه مع امرأة عمّه!

امرأة عمّي عبد الرحمن.. وأنا معهم.

أين أبوك يا رشاد؟

في البلد بيحارب اليهود.

ضمّت رأسه وألصقته ببطنها، فانزلق وجهه على ثوبها الناعم المرسوم عليه ورد ملوّن.

ناولته قرشًا:

خذ.. هذا لك.

فتح راحته الصغيرة، وضمّها على القرش، ولبث يتأمَّل وجهها بحيرة:

رح اشتري به حامض حلو.

سألته:

هل أنت جائع يا رشاد؟ بس اتجوع تعال عندي. افتح البوّابة وادخل لأطعمك.. أيْوه؟

هزّ رأسه، ثمَّ التفَّ ومضى مبتعدًا، وكلَّما سار خطوات استدار وتطلَّع إليها، وعندما أغلقت البوّابة ركض إلى الدكّان واشترى حامض حلو بتعريفة، وأعاد له البائع تعريفة، فعاد وقعد على الحجر، وقرش حبَّة حامض حلو، ثمَّ دسّ حبَّة ثانية بين أسنانه، وعندما اقترب منه محمَّد وسأله:

شو بتوكل؟

ناوله حبَّة لونها أحمر، فلففها محمّد، ودسَّها في فمه، ومعًا تلمّظا طعم فميهما، وهما يجلسان صامتين.

سأله محمّد:

من أعطاك مصاري تشتري حامض حلو؟!

المرأة...

وأشار إلى بيتها، فاستغرب محمّد وتساءل: لماذا تعطيه مصاري ولا تعطيني مثله؟!

نهض، وابتعد عن رشاد الذي بقي جالسًا يمتصّ حبّات الحامض حلو مستمتعًا بطعمها.

في اللَّيل الشاحب، وهي تستلقي على ظهرها وتمد ذراعيها لتنام عليهما حليمة ومحمّد، رأت نجمة تخفق بين النجوم، كأنَّها تسبح في الفراغ، وارتفع صوتها الغريب المقبض للنَّفس: ونننننننن.. فوجف قلبها.

أرهفت سمعها، فعرفت أنَّها طائرة. ضوؤها يخفق مثل عين تفتح وتغمض، وهي تبدو كأنَّها تبحث من فوق عن شيء على الأرض.

اختفت الطائرة، ثمَّ عادت وظهرت، وبدت أخفض، وصوتها أوضح وأعلى. سحبت ذراعيها من تحت رأسيْ محمّد وحليمة، وجرّت الولد رشاد الذي كان قد تدحرج ونام على التراب، وألصقته بابنها محمّد، وهي تهمس: يا ربّ احم أسرتي ثواب شفقتي وحرصي على اليتيم رشاد، فأنا يا ربّ أحرص عليه مثل أولادي.. وأنت تعرف يا رب.

قعدت في الفراش وأبعدت اللّحاف عنها، ثمَّ نهضت وتأمَّلت العجوزين النائمتين الغافلتين عمّا يجري، واستعاذت من الشيطان.

سماء مضاءة بنجوم كثيرة صغيرة وبعيدة ومتراصَّة قرب بعضها بعضًا كالعناقيد، وصمت لا يقطعه سوى نباح كلاب خائفة مستوحشة يبدو كأنَّها تركض.

سمعت صوت انفجار قويّ، فرمت نفسها فوق الأولاد، وفردت ذراعيها عليهم لتشملهم بجسدها بالحماية من الخطر.

حمدت اللَّه أنَّ العجوزين ظلّتا نائمتين، وأنَّ الانفجار بعيد، وتساءلت: أهو في ذكرين؟ خفق قلبها بسرعة: هناك ابني أحمد، وزوجي عبدالرحمن، وسلفي محمود، وعمّي مرشد.! وهناك رجال كثيرون بقوا ليدافعوا عن القرية.. اللّه يحميهم.. احميهم يا ربّ.. نجِّهم من الطائرة، ومن اليهود يا اللّه.. احفظهم لأسرهم يا اللّه.

قعدت مقرفصة ونظرها متعلِّق بالسماء، والنجوم المتلامعة، وقلبها يخفق في هذا الصمت الرهيب الذي أعقب الانفجار، وبدنها يرتجف.

شعرت بظمأ شديد، فانسلَّت وزحفت حتى بلغت الإبريق فرفعته وشربت، وحين وضعته مكانه، لبثت قاعدة على التراب، فقرفصت ووضعت رأسها على ركبتيها، وبكت بصمت وهي تتأمَّل الأطفال الممدَّدين على الفراش، والذين يتهدَّدهم الخطر، فحمدت اللَّه أنَّهم يغرقون في النوم.

سمع صوتها، فتوقَّف عن اللَّعب مع الأولاد، والتفت فرآها تغمز له بأصابعها، فتوجَّه إليها متقافزًا.

ادخل...

شقَّت الباب قليلًا، فانسرب وهو يرفع وجهه، مرهفًا سمعه.

قالت له:

هذا لك.

وفردت قميصًا ملوَّنًا لم ير مثله من قبل.

اقتادته إلى منتصف الحوش، وأوقفته بجوار إناء غسيل واسع بجوار دست تتَّقد تحته النار.

اخلع ما عليك.

تأمَّل وجهها بدهشة، ولم يمدّ يده إلى أسماله ليخلعها.

مدَّت يديها معًا، وجذبته إليها، ثمَّ فكَّت حزام قمبازه المهترئ وشلّحته إيّاه، فانطوى على نفسه محنيًّا بدنه، مواريًا ما بين فخذيه براحتيه.

قالت له وهي تجذبه، وتدفعه للوقوف في إناء الغسيل:

ألست مثل أمّك؟ لو أمّك موجودة لغسلتك.. صحّ؟

لم يجب، فهو لا يذكر أنَّ أمّه شلّحته وحمَّمته، وأخذت تفرك بدنه كما تفعل هي.

أغمض عينيك، لأدعك رأسك بهذا الصابون النابلسيّ الذي سينظِّفك.

استجاب لأمرها، فغطّى عينيه براحتيه، ولكنَّه تفطن إلى أنَّ ما بين فخذيه سيظهر، ولذا وضع راحة يد بين فخذيه، وراحته الثانية على عينيه.

لا تخجل.. فأنا مثل أمّك، أيْوه!

أجابها:

أيْوه.

هل تحبّ أن تبقى معي؟

لم يجب، ولم تنتظر أن تسمع منه أنَّه يرغب بالبقاء معها.

كانت يداها تدعكان بدنه النحيل الأسمر باللّيفة والصابون، وقد زال عنه بعض الحرج، وأخذ يفكِّر في ما تفعله معه هذه المرأة.

هي أخبرته: لا أولاد ولا بنات لي.. إرادة الله يا رشاد!

امرأة عمّه، قالت له: هذه المرأة طيِّبة، وحنونة، وهي تعاملك كما لو أنَّك ابنها، لأنّها محرومة من الخلفة، وهي عرفت أنّ أمّك ماتت في البابور.

افتح عينيك.

فتح عينيه، فرأى بين يديها قطعة قماش كبيرة سميكة ملوَّنة، أخذت تمرِّرها على بدنه بقوّة.

هذه منشفة، نتنشَّف بها بعد الحمام. والآن: مدّ ذراعيك.

دسّت يديه في كمّيّ القميص، وساقيه في البنطلون. ومن لفّة صغيرة أخرجت صندلًا، وأمرته بلطف:

هات قدمك اليمنى.

ودسّتها في الفردة اليمنى.

هات اليسرى.

ودستها في الفردة اليسرى.

تأمَّلته بفرح وهو يتحسَّس الملابس، وينظر إلى قدميه في الصندل غير مصدِّق. أسعدها أن ترى الفرح يفيض على وجهه.

قالت له:

هذه الملابس أحضرها عمّك الأستاذ فوزي من الخليل. أنت الآن مثل أبناء المدارس، ولا ينقصك سوى الذهاب للمدرسة لتتعلَّم، وتصير شاطرًا تكتب وتقرأ.

التصق بها، وضع رأسه على بطنها فانحنت عليه، وهي تردِّد:

أنت ابني.. ياريت... لو أنت ابني!

عندما رفع رأسه، أحزنته دموعها التي تسيل غزيرة بصمت.

دفعته بلطف في كتفه:

رح ألعب.. وما توسِّخ ملابسك. أيْوه. ما تروح صوب بابور الطحين.. ما تتوارش ودير بالك على حالك!

أمسك بيدها وجذبها وقبَّلها، فمسحت دموعها برؤوس أصابعها، وابتسمت له ابتسامة كبرت وهي تتأمَّل وجهه الفرح بملابسه الجديدة، وبنظافته التي أراحت بدنه، وشرحت نفسه، وبالعطف الذي تشمله به.

وهو يبتعد، تنهَّدت: يا ليتك ابني يا رشاد.. يا ليت لي ولد مثلك لأعتني به، وافرح به وأدلِّه!

اقتربا من بابور الطحين، فسمعا صوته عاليًا: بيب بيب بيب.

اقترح رشاد على محمّد أن يصعدا جدار البركة، ويغسلا أقدامهما في مياهها الساخنة التي تتدفَّق من ماسورة مشرَّعة فوقها.

قال محمّد متحمِّسًا:

يلّا...

قفزا على حائط البركة، واستقرّا على الحافّة متجاورين.

انحنى رشاد وحفن من الماء الساخن، ونفض راحتيه ومسح وجهه، بينما محمّد يتابع ما يفعله بخوف.

عاد رشاد وانحنى، فإذا به يهوي في البركة ويغوص، ثمَّ يرتفع مغلقًا فمه، تحت نظر محمّد الذي ارتعب، وأخذ يصيح:

رشاد وقع.. رشاد وقع.. جاي يا أزلام جاي.. ابن عمّي وقع في البركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان علي أبو حتّة قد أوقف حماره وأنزل عن ظهره كيس القمح، وأخذ يبحث عن مكان يربط به الحمار.

أوصاه أبو رشاد أن يعود بسرعة، فلم يعد هناك طحين للخبز للمسلَّحين المدافعين عن ذكرين.

سمع علي صرخات محمّد فشمَّر قمبازه، وبقفزات سريعة بلغ حافة البركة، ونطّ من فوقها.

رأى الولد وهو يغوص ويصعد فانتشله، وقَلَبه جاعلًا رأسه إلى الأسفل ورجليه إلى الأعلى.

خرج به من البركة ومدَّده على بطنه، فلم يخرج ماء من فمه. كان رشاد ما يزال يغلق فمه، ويتنفَّس من أنفه.

سأل علي محمَّدا:

من هذا الولد يا شاطر؟

ردَّ محمّد وهو يتأمَّل جسد ابن عمّه الممدَّد على الأرض:

ابن عمّي.

أنتما من أين يا شاطر؟

من ذكرين يا عمّ.

قرفص علي عند رأس رشاد، وقلبه، وتأمَّل وجهه:

يا ربي! هذا رشاد ابن.. هه! أنت يا ولد ابن عبد الرحمن؟!

نعم يا عمّ...

ألا تعرفني؟ أنا عمّك علي أبو حتّة.

ظلَّ محمّد صافنًا، فهو لا يذكر أنَّه رأى الرجل من قبل. سأله علي أبو حتّة:

أين تقيمون؟

أشار له محمّد إلى البيت الذي يقيمون فيه.

حمل علي أبو حتّة الولد رشاد بين يديه لصق صدره ومضى به، ومحمّد يمشي بجواره إلى حيث يقيمون غير بعيد عن بابور الطحين.

سبقه محمّد صارخًا:

رشاد وقع في البابور.. رشاد وقع في بركة البابور. يمّا.. يا جدّة فاطمة.. يا جدّه ذوابة.. رشاااااد وقع في بركة البابور.

فتحت السيِّدة باب بيتها، ورأت الرجل وهو يحمل رشادًا بين يديه، فاندفعت صوبه، وهي تصرخ مرتجفة:

هل حدث له شيء؟ أهو بخير.. يا حبيبي يا رشاد.

فتح رشاد عينيه، بعد أن استوقفت المرأة عليا، بحيث صار رشاد بين جسديهما. أمسكت برأسه، فرأته ينظر إليها وهو يحاول أن يقول شيئًا.

خرجت أمّ أحمد على صراخ محمّد، فرأت علي أبو حتّة يحمل رشادًا. عرفت عليًا، فاندفعت صوبه، وهي تتساءل بلهفة:

أهو بخير يا أخي؟ هل رشاد بخير.

فردت لحافًا، فانحنى علي به ومدَّده عليه. كشف عن بطنه فرأى فيه بقعة حمراء فوق السرّة.

تنهَّد علي:

الحمد للَّه أنَّني كنت قريبًا من البركة، ولولا ذلك لاختنق ومات.

أخذ يهزّ رأسه:

ولد شاطر.. واللَّه شاطر، لقد أغلق فمه بيده، ولولا ذلك لابتلع الماء الساخن واختنق.

تأمَّله وهو ينحني عليه، ويتحسَّس بطنه:

الحمد للَّه على سلامته، يكفي والده النكبات التي وقعت على رأسه: موت امرأته، وابنته.. لم يبق له سوى هذا الولد!

لطمت أمّ أحمد وجهها، والدموع تسيل من عينيها:

لو حدث له مكروه لكانت مصيبة لوالده. واللَّه يا أخي علي إنَّني أحرص عليه أكثر من محمّد ابني، لكنَّه ورش لا يهدأ.

قال محمّد مبرئًا نفسه:

هو قال لي أن نذهب إلى البركة، ونغسل أيدينا وأقدامنا، ونتوضَّأ لنصلِّي مثل الكبار.

فتح رشاد عينيه، وتأمَّل وجوه من يلتفون حوله، ثمَّ استنهض جسده وقعد. نظر إلى الرجل الذي أنقذه مستغربًا وجوده، فابتسم له علي، وانحنى رابتًا على رأسه:

والدك يقاتل دفاعًا عن البلد، وأنت هنا تتوارش! لو علم والدك بما فعلت، وحدث لك، لطار عقله! فتكفيه مصائبه.

انحنى علي على العجوزين وباس يديهما، فدعتا له بطول العمر والسلامة.

سلّم على بلدنا يا علي.. يمّا يا حبيبي. سلّم على ذكرين، وقل لها بأنَّنا سنرجع لها. سلّم على محمود وعبد الرحمن وكلّ أهل البلد.. ربّنا يسلمهم، ويحميهم. اللّه يطوِّل بعمرك يا علي.

زحفت فاطمة، واحتضنت رأس رشاد وباسته، وشمّت رائحته،

مثل ريحة أبوك يا حبيبي...

أزاحت رأسه عن صدرها قليلًا برفق:

دير بالك على حالك يا جدّة. يكفيك وراشة. أبوك ماله غيرك. واللّه لو صار لك شيء سينجنّ أبوك.. اللّه يهديك يا حبيبي.

أخذت تتلو على رأسه آيات من القرآن، وتتمتم بأوراد بصوت خافت منغّم، فأغمض رشاد عينيه، ونام، وعلا شخيره.

سرّت عندما رأته يلعب مع الأولاد وهي تقف في بوّابة بيتها المفتوحة.

عندما استدار، وهو يركض أمام أحد الأولاد، التقى نظره بنظرها، فأشارت له، وهي تناديه:

رشاد.. تعال.

ركض إليها، وعندما وصلها لاهثًا، شقّت البوّابة وربتت على ظهره، وفركت شعره بود، وأشارت له إلى رجل يرتدي ملابس عسكريَّة، وهو يتهيَّأ للخروج، وفي يده رشاشة صغيرة:

هذا زوجي.. الأستاذ فوزي يا رشاد.

أوشكت أن تقول له أبو عدنان، لكنَّها أحجمت، وكرَّرت:

الأستاذ فوزي.. أستاذ في قرية عجّور.. ليست بعيدة عن قريتكم، وعن بيت جبرين.

اقترب منه الأستاذ فوزي، فلفت انتباه رشاد بعينيه السوداوين الفسيحتين، ورأسه العاري المغطّى بشعره الأسود المفروق:

مرحبًا يا رشاد.. أنت ذكريني ها؟ أم.. عد.. نا.. ن تحبّك كثيرًا يا رشاد.

أمسك بكتفيه ومرجحه بين يديه:

أنت نحيف يا رشاد، كأنَّك لا تأكل.

رفع رشاد وجهه وتأمَّل ملامح الرجل:

تعال هنا دائمًا، لا تستحي، فخالتك أم عدنان تحبّك كأنَّك ابنها.

ثمَّ انحنى، وباس جبينه، ولم يكمِّل كلامه.

خطا بضع خطوات، فلحقت به زوجته، وجذبت رشادًا من يده. وقبل أن يخطو خارج البوّابة، التفت الرجل وابتسم لزوجته:

ديري بالك عليه.. أنت حببتيني به، فحكايته هو وأمّه وأخته أوجعتني كثيرًا.

تأمَّل الأستاذ فوزي وجه رشاد، وابتسم:

سترجعون إلى ذكرين قريبًا، وسأزوركم أنا وخالتك أم عدنان، إن شاء اللَّه.. وسنتعرَّف بوالدك.

لوَّحت له زوجته، وهي تردِّد:

اللَّه يسمع منك يا .. أبو.. عد نا.. ن.

سألت رشادًا:

جائع يا ابني؟

لم يحر جوابًا، وتفطَّن أنّه أكل خبزة يابسة في الصباح، ابتلعها مع الماء.

لفَّت له رغيفًا بالحلاوة، وأجلسته على المصطبة:

كل يا حبيبي.. كل. يا ربّ ببركة عطفي عليك ومحبَّتي لك يا رشاد ترزقني بعدنان. سبع سنوات وأنا أنتظر يا رب!

أنشبت أصابعها في بطنها، وكأنَّها تعاقبه على جفافه، ثمَّ تنهّدت، وتأمَّلت رشادًا، وهو ينهش الرغيف ويحشو فمه بلقمات كبيرة تملأ لغديه، فيكاد أن لا يتنفَّس، فناولته طاسة الماء:

اشرب، وكل شويّة شويّة يا حبيبي.

شرب، وعاد لنهش ما تبقّى من الرغيف بحلاوته اللّذيذة، وهو يشعر بالسعادة، متابعًا بنظره المرأة التي انهمكت في أشغال بيتها، وهي تدندن بأغنية حزينة لم يستطع فهم كلماتها.

وجده متمدِّدًا تحت شجرة الزيتون الرومية الوارفة في آخر الكرم، فجلس قرب رأسه، وخلع الخوذة المعدنيَّة عن رأسه، وأسند بارودته على ساق الشجرة الضخم.

فتح عينيه وتنفَّس، كأنَّه يفتح رئتيه بصعوبة لتأخذا نفسًا يملأهما. سحب مؤخرته على الأرض، وأراح ظهره على ساق الزيتونة، وفتح عينيه اللَّتين بدتا محمّرتين، مترهّلتيّ الجفون، شائبتي الرموش القليلة.

براو عليكم يا محمود.. استطعتم أن تردُّوا اليهود.

وجدها محمود فرصة:

هذه المرَّة استطعنا يابا مرشد، لكنَّ ذخيرتنا نقصت كثيرًا، وبعض المسلَّحين بالكاد معه عشر رصاصات. رحت أنا وأبو فيصل لبيت جبرين، وطلبنا منهم شويّة ذخيرة فاعتذروا، لقلَّة الذخيرة عندهم، ولأنَّهم أرسلوا للخليل من يشتري ذخيرة بأيّ ثمن فعاد خائبًا يابا.

تنهَّد مرشد، وأخذت أصابعه تنبش التراب، وهو ينظر أمامه بذهول وحزن.

محمود متأكِّد من أنَّ عمّه مرشد سيرفض ما يقترحه، وقد يغضب منه، ولكنَّه تجرأ وقال:

يابا مرشد: البلد فاضية. الناس رحلوا، والمسلَّحون مشغولون بالحراسة، وأنت وحدك، ولا من يخدمك، فأنت لم تعد بصحتك.

أسكت يا محمود.

وبكلّ طاقته:

أسكت. أعرف ما تريد قوله يا محمود.. سمعته منك، ومن عبد الرحمن كثيرًا.

أنشب أظافره في التراب وحفن منه.

أنظر إلى لونه يا محمود...

ثمَّ أخذ يدعك به شيب لحيته وصدغيه ووجهه، ويبكي بصوت عال لم يحدث أن سمعه محمود من قبل:

أنا سأموت هنا في ذكرين، وفي ترابها سأدفن يا محمود، مع حرب في قبر واحد يا محمود، حتى لو شرّدتم جميعكم وبقيت وحدي مع الكلاب والقطط والحمام.. هنا يا ولدي سأدفن.

وقف محمود ووضع طاسة الحرب على رأسه، ثمَّ غادر الكرم. أصغى للصمت الذي يشمل ذكرين، فشعر بالرهبة، وأدار رأسه في الاتِّجاهات فلم ير أحدًا، فالمسلّحون يكمنون في مواقعهم، والقرية فرغت تمامًا من ناسها الذين تشرَّدوا بعيدًا عن الخطر.

شعر محمود بالحيرة، وتساءل: إذا سقطت القرية في يد اليهود، فكيف سنتصرَّف أنا وعبد الرحمن؟ هل سنترك أبي مرشد ونرحل؟

انفجر محمود بنشيج متواصل هزّ بدنه، وفي داخله دوّى سؤال: لماذا يحدث هذا لنا يا ربّ.. لماذا؟!

نادته صفيّة، وكان متلهِّفًا أن تناديه، حتى إنَّه قرفص قبالة بوّابة البيت. تمنَّى أن تنفتح البوّابة ليرى يدها وهي تناديه، وبعد انتظار طال أطلَّت من فرجة البوّابة، وها هي راحتها تلوِّح له.. وفمها ينطق باسمه.

ركض، واندفع ليقذف بنفسه بين ذراعيها، فانحنت عليه، ولم يسمعها تقول شيئًا، فهي تحتضنه بقوَّة وتبوس رأسه، وتسقط من عينيها دموع ساخنة على رقبته.

رفع وجهه، فرأى عينيها الدامعتين.

كان صوت دويّ رصاص يتصاعد قريبًا من بيت جبرين.

فجأة، توقَّفت سيّارة صغيرة، وهبط من جوفها الأستاذ فوزي، وهو يصيح:

يلّا يا صفيّة.. بسرعة.

تركته ودخلت في البيت، والأستاذ فوزي عبر بجواره دون أن ينتبه له.. وبعد قليل، خرجا حاملين كيسين، ثمَّ دخلا من جديد وحملا حقيبتين، وضعها الأستاذ فوزي في صندوق السيارة الخلفي.

رشاد...

احتضنته وارتفع صوت بكائها:

بخاطرك يا رشاد. بدنا نرحل للخليل يا حبيبي. أنا طلبت من امرأة عمّك أن تسمح لي بأخذك معي، ولكنَّها رفضت. قالت: أبوه ليس له غيره.. وسينجنّ لو علم أنَّك أخذته معك.

ارتفع صوت الأستاذ فوزي:

يلّا يا صفيّة.. يلا بسرعة.. اليهود وصلوا...

وقف رشاد مشدوهًا، لا يعرف ماذا يقول، فهو يراها ترحل، وهو سيبقى بدون.. لم يعرف بدون ماذا؟ لكنَّه سيعود للجوس وحده، دون أن يعتني به أحد.

ابتعدت قليلًا، ثمَّ عادت واحتضنته:

يمكن أشوفك في الخليل.. إن حضر أهلك إليها.

فتح الأستاذ فوزي باب السيّارة وصاح:

يلّا يا صفيّة الشوفير عصّب، ويريد أن يتركنا.

ركضت. لوَّحت لرشاد بيد، وبيدها الثانية أخذت تمسح دموعها.

انطلقت السيّارة تاركة زوبعة من غبار، فركض رشاد خلفها، ووجد نفسه يصرخ:

يماااااااااا صفيّة...

ولكنَّ السّيّارة توارت، وسحابة الغبار اتّسعت في الفضاء.

وقف عاجزًا يائسًا: لماذا تركتيني يا...

عاد وقعد لصق بوّابة بيت صفيّة، وأسند رأسه إلى البوّابة الخشبيَّة. وبفمه الذي ملّحته دموعه، أخذ يهمس لنفسه: لو كانت أمّي ما تركتني..لو كانت أمّي لأخذتني

معها.. لو...

يقضي الولد أحمد وقته جالسًا على الأشجار بين الأغصان الغليظة المتشابكة، ولكنَّه يملّ فيهبط قافزًا، ثمَّ يمضي إلى باب الكرم ، ويرسل نظره إلى البيادر، وطريق الآبار، ويتجاسر أحيانًا فيخرج ويتمشَّى حذرًا، فهو يشعر بالخوف من الصمت الذي يشمل ذكرين، ولذا يبقى ملاصقًا لسور كرم جدّه حتى ليكاد رأسه يلامس ألواح الصبر.

عند طرف الكرم يتوقَّف، ويستدير ناظرًا صوب المدرسة، ثمَّ يترك الكرم، ويبتعد قليلًا ليرى المسلّحين الذين يتردَّدون على المدرسة، وحين لا يرى أحدًا يعود مسرعًا، ويرسل نظره إلى الشارع الذي يدخل منه إلى بيتهم.

أمس، زار البيت مع والده، فوجده موحشًا، فتحسَّر على الكلب قطاش الذي مات عند الآبار، فقد كان يؤنسه، وينبح بود حين يراه، ويهزّ ذنبه وهو يتنطَّط حوله كأنَّه يرحِّب به.

سمع صوت انفجار بعيد فركض عائدًا إلى الكرم، واطمأنَّ بعد دخوله. رأى جسد جدّه مائلًا، ورأسه يكاد يسقط على التراب، فركض باتّجاهه، وقرفص أمامه، وناداه بصوت خافت قلق:

سيِّد مرشد.. يا سيِّد مرشد.. أنت نائم يا سيِّد؟!

لم يرد، ولم يفتح عينيه، فمدّ يده إلى كتفه وأخذ يهزّ بدنه، فمال جسده وسقط رأسه على الأرض، فصاح وهو يركض خارج الكرم، وظلّ يصيح حتى رأى والده يبرز من جهة البيت، فسقط ما بيده، وركض إليه:

أنت تصرخ يا أحمد.. ليش تصرخ ؟

سيِّدي مرشد يابا.. لا يرد، ورأسه سقط على التراب، و.. لا يرد يابا!

ركض عبد الرحمن، وهو يردِّد: يابا مرشد.. يابا أنا جئتك يابا.

ارتمى على جسد والده وأخذ يهزّه، فلم يستجب، ولم يسمع نَفَسه وهو يضع رأسه على صدره.

رحْ يا أحمد ابحث عن عمّك محمود، وعمّك أحمد، ومن تجده من أهلنا أخبره، وأخبر من تلتقيه من أهل البلد في طريقك. وإن وجدت الشيخ خميس في بيته قل له: سيِّدي مرشد مات.. فليعلن ذلك لأهل البلد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف المختار محزونًا، وبعد صمت قال:

إكرام الميِّت دفنه يا أهلنا، والشيخ مرشد التقيّ الطيِّب الكريم مات، والنبيّ صلَّى اللَّه عليه وسلّم مات، ونحن سنموت، فلندفنه في ذكرين، فهذا أكرم له من الموت بعيدًا عنها، فهو اشتهى هذه الميتة يرحمه اللَّه، وربّنا أعطاها له.

عبد الرحمن يضع رأس والده في حضنه، ومحمود يقف ذاهلًا قرب المختار.

قال محمود مذكِّرًا:

وصيَّته أن ندفنه بجوار صاحبه حرب، فهما تعاهدا على هذا منذ كانا في الحرب.

ظلّ المختار ساكتًا، فهو لا يستطيع أن يقول الكلمة الفصل في هذا الشأن، رغم أنَّ حرب قريبه، فله ابن هو صالح، وله أبناء عمومة أقرب منه.

حضر الذكارنة وهم يجهشون بالبكاء، فالقرية حزينة، وخاوية، وهم محتقنون بالهموم والحزن، ففراق أسرهم التي رحلت يشعرهم بأنَّ أيّامهم في ذكرين باتت قليلة، فهم لا يعرفون إلى متى سيصمدون.

انحنى صالح ابن حرب على المرحوم المسجّى، وانهال تقبيلًا على رأسه.

قال المختار:

يا صالح: أهل مرشد يريدون دفنه بجوار والدك حرب.. فماذا تقول؟

ارتفع صوت:

لا يجوز. فعمّي حرب مدفونة أخته عمّتنا خضرة بجواره، والعمّ مرشد غريب.. فلا يجوز دفنه في القبر نفسه.

صاح صالح:

أسكت يا زلمه، عمّي مرشد مش غريب.. من المرأة التي تفوز بالدفن بين فارسين: حرب ومرشد؟! سيدفن عمّي مرشد بجوار صاحبه وحبيبه ورفيقه وأخيه حرب كما تعاهدا. يلّا يا أزلام ندفن عمّنا مرشد..بدوش يتغرّب عمّي مرشد.. ربّنا أكرمه بموته على أرضه في ذكرين.. يلّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزّ عليهم أن يقصروا عن تحضير غداء لأهل القرية، فلا نساء يطبخن، ولا نفس لأحد في الأكل والطبخ والنفخ.

مضوا إلى بيت المختار، وهناك شربوا القهوة المرّة، ولبثوا صامتين، وتردَّد صوت المختار قاطعًا الصمت:

وحِّدوا اللَّه يا جماعة: الموت حقّ، وكلّنا على هذا الطريق، لا دائم إلّا وجه اللَّه...

قال صالح:

الحمد للَّه أنَّ العمّ مرشد لقي من يدفنه ويكرمه، أمّا نحن فلا ندري أين سندفن!

لم ير عبد الرحمن ابنه أحمد، فخرج يبحث عنه، وعند القبر القريب من بيت المختار وجد ابنه ينحني على القبر، وحين رفعه رأى وجهه مغطّى بتراب القبر، فأخذ يمسحه ويقبّله ويبكي على رأسه.

عاد به إلى مضافة بيت المختار، فسمع صوت المختار:

نحن نبكي على أنفسنا يا أقاربي، وعلى ما يجري لنا، ومن خوفنا ممّا ينتظرنا. اللَّه يرحمنا برحمته. من راح ارتاح، والهمّ على من بقي يا أقاربي.

قال أبو فيصل زيغان:

ليعد المسلحون إلى مواقعهم، فالحزن لن يحمينا من اليهود..يلا يا أزلام.. قوموا.. لازم ندافع عن ذكرين حتى آخر رصاصة معنا.
عندئذ، نهض المسلَّحون، وبقي بعض الكبار في السنّ مع المختار في مضافته.

تجمَّعوا في حوش دار المختار.

خرج المختار إليهم بوجه مكفهرّ وهو يسوّي كوفيَّته على رأسه.

وقف أمامهم وتأمَّل وجوههم، ثمَّ تنهَّد تنهدة طويلة:

يا أقاربي: لازم تعرفوا ما يحدث في فلسطين. الراديو أخبرنا أن حيفا سقطت، ويافا سقطت، واللدّ والرمله انسحب منها الجيش الأردنيّ، والجيش المصريّ المحاصر سمحوا له بالانسحاب باتّجاه غزّة.. يعني لن يواصل الحرب، والناصرة سقطت، احتلَّها اليهود، والقدس الغربية احتلُّوها بعد ما استشهد عبد القادر الحسيني قائد الجهاد المقدّس.

صمت وأوشك أن يبكي، فنكس رأسه، ثمَّ رفعه بعد لأيّ وهو يتنهَّد:

أنا أرسلت أسرتي أمس للخليل بأوتومبيل أحمد ظاهر وصالح، بعد ما أبقيتها في ذكرين بعد أسركم. الخليل صامدة، وقرى قضاء الخليل الفوقانيَّة دورا وحلحول ويطّه والسمّوع وبني نعيم.. كلّها صامدة، وإن شاء الله تبقى صامدة.. واحنا صمدنا. نحن الآن في آخر أيّام شهر تشرين أوَّل.. صمدنا ببنادق قليلة، وذخائرنا تكاد تنفد، وليس هناك من ينجدنا. أنا ظنّيت أنَّ الحرب انتهت، والهدنة مستمرّة، وأنَّ اليهود توقَّفوا عن شنّ الهجمات على قرانا، لكنَّهم استمرُّوا في الحرب، وذبحوا أهلنا في الدوايمة، وهم في زاوية الدراويش، ورموهم في البئر. أنا طلبت حضوركم حتى نتشاور: هل نبقى أم ننسحب؟

ران صمت ثقيل على الحضور.

وقف أبو فيصل:

يا مختارنا.. يا عمّنا أبو إسماعيل: ذخيرتنا قليلة، وبعض المسلَّحين ما معهم أكثر من خمس رصاصات.. ورشاش البرن...

وهنا سأل:

أين إسماعيل إبراهيم؟

رفع إسماعيل يده، فسأله:

كم رصاصة معك يا إسماعيل للبرن؟

قال إسماعيل:

حوالى ثلاثين رصاصة...

قال المختار مستدركًا:

أهل رعنا وكدنا وصميل والدير وعجّور رحلوا أمس، يعني لم يبق أحد في هذه القرى المحيطة بنا، ولا نعرف ما جرى لبيت جبرين، وأسرنا فيها!

أكمل أبو فيصل:

نحن لن ننسحب، وسنقاتل بما تبقى معنا من رصاص. اتَّفقت مع أبي رشاد والمسلَّحين على هذا، وتعاهدنا أن نطلق آخر رصاصنا على اليهود قبل ما يحتلّوا

ذكرين.

صمت، في حين ارتفع صوت طائرة في السماء، فرفعوا رؤوسهم محاولين رؤيتها.

صاح المختار:

تفرَّقوا.. روحوا على مواقعكم يا أزلام.

تبعثروا في عدّة اتّجاهات إلى مواقعهم في أطراف ذكرين، وقبل أن يصلوا دوّى انفجار قرب المدرسة، وحين غاب صوت الطائرة تراكضوا من جديد.

ركض إسماعيل حاملًا رشاش البرن، وبجواره ركض شقيقه أحمد، وعند المسجد توقَّفا، وأرسل إسماعيل نظره فرأى يهودًا يتقدَّمون بشكل مكشوف، بشيء من الاستهتار، ربما ليخيفوا المدافعين عن ذكرين، فغمز لشقيقه برأسه، وتقدَّم منحنيًا، ثمَّ ارتمى على الأرض، ووضعهم في الهدف، وانتظر حتى صاروا في مرمى البرن، فضغط على الزناد، وأطلق صلية، فرآهم يرتمون على الأرض، ثمَّ ينهضون ويتراجعون راكضين.

ركض إسماعيل باتّجاه كرمهم، ولطى وراء صخرة في مدخل الكرم، وحين رأى بعض المهاجمين يتقدَّمون ضغط وأطلق عدّة رصاصات، وهو يحاول أن يقدِّر عدد ما أطلق وما بقي من الرصاص.

رآهم يركضون هاربين حتى تواروا بعيدًا في منحدر الطريق الترابيّ.

سأل شقيقه أحمد:

كم رصاصة بقيت معنا؟

عشر رصاصات.

من جهة الآبار، كان صوت الرصاص يدوّي، فأدرك أنَّ اشتباكًا يدور هناك. فكَّر أن يتّجه لإسنادهم، ولكنَّه سأل نفسه: بعشر رصاصات سأقدِّم لهم دعمًا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقدَّمت سيّارات مصفّحة عليها رشاشات تلتفّ حول ذكرين، وتتوارى بين الكروم, وهي تطلق زخّات غزيرة من الرصاص، فتراجع المسلحون إلى داخل القرية، ثمَّ توجَّهوا إلى بيت المختار فلم يجدوه، فتراكضوا إلى المسجد، ولكنَّهم سمعوا صوت طائرة فتراكضوا مبتعدين، ووجدوا أنفسهم يتَّجهون إلى بيت جبرين، وهم يتجنَّبون الكبّانيَّة التي رأوا مصفَّحات تخرج منها وتتفرَّق متَّجهة إلى القرى المجاورة.

أسر كثيرة من القرى المجاورة تحمّل أطفالها وحوائجها على البهائم، وتمضي هائمة باتّجاه بيت جبرين.

لم يتوقَّع مسلّحو ذكرين أنَّها معركتهم الأخيرة، وراهنوا على أنَّهم في بيت جبرين سيتجمَّعون مع مسلّحي القرى المجاورة، ومن هناك سيعودون لطرد اليهود من ذكرين والقرى المجاورة بعد التزوُّد بالذخيرة، لكنَّهم وجدوا بيت جبرين خالية من المسلّحين، فأخذوا يبحثون عن أسرهم لإنقاذها، والابتعاد بها عن الخطر الداهم الذي يطاردهم.

رأتهم مليحة قادمين من جهة ذكرين، فلوَّحت لهم، وصاحت عليهم، فأسرعوا حتى وصلوا إليها.

احتضن محمود ابنه رشاد، ونادى حسن الذي كان وراءه، هو وزوجته نظيرة وأمّه وخالته:

رحْ إلى الخليل يا ابن العمّ، وأحضر لنا سيّارة شحن لتحملنا كلّنا. بسرعة يا ابن العمّ. نظيرة ستبقى معنا فلا تقلق عليها. إن دخل اليهود بيت جبرين، فسنمشي على أرجلنا على طريق الخليل، وسنلتقي على الطريق.. أسرع يا ابن العمّ.

وقف حسن حائرًا. نظر إلى السماء التي بدأت تتلبَّد بغيوم سوداء، ثمَّ انطلق مسرعًا.

ناداه محمود:

معك مصاري يا حسن؟

ردّ حسن وهو يدير ظهره:

معي.. معي...

وانطلق حتى توارى بين الكروم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتبه محمود لصاحب البيت الذي يتَّكئ على عكازه، ويتابعهم بنظره:

نحن سنغادر إلى الخليل يا عمّ.. فما رأيك أن تأتي معنا؟

تأمَّل العجوز وجهه، ونظر نظرة طويلة في عينيه:

أنا لم أغادر مع أولادي. سأبقى هنا مع عجوزتي حتى ترجعوا، أو يقتلنا اليهود هنا في دارنا. من هالمراح ما في رواح يا بنيّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن مليحة أمّه وخالته ذوابة ومليحة يدرين أنَّ الشيخ مرشد مات ودفن في ذكرين، وعندما أخبرها ابنها أحمد بوفاة جدّه، شهقت وفتحت فمها لتصرخ، فأغلقه عبد الرحمن براحته:

مش وقت حزن وصراخ يا مليحة. لو عرفت أمّي وخالتي بالنّبأ فستتعباننا. احزني في قلبك يا مليحة.. على السكيت. مليح أنَّه مات ودفن في ذكرين. احزني علينا وعلى ما سيصير معنا!

احتضنت ابنها أحمد وبكت على رأسه، فهي افتقدته منذ غادرت ذكرين، وهو بدا لها وقد كبر في هذه الفترة، فوجهه صار أكثر سمرة، وطوله ازداد، وشعره استطال على عنقه، وهذا جعله يبدو أكبر من عمره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ساحة بيت جبرين، وقف أحمد ظاهر وهو يمسك بيد ابنته، وزوجته تلتصق به، وهو يصيح: يا أهل ذكرين بدّي أوتومبيلي.. كيف سأرحل للخليل يا ناس؟ المختار

أخذ أوتومبيلي و.. ما رجع. ابن الحرام الشوفير شرد بالأوتومبيل. أنا بدّي أوتومبيلي من المختار.. أيْوه من المختار!

راح محمود إليه وأمسك بيده، وبصوت خفيض همس له:

الدنيا خربانة يا شيخ أحمد.. بلاش صراخ، تعال معنا للخليل، وبعدئذ ربّك سيفرجها. حسن ابن عمّنا سيحضر لنا سيّارة من الخليل...

صاح أحمد ظاهر:

يا ابن سلمان: ليش أطلع معكم وأنا أمتلك أوتومبيل.. ها؟!

اليهود احتلُّوا كلّ قرانا، وهم يحاصرون بيت جبرين، ما عدا طريق الخليل.. فتعال معنا.. تعال قبل ما يدخلوا بيت جبرين!

أدار ظهره كأنَّه لا يسمع، ولا يريد أن يسمع، فخطا محمود ببطء مبتعدًا وهو يمسك بيد رشاد، وعيناه تنظران إلى طريق الخليل، علّه يرى حسن ابن عمّه وقد عاد بسيّارة تحملهم إلى الخليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قفز السائق، وهو يصيح:

يلّا يا ناس.. ما معنا وقت، اليهود اقتربوا كثيرًا...

أنهض عبد الرحمن العجوزين واقتادهما إلى سيّارة الشحن، واصعدهما، وأجلسهما لصق العوارض الخشبيَّة.

عاد ليساعد مليحة والأطفال، بينما رفع محمود رشادًا، وطلب منه أن يمسك بالعوارض الخشبيَّة، وأن لا يصعد عليها.

أمسك حسن بيد نظيرة، وساعدها في الصعود، وأصعد والدته وخالته، وجلس عبد الرحمن على كوم الفراش، وتشعبط الأولاد على العوارض وهم يتلفَّتون حولهم بدهشة غير عارفين بما يحدث.

اندسّ حسن بجوار السائق، وقعد محمود بجوار النافذة، فانطلق السائق، وهو يدعو اللَّه أن يحميهم، ويوصلهم للخليل بالسلامة.

مال حسن، وهمس في أذن محمود:

الشوفير أخذ خمس جنيهات قبل ما يشغّل سيّارته ويحضر معي. الحمد للَّه أنَّني تشعبطت في سيّارة متَّجهة للخليل، وعشان هيك رجعت لكم بسرعة.. ربّنا سهّلها!

نفخ محمود:

أف.. كثير خمسة جنيهات!

همس في أذنه من جديد، فألصق محمود أذنه بفم حسن ليتمكَّن من سماع ما يهمس به بسبب هدير السيّارة:

ما لقيت أحدًا يقبل بالحضور.. كلّهم رفضوا.. هذا الوحيد الذي رضي.

فجأة رأى محمود مختار قريتهم وهو يمشي، وحواليه ابنيه إسماعيل وموسى، فأحنى جسده، وطلب من السائق أن يتوقّف.

فتح الباب ونطَّ، وأمسك بكتف المختار:

عمّ أبو إسماعيل.. اصعد.. اصعد يا إسماعيل أنت وموسى في الصندوق.

هبط حسن ورجع وجلس في الصندوق، بينما جلس أبو رشاد لصق السائق، وجلس المختار بجوار الشبّاك:

تعبنا يا ابن أخي.. تعبنا.. وما لقينا حدّ يوصلنا، ولا نعرف شيئًا عن العائلة، فالسائق لم يرجع ليطمئننا على عيالنا.

عينا المختار تائهتا النظرات. ربَّت على ركبة محمود:

بارك اللَّه بك. مليح أنَّك رأيتنا وأوقفت السيّارة وأنقذتنا.

من زجاج النافذة، تابعا زحف الغيوم السوداء الثقيلة الآتية من جهة الغرب، وسفعت وجوههم رياح باردة أرجفت أبدانهم.

قال المختار:

شتاء ثقيل قادم يا محمود.. والناس تركوا كلّ شيء في دورهم...

لم يجد محمود ما يقوله، فقال المختار بصوت يثقله الحزن:

غيوم سوداء، وشتاء صعب قادم، ونحن لا ندري إلى أين نتَّجه، وما سيجري لنا.. والناس لم يحملوا معهم لا كساء ولا غذاء!

ترنَّح جسد محمود مع السيّارة التي تصعد الطريق بصعوبة، وهي تتمايل: لماذا يا اللَّه؟ لماذا يا ربّ؟ لماذا أخذت زينب، ثمَّ معزوزة، وها هي ذكرين تضيع.. فلماذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلع حسن حطّته وعقاله حتى لا يطيرا عن رأسه، وهو يقف ويتأمَّل زحف الغيوم السوداء الكثيفة، التي كلَّما زحفت غطّت مساحات من السماء وأخفتها، ليتحوَّل النهار إلى ليل مظلم شديد الظلمة.

أدار حسن وجهه صوب ذكرين، وارتفع صوته نائحًا:

مع السلامة يا ذكرين.. مع السلامة يا دورنا.. يا كرومنا.. يا...

وعجز عن الكلام، وبدنه يرتجف من شدّة الريح الباردة التي تسفح وجهه.

من السماء السوداء تساقط مطر غزير، حبّاته داكنة شديدة البرودة، وزمجرت ريح عاتية مثقلة بالبرودة، فغرق من يجلسون في صندوق السيّارة في العتمة والماء والرعب، وهم لا يملكون ما يغطّون به أبدانهم، ويحمون به رؤوسهم.

التصق الصغار بمليحة، وضمَّ حسن نظيرة، ولفَّت العجوزان بدنيهما بلحاف، وفتح إسماعيل وموسى عيونهما على الهول مذهولين، وتشبَّثت أمّ حسن وخالته ببعضهما بعضًا وهما تستغيثان باللَّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شغّل السائق المسّاحتين، ولكنّ المطر كان يغرق الزجاج، وضوء السّيّارة لا يمكنه من رؤية بعيدة أمامه، فواصل قيادة الشاحنة غريزيًّا معتمدًا على خبرته بالطريق، وعلى أنَّ الأشجار تحفّ بالسيّارة من الجانبين.

التفت إلى الرجلين الجالسين بجواره:

هذا شتاء لم يمر علينا مثله، رغم قسوة شتاء الخليل عادة، فهذه الغيوم ليست غيومًا، إنّها كتل من السواد تسدّ السماء، وينهمر منها مطر كالسيل.. إنَّها غيوم غضب وسخط!

همس أبو رشاد، كأنَّه يكلِّم نفسه: سواد.. سواد يغرق كلّ شيء، فنحن لا نرى أمامنا، ولا حولنا.. فالغيوم السوداء غطّت السماء، وهي تكاد تدفننا تحتها.

تساءل المختار:

هل سنصل إلى الخليل أحياء؟!

ثمَّ التفت إلى محمود:

كأنَّ هذه الغيوم تنبِّئنا بما هو آتٍ علينا.. يا لطيف أُلطف!

على جانبيِّ الطريق بهائم مثقلة بما تحمل من أطفال وعجائز، وناس يترنَّحون تحت مطر يغرقهم ويثقل حركتهم، وهم يمضون على يمين الطريق ويسارها منحنيِّ الأبدان، غارقين بمطر ينصبُّ من الغيوم الهابطة على رؤوسهم صبًّا، إلى الخليل، بعيدًا عن قراهم التي لا يدرون إن كانوا سيعودون إليها في يوم قريب.. أم إن غيابهم سيطول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

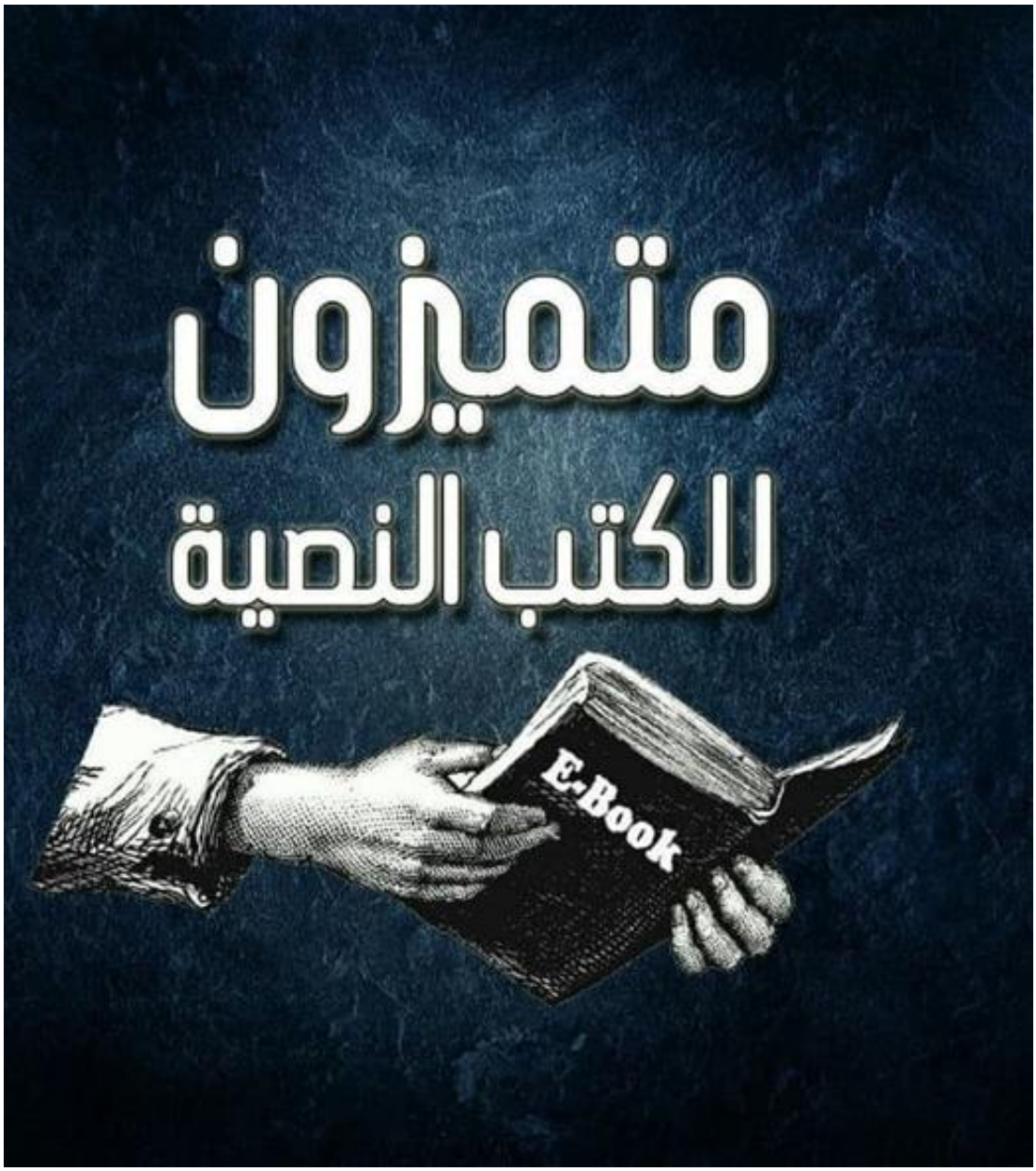
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة